



جمهورية السودان
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية
كلية الدراسات العليا
دائرة القرآن الكريم والدراسات الإسلامية
شعبة التفسير وعلوم القرآن

المحرر الوجيز لابن عطية (١٥٤١هـ) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي
(٦٧١هـ) من بداية الجزء الأول إلى نهاية الجزء الخامس
دراسة تحليلية مقارنة

بحث مقدم لنيل درجة التخصص العليا (الدكتوراه)
في التفسير وعلوم القرآن

إشراف الأستاذ الدكتور:

قاسم بشرى حميدان

إعداد الطالب:

ماهر طه أحمد محمد

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م



استهلال

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ

الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

الإسراء: ٩ - ١٠

إهداء

إلى والديّ الكريمين الفاضلين الحنونين، وأسرّتي الكريمة، وإلى زوجتي وأولادي
الصابرين، وإلى مشايخي وطلبة العلم الفضلاء، وإلى الدعاة والمجاهدين في سبيل
الله النبلاء، وإلى مَنْ أحببناهم في الله وأحبونا فيه، أهدى ثمرة جهدي هذا وأسأل
الله أن يجعله نافعًا مباركًا.

شكر وعرّفان

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وبعونه وفضله تُنال المَكْرَمَات، وبتييسيره وتوفيقه تُدَلُّ العقبات، جعل العلم والهدى أعظم الهبات، فנסأله الزيادة والثبات، والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا. فالحمد لله أولاً وآخراً، والشكر المزيد له دائماً وأبداً. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾^(٢)، فإني في هذا المقام المبارك أشكر الله العظيم شكراً عظيماً يليق بجلاله، وأثني عليه بما هو أهل، وبما أثنى على نفسه، سبحانه لا أحصي ثناء عليه، أبوء بنعمه وفضله وستره، وأبوء بذنبي وتقصيري وعجزتي، وأسأله أن يغفر لي وأن يتولاني برحمته، وألا يكلني إلى نفسي أو إلى غيره طرفة عين. وكما أنني لا أحصي ثناءً على الله ولا أقدر؛ فكل نعمة منه سبحانه، كذلك فإني أعجز عن شكر والديّ الكريمين، ولا ضير أن أقول بأنهما صاحباً هذا البحث وبكل ما يقوم به الباحث؛ لما غمراني به من الحنان وحسن التربية وبالدمع المادي والمعنوي، ووقفاً بجانبني عند الشدة والمصيبة، وشجعاني في طلب العلم وأخذاً بيدي عند كل عثرة إلى يومي هذا، وعجزتُ أن أقوم بحقهما، فأسأل الله سبحانه أن يجزيهما عني خير الجزاء، وأن يجعلني وذريتي ذخراً لهما في الدنيا والآخرة، وأن يجعل عملي هذا وغيره في ميزان حسناتهما، وأن يجعلهما عني راضيين، وأن يجمعني بهما في الدنيا في خير، وفي الآخرة في مستقر رحمته مع النبيين والعلماء والصالحين والشهداء في أعلى الدرجات.

كما أشكر في هذا المقام الصرح الشامخ المتميز، والمحضن العلمي البديع، جامعة القرآن الكريم، الجامعة التي كلما دخلناها أو عبرنا بجانبها انشروحت صدورنا، وتهللت وجوهنا، فكم تتفسنا نسيمها الطيب وهوائها النقي الممزوج بالعلم الصافي والحنان الدافئ،

(١) إبراهيم: ٣٤

(٢) لقمان: ١٤

فلها شكري وامتناني، ولجميع العاملين فيها تقديري واحترامي، وأخص كلية الدراسات العليا، وشعبة التفسير، الذين خالطناهم فعرفنا منهم تواضع العلماء، ونصح الحكماء، وابتسامة المحبين، وإن تجرأنا يوماً بين أيديهم فلحسن أخلاقهم ولين جانبهم وهكذا أخلاق الأنبياء، فلهم شكري وتقديري وتوقيري.

وفي هذا المقام أشكر شيخي الفاضل الدكتور قاسم بُشري حميدان حفظه الله، والحمد لله أن كان مشرفاً على رسالتي، فالعلم يزدان بأخذه عن الأكابر، وبمشرفي حُق لي أن أفاخر، ولا انتقص من أحد، ولكن ذلك فضل الله يؤتية من يشاء، لقد كان شيخي الدكتور قاسم -حفظه الله- نعم العالم المتواضع، والأب الناصح المشفق، غمرني بعلمه، ولأطفني بتصويبه، وأحسن إليّ بتأديبه، وشجعني في وقت ضعفي وحاجتي، وتدرج بي ناصحاً ليكون عملي ناجحاً، فله دعائي وثنائي، والله أسأل أن يجزيه خيراً، ويزيده علماً وفضلاً، وأن يجمعنا وأياه مع النبيين والعلماء الربانيين وعباده الصالحين في عليين.

كما أخص بالشكر والتبجيل لجنة المناقشة والحكم المكونة من:

الأستاذ الدكتور/ الطاهر أحمد عبد القادر ممتحننا خارجياً.

والأستاذ الدكتور/ محمد بخيت ممتحننا داخلياً.

الذين تفضلاً بمناقشة هذا البحث والنصح لي فيه بما يحسنه، ليزداد جمالاً ونوراً، وازداد منهما فضلاً وعلماً، وسأخذ كلامهما بعين الاعتبار، فجزاهما الله خير الجزاء، وجعلهما مع الصديقين والأنبياء.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشكر لشيخي الحبيب الدكتور مأمون عبد الرحمن الزاكي الذي كان له سبق استقبالي في السودان وتوجيهي بشأن هذه الرسالة، كما أشكر الأخ الفاضل الشيخ عدنان المقطري الذي قام بترشيحي في برنامج النُخبة التأهيلي، التابع لرابطة أهل الحديث في اليمن، والتي ساهمت بتأهيل كوكبة من دعاة اليمن وفضلائها لإكمال الدراسات العليا، فلهم جميعاً الشكر والتقدير.

وشكري وامتناني ودعائي لكل من أعانني وآزرني في درب الهدى والعلم والدعوة وإتمام
هذه الرسالة من زوجة وولد وأخ وأخت ومُحب. وأسأل الله لي ولهم التوفيق والسداد.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُونَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١) ، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢) . أما بعد

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وإن من نعم الله العظيمة عليّ أن وفقني لطلب العلم الشرعي، وسلك بي تخصص التفسير وعلوم القرآن، ووفقني لمواصلة الدراسات العليا مرحلة الدكتوراه، ومدني بعنوان عظيم النفع والفائدة (المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي. من الجزء الاول إلى نهاية الجزء الخامس. "دراسة تحليلية مقارنة").

فله الحمد والمنه، وأسأله سبحانه أن يزيدي علماً وإيماناً، وحكمةً وفهماً، وتوفيقاً ورُشدًا، وأسأله حسن العاقبة والخاتمة. آمين.

لقد كنتُ أشواق لعلم التفسير ولمعرفة بلاد الأندلس المنسية منذ الصغر، فسبحان الله الذي جمع لي بينهما في رسالتي هذه. فما أحلاه من قدر.

(١) آل عمران: ١٠٢

(٢) النساء: ١

لقد تعرفتُ من خلال هذه الدراسة على الإمامين الجليلين ابن عطية والقرطبي عن قرب، فصرت لهما تلميذاً وبفضلهما شاهداً، وصرت ببلاد الأندلس متيماً وعلى فقدتها حزياً مغموماً، فإله المستعان.

وفي هذين التفسيرين وجدتُ نفسي أعوم وأغوص في بحرين واسعين عذبيين، قعرهما عميق وأفقهما بعيد، وأمواجهما كثيرة السرحان والمجيء في هدوء وانسجام، وخيرهما ودُّرهما متكاثر متناثر، فحويْتُ ما أقدر، وفَوْتُ الكثير لضعفي وعجزِي، ومع هذا فإنِّي بما نلتُ منهما سعيد مستبشر، راجياً بأن أعود إليهما لأستكثر.

لقد علمتُ حين اخترتُ هذا العنوان أنّي أقبلتُ على مشروع عظيم شاق، لكنه عظيم الفائدة والنفعة لطالب العلم، فأثرتُ حب الفائدة والعلم على خوف المشقة والانقطاع، متوكلاً على الله رب العالمين، فأعاني برحمته وتغمدني بفضله، مع ما مررتُ به من ظروف عنيفة، وأحوال مخيفة، ومغامرات وأخطار، وحاجة وفاقة، حتى خشيتُ مراراً أن أنقطع، ووسوست نفسي أن الوصول مُمتنع. فسبحان من لطف بي وأعان ووفقني وهدان فله الحمد والشكر.

إنّ تفسير ابن عطية وتفسير القرطبي مشحونان بالأحكام والعلوم المختلفة، فقد توسع المفسران في التفسير بالمأثور والقراءات واللغة العربية والفقهاء والرد على المخالفين، مع دقة في الألفاظ وإيجاز في العبارة، وتمحيص وتلخيص، حتى صار تفسيرهما بمثابة التلخيص لكتب التفاسير السابقة، وبمثابة الحصن المنيع والنبع الوافر للتفاسير اللاحقة. والتفسيران محل اهتمام العلماء قديماً وحديثاً، وهذا البحث جزء من هذا الاهتمام، أسأل الله أن يوفقني للقيام بحقه، وأن يؤيدني بعونه وتسديده، فهو حسبي ونعم الوكيل.

أهمية الموضوع:

- ١- تعلقه بتفسير كتاب الله الذي لا ينتهي شرفه، ولا تنتهي عجائبه، وهو سعادة البشرية ومنهجها القويم.
- ٢- الكتابان (تفسير ابن عطية وتفسير القرطبي) من الكتب الجامعة النافعة والمراجع المعتمدة الهامة التي تستحق العناية ودراسة التفسيرين دراسة مقارنة يُعدُّ تعزيزاً للتراث الإسلامي ويضيف شيئاً جديداً لعلوم القرآن والتفسير المقارن.
- ٣- دراسة هذا الموضوع فيه فائدة عظيمة للباحث فهو يزيد من الملكة التفسيرية وبناء الشخصية العلمية في التفسير وعلوم القرآن، وفي مجالات شتى من العلوم المبنوثة في التفسيرين.

أسباب اختياري للموضوع:

إن موضوع البحث وعنوانه أهم خطوات البحث بل هو أساسه، وقد يكون اختيار الموضوع والعنوان من أصعب مراحل البحث، وقد تعبُّت حتى وجدتُ هذا العنوان وأسباب اختياري له أخصها بالآتي:

١- أنه مقترح من الجامعة الموقرة -جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية- ليكون مجالاً لدراسة الباحثين المتخصصين، ولاشك أن الجامعة إنما اقترحت له لأهميته وجودته والحاجة إليه.

٢- اختياري لهذا الموضوع كان توفيراً للجهد والزمن الذي ذهب عليَّ في البحث عن عناوين نافعة مقبولة.

٤- اخترت هذا الموضوع مع ضخامته ومشقته لرغبتني في طلب العلم النافع والبحث عن الفائدة العلمية، وحبتي للتفسير والعلماء، والتفقه في دين الله، ورأيتُ أن هذه الدراسة ستحقق لي ذلك بإذن الله.

الدراسات السابقة في الموضوع:

بعد التحري والبحث لم أجد -حسب علمي- أي دراسة تحليلية مقارنة بين الكتابين المحرر الوجيز لابن عطية والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وهذا أول مشروع لدراسة الكتابين دراسة تحليلية مقارنة. والله أعلم.

وهناك دراسات أخرى لها علاقة أو تشابه مع هذا الموضوع، وسأذكر طرفاً منها، واضعاً خطأً تحت وجه العلاقة بهذه الدراسة:

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن من أول سورة فاطر إلى آخر سورة الطور "دراسة منهجية مقارنة"، رسالة دكتوراه لصاحبها/ طلال ناصر الجادعي، إشراف فضيلة الدكتور قاسم بُشرى حميدان، صادرة من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، جمهورية السودان، عام (١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م).

- بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي "دراسة تحليلية مقارنة" من الجزء الأول إلى نهاية الجزء الثاني، رسالة ماجستير لصاحبها/ إيهاب محمد عبيد، إشراف فضيلة الدكتور الجزولي الامير الجزولي، صادرة من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، جمهورية السودان، عام (١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م).

- استدراكات ابن عطية في المحرر الوجيز على الطبري في جامع البيان، "عرضاً ودراسة"، وهي رسالة علمية وكتاب مطبوع لـ صاحبه أ. د/ شايح بن عبده بن شايح الأسمرى، صادر من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، طُبِعَ عام (١٤٢٧ هـ).

- منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، رسالة دكتوراه لصاحبها / عبد الوهاب فايد، المطبعة الأميرية، صادرة من جامعة الأزهر، القاهرة، جمهورية مصر، عام (١٣٩٣ هـ).

- الاستنباط عند الإمام ابن عطية الاندلسي في تفسيره المحرر الوجيز "دراسية نظرية تطبيقية" رسالة دكتوراه لصاحبها/ عواطف أمين البساطي، إشراف فضيلة الدكتور أمين عطية محمد باشا، صادرة من جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، عام (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٨م).

- اختيارات الإمام القرطبي في آيات الحدود والجنايات من خلال تفسيره الجامع لأحكام القرآن "دراسة تحليلية وصفية"، لصاحبها/ عمر أحمد سالم عليو، إشراف فضيلة الدكتور يوسف صابون ذهب، رسالة ماجستير، صادرة من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، جمهورية السودان، عام (١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م).

- الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، كتاب لصاحبه/ مشهور حسن محمود سلمان، صادر من دار القلم، دمشق، طبع عام (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

وهناك بحوث ودراسات مبنوثة في الشبكة الدولية للمعلومات وغيرها حول القرطبي وتفسيره وابن عطية وتفسيره، منها بحث بعنوان: القرطبي حياته وآثاره، للدكتور محي هلال السرحان. وكذلك دراسات متفرقة في ملتقى أهل التفسير، وكذلك دراسات لها علاقة بابن عطية والقرطبي بإشراف الدكتور راغب السرجاني...، ولكن لم أعثر على أي دراسة تحليلية مقارنة بين تفسير ابن عطية والقرطبي، وهذه هي الدراسة الأولى، والله أعلم.

منهج الباحث:

الدراسة قائمة على المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستنباطي المقارن، وعملي في هذا البحث كالاتي:

- ١- تقسيم البحث إلى موضوعات مرتبة لتكون مجالاً للدراسة والمقارنة.
- ٢- بعد المطالعة في الآيات المتعلقة بالموضوع وتأملها اختار منها المناسب لدرسته، موضحاً وجوه الاتفاق والافتراق بين التفسيرين مؤكداً ذلك بأمثلة تطبيقية، أتبعها

بدراسة تحليلية أو تعليقات توضيحية، مُستشهدًا بالتفسير الأخرى عند الحاجة والمناسبة.

- ٣- حرصتُ على بيان منهج وطريقة المُفسرين في التفسير.
- ٤- حرصتُ على بيان موقف القرطبي من ابن عطية وما نقله منه.
- ٥- بيّنتُ عقيدة المُفسرين وموقفهما من الآراء والعقائد المخالفة.
- ٦- ألتزم المنهج العلمي عند النقد أو الترجيح أو إضافة شيء للفائدة.
- ٧- كتبتُ الآيات في متن الرسالة بالرسم العثماني الموافق لمصحف المدينة، ووضعتُ اسم السورة ورقم الآية في الحاشية.
- ٨- خزّجتُ الحديث وعزوته إلى مصدره، مُقدّمًا الصحيحين على غيرهما.
- ٩- ترجمتُ للأعلام الذين لهم علاقة في صلب الموضوع.
- ١٠- ترجمتُ للبلدان والأماكن الواردة في صلب الموضوع وتحتاج إلى تعريف.
- ١١- ترجمتُ للفرق والطوائف المذكورة في صلب البحث.
- ١٢- عرّفتُ الكلمات الغريبة التي تحتاج إلى بيان وشرح.
- ١٣- ألتزم الأمانة العلمية في النقل، وعندما أدرج كلامي في كلام مصنف أضع ما أدرجته بين معكوفين بهذا الشكل []، وعندما اختصر في كلام مصنف أضع نقط بهذا الشكل ...
- ١٤- أذكر معلومات المصدر كاملة عند أول ذكر له وأبدأ باسم الكتاب ثم المؤلف ثم المحقق إن وُجد ثم معلومات النشر حسب توفرها، فإذا تكرر المصدر أذكره مُختصرًا.
- ١٥- وضعتُ خاتمة للبحث فيها أهم النتائج والتوصيات.
- ١٦- وضعتُ فهارس للبحث.

هيكل البحث: يتكون البحث من مقدمة وبايين وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة:

وفيها: (أهمية الموضوع، وأسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج الباحث، وهيكل البحث).

الباب الأول: التعريف بالإمامين ابن عطية والقرطبي وتفسيريهما.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: التعريف بالإمام ابن عطية وتفسيره المحرر الوجيز.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالإمام ابن عطية. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمه وكنيته ونسبته.

المطلب الثاني: مولده ووفاته.

المطلب الثالث: الأسرة والدولة التي نشأ فيها.

المطلب الرابع: أسباب أهلت ابن عطية علميا، وطلبه للعلم، ومؤلفاته، وانتفاع

الناس به.

المبحث الثاني: التعريف بتفسير ابن عطية. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسم الكتاب والغرض من تأليفه.

المطلب الثاني: منهج ابن عطية في كتابه المحرر الوجيز.

المطلب الثالث: وصف الكتاب وقيمه العلمية ومصادره في التفسير.

المطلب الرابع: ثناء العلماء على ابن عطية و كتابه المحرر الوجيز.

الفصل الثاني: التعريف بالإمام القرطبي وتفسيره الجامع لأحكام القرآن.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالإمام القرطبي.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمه وكنيته ونسبته ولقبه.

المطلب الثاني: مولده ووفاته.

المطلب الثالث: الأسرة والدولة التي نشأ فيها.

المطلب الرابع: أسباب أهلت القرطبي علمياً، وطلبه للعلم، ومؤلفاته، وانتفاع الناس

به.

المبحث الثاني: التعريف بتفسير الإمام القرطبي. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسم الكتاب والغرض من تأليفه.

المطلب الثاني: منهج القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن.

المطلب الثالث: وصف الكتاب وقيمه العلمية ومصادره في التفسير.

المطلب الرابع: ثناء العلماء على القرطبي و تفسيره الجامع لأحكام القرآن.

الباب الثاني: دراسة تحليلية مقارنة بين المحرر الوجيز والجامع لأحكام القرآن

من الجزء الأول إلى نهاية الجزء الخامس. وفيه فصلان:

الفصل الأول: المقارنة في العقائد وعلوم القرآن. وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المقارنة في العقائد.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: المقارنة في الربوبية والألوهية.

المطلب الثاني: المقارنة في الأسماء والصفات.

المطلب الثالث: المقارنة في الإيمان.

المطلب الرابع: المقارنة في الوعد والوعيد.

المطلب الخامس: المقارنة في الرد على المخالفين.

المبحث الثاني: المقارنة في علوم القرآن. وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: المقارنة بين منهج ابن عطية والقرطبي.

المطلب الثاني: المقارنة في التفسير بالمأثور.

المطلب الثالث: المقارنة في التفسير بالقراءات.

المطلب الرابع: المقارنة في التفسير بلغة العرب.
المطلب الخامس: المقارنة في ذكر القصص والإسرائيليات.
المطلب السادس: المقارنة في ذكر أسباب ومكان النزول.
المطلب السابع: المقارنة في ذكر الناسخ والمنسوخ.
المطلب الثامن: موقف القرطبي من تفسير وأقوال ابن عطية.
الفصل الثاني: المقارنة في العبادات والمعاملات. وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المقارنة في العبادات.
وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: المقارنة في الصلاة.
المطلب الثاني: المقارنة في الزكاة.
المطلب الثالث: المقارنة في الصوم.
المطلب الرابع: المقارنة في الحج.

المبحث الثاني: المقارنة في المعاملات. وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: المقارنة في الأخلاق.
المطلب الثاني: المقارنة في الربا.
المطلب الثالث: المقارنة في الرهن والشهادة.
خاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس الأعلام.
- فهرس الأماكن والبلدان والقبائل والدول.
- فهرس الفرق.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

الباب الأول

التعريف بالإمامين ابن عطية والقرطبي وتفسيريهما

وفيه فصلان:

الفصل الأول: التعريف بالإمام ابن عطية وتفسيره المحرر الوجيز

الفصل الثاني: التعريف بالإمام القرطبي وتفسيره الجامع لأحكام القرآن

الفصل الأول

التعريف بالإمام ابن عطية وتفسيره المحرر الوجيز

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالإمام ابن عطية

المبحث الثاني: التعريف بتفسير ابن عطية المسمى المحرر الوجيز

المبحث الأول

التعريف بالإمام ابن عطية

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمه وكنيته ونسبته

المطلب الثاني: مولده ووفاته

المطلب الثالث: الأسرة والدولة التي نشأ فيها

المطلب الرابع: أسباب أهلت ابن عطية علميا، وطلبه للعلم، ومؤلفاته وانتفاع الناس

به

المطلب الأول

اسمه وكنيته ونسبته

اسمه:

لم يختلف المؤرخون في اسمه واسم أبيه فهو عبد الحق بن غالب، ولكن هناك خلاف يسير في اسم بعض أجداده، فمثلا اسم جده (أبيه الثاني) في كتاب بُغية الملتمس "عبد الرحمن"^(١)، وفي كتاب فوات الوفيات "عبد الملك"^(٢)، وفي كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة "عطية"^(٣). وهذا الاختلاف لا يضر، ويحصل كثيرا في كتب المؤرخين، وقد يكون سببه، تفاوت علم المؤرخين، أو اختلاف منهجهم في الترجمة فمنهم من يبسط ويستوعب ومنهم من يختصر ويُغفل، ومنهم من يتحرى الدقة ومنهم من يتساهل، وأحيانا يُنسب الشخصُ إلى بعض أجداده دون بعضهم لاشتهاره بذلك، ومهما يكن سبب الاختلاف في بعض أجداده فلا يضر، وعلينا البحث عن مُرجح ما أمكن، وخير مرجح أن يذكُر الشخصُ اسمه ونسبه فهو أعلم به من غيره، وقد فعل ذلك ابن عطية، فذكر اسم أبيه ونسبه في كتابٍ له آخر

(١) بُغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لمؤلفه: (ابن عميرة) أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الصّبي (ت: ٥٩٩هـ)، الناشر: دار الكاتب العربي، القاهرة، عام النشر: ١٩٦٧م، (ص: ٣٨٩).

(٢) فوات الوفيات، لمؤلفه: (محمد الكُتبي) محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاکر بن هارون بن شاکر الملقب بصلاح الدين (ت: ٧٦٤هـ)، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، ط: الأولى، عام ١٩٧٤م، (٢/٢٥٦).

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة، لمؤلفه: (لسان الدين ابن الخطيب) أبي عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي الأندلسي، (ت: ٧٧٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ، (٣/٤١٢).

يُسمى فهرس^(١) ابن عطية، ذَكَرَ فِيهِ أَسْمَاءُ مَشَايخِهِ وَلَقِيَاهُ بِهِمْ وَإِجَازَاتِهِ وَمُرُويَاتِهِ عَنْهُمْ، وَابْتَدَأَ كِتَابَهُ بِذِكْرِ شَيْخِهِ الْأَوَّلِ أَبِيهِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ غَالِبِ^(٢)، وَذَكَرَ نَسَبَهُ فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: " الْقَفِيهِ أَبُو بَكْرٍ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَالِبِ بْنِ عَبْدِ الرَّؤُوفِ بْنِ تَمَّامِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ تَمَّامِ بْنِ عَطِيَّةِ ابْنِ خَالِدِ بْنِ عَطِيَّةٍ وَعَطِيَّةٌ هَذَا هُوَ الدَّخِلُ الأَنْدَلُسِ وَقَتِ الْفَتْحِ وَهُوَ عَطِيَّةُ بْنُ خَالِدِ ابْنِ حَقَّافِ بْنِ أَسْلَمِ بْنِ مُكْرَمِ بْنِ وَالدِ زَيْدِ بْنِ مُحَارِبِ بْنِ حَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ غَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ"^(٣). وَعَلَى هَذَا فَالرَّاجِحُ الْمُخْتَارُ فِي اسْمِهِ هُوَ:

القاضي أبو محمد عبد الحق ابن القاضي أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطاء بن خالد بن عطية . وعطية هذا هو

(١) فهرس: مأخوذ من الفهرس . بالكسر. وهو الكتاب الذي تُجْمَعُ فِيهِ الكُتُبُ، والفعل منه، ففهرس، والمصدر ففهرسة، وَجَمْعُ الْفَهْرَسَةِ فَهَارِسٌ. انظر: كتاب تاج العروس، لمؤلفه: (مرتضى الزبيدي) محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي، (ت: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، (١٦ / ٣٤٩).

(٢) القاضي أبو بكر غالب ابن عطية، أبو القاضي المفسر عبد الحق ابن عطية، ولد رحمه الله عام ٤٤١هـ وتوفي سنة ٥١٨هـ، وكان فقهياً محدثاً عالماً زاهداً، وله رحلة إلى المشرق طلب فيها العلم، وحجَّ، وتعلم وعلم، ومن تلاميذه وشاره ولده المفسر عبد الحق فقد أحسن تربيته وحثه على العلم. انظر: بُغْيَةُ الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لابن عميرة (ص: ٤٤٠).

(٣) فهرسة ابن عطية، تحقيق: محمد أبو الأجدان، ومحمد الزاهي، الناشر: دار الغرب الاسلامي، لبنان، بيروت، ط: الثانية، ١٩٨٣م، (ص ٥٩).

الداخل الأندلس^(١) وقت الفتح . وهو عطية بن خالد ابن خَفَّافِ بْنِ أَسْلَمَ ابن مُكْرِمٍ من ولد زيد بن مُحَارِبِ^(٢).

كنيته:

أبو محمد^(٣).

نسبته:

الذي يظهر من خلال النظر في ترجمة ابن عطية واسمه ونسبه كما ذكر آنفاً، أنه ينحدر من سلالة عربية أصلها من المشرق هاجرت إلى المغرب أيام الفتوحات الإسلامية، ودخلت بلاد الأندلس في عهد جده عطية.

وقد اشتهر رحمه الله، في نسبته بالآتي:

- ابن عطية: وذلك نسبة إلى أحد أجداده، ولعله عطية^(٤) الداخل إلى بلاد الأندلس أيام الفتوحات الإسلامية، وهذه النسبة اشتهر بها حتى طغت على اسمه وكنيته.

(١) الأندلس: بضم الدال وفتحها، وضم اللام، أصله أعجمي عربيه المسلمون وأطلقوه على شبه جزيرة أيبيريا، وهي بلاد كثيرة الخيرات، جميلة، واسعة، منيعة، يحيط بها الماء من معظم الجهات، على شكل مثلث، تقع حالياً في إسبانيا والبرتغال، فتحها المسلمون بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير في عهد الخلافة الأموية عام (٩٢هـ) وسقط آخر معاقلها من المسلمين في الحملات الصليبية سنة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م). انظر: كتاب مُعْجَم البلدان، لمؤلفه: (ياقوت الحموي) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، (٢٦٣/١)، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م. والموسوعة الحرة والموسوعة العربية العالمية في الشبكة الدولية للمعلومات وغيرها تحت عنوان الأندلس.

(٢) وقد ذكر نحو هذا في مُعْجَم أصحاب القاضي أبي علي الصديقي، لمؤلفه: (ابن الأبار) محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت: ٦٥٨هـ)، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط: الأولى، عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، (ص: ٢٦٣).

(٣) بُغْيَةُ الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لابن عميرة (ص: ٣٨٩). وقد ذكرت كنيته في تفسيره كثيراً.

(٤) عطية: دخل الأندلس وسكن في غرناطة، وأُسل فيها كثيراً ممن له فضل وشأن. (لم أعثر له على ترجمة مستقلة إلا كلاماً نزرًا ميثوثاً في ترجمة المفسر ابن عطية، وهو الذي نقلت خلاصته آنفاً في هذا التعليق). انظر: كتاب

- المُحاربي: أيضا نسبة إلى أحد أجداده وهو أعلى من ابن عطية.
- الأندلسي: نسبة إلى بلاد الأندلس التي دخلها أجداده وعاشوا فيها وأنسلوا وصاروا من أهلها.
- الغرناطي: نسبة إلى بلدة غرناطة^(١) في الأندلس التي ولد فيها.
- القاضي: نسبة إلى القضاء الذي تولاه، كما كان أبوه قاضياً من قبل.
- المالكي: نسبة إلى المذهب الفقهي المالكي المنسوب إلى الإمام مالك^(٢)، وقد كان ابن عطية من أعيان علماء المذهب المالكي^(٣).

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لمؤلفه: (ابن فرحون) برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري (ت: ٧٩٩هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، (ص: ١٧٤).

(١) غرناطة: غرناطة بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم نون، وبعد الألف طاء مهملة، ومعنى غرناطة زمانة بلسان عجم الأندلس سُمي البلد لحسنه بذلك، وهي من أقدم مدن الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها، وتقع غرناطة في ساحل إسبانيا الجنوبي، وهي آخر مدن الأندلس سقوطاً. انظر: مُعجم البلدان، لياقوت الحموي (٤/١٩٥). والموسوعة الحرة وغيرها في الشبكة الدولية للمعلومات تحت عنوان غرناطة.

(٢) مالك بن أنس: إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري اليماني الأصل ثم المدني نسبة إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نشأ فيها وصار إمامها، نشأ في صون ورفاهية وتجل، من أئمة المسلمين المشهورين، جمع بين الحديث والفقهاء، من مؤلفاته موطأ مالك، وُلد عام (٩٣هـ) وتُوفي سنة (١٧٩هـ) ودُفن بالبقيع. انظر: كتاب رجال صحيح مسلم لمؤلفه: (ابن منجوية) أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم، أبو بكر ابن منجوية (ت: ٤٢٨هـ)، تحقيق: عبد الله الليثي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٠٧هـ، (٢/ ٢٢٠)، وسير أعلام النبلاء، لمؤلفه: (الذهبي) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة، عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، (٧/ ١٥٠).

(٣) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص: ١٧٤).

المطلب الثاني

مولده ووفاته

مولده:

وُلد ابن عطية -رحمه الله- بمدينة غرناطة. في عام ثمانين وأربعمائة للهجرة (٤٨٠هـ)^(١). وعلى هذا القول أكثر التراجم. وقيل: في عام واحد وثمانين وأربعمائة للهجرة (٤٨١هـ)^(٢).

وفاته:

لم يختلف القول في كتب التراجم أنه مات بمدينة لُورقة^(٣)، ولكن هناك خلاف في تاريخ وفاته، فقيل: تُوفي سنة احدى وأربعين وخمس مائة للهجرة (٥٤١هـ)^(٤)، وقيل في سنة اثنتين وأربعين وخمس مائة للهجرة (٥٤٢هـ)^(٥)، وقيل في سنة ست وأربعين وخمس مائة هجرية (٥٤٦هـ)^(٦).

والذي يظهر أنه قد عاش من العمر نحو ستين عاما أو يزيد. رحمه الله.

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٩ / ٥٨٨)، والوافي بالوفيات، لمؤلفه: (صلاح الدين الصفدي) خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي (ت: ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، (١٨ / ٤١).

(٢) بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، لابن عميرة (ص: ٣٨٩).

(٣) لُورقة: بالضم ثم السكون، والراء مفتوحة والقاف، ويقال لرقّة، بسكون الراء بغير واو، وهي مدينة بالأندلس وبها حصن ومعقل تاريخي محكم، وهي أكرم بقاع الأندلس وأكثرها خيراً سيما الفواكه، فإن بها من أصناف الفواكه ما لا يوجد في غيرها، وتقع في جنوب إسبانيا. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي (٥/٢٥).

(٤) بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس. لابن عميرة، (ص: ٣٨٩).

(٥) المصدر نفسه، (ص: ٣٨٩).

(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطاب (٣/٤١٤).

وقد كانت وفاته متزامنة مع انهيار دولة المرابطين وسقوطها^(١)، وقد قيل في وفاته: "قصد مُرسية"^(٢)، ليتولى قضائها فُصد عنها اعتداء عليه وُصرف منها إلى لُورقة، فعاش فيها أواخر عمره وتُوفي بها في الخامس والعشرين لرمضان سنة ٥٤١هـ"^(٣). وقد يكون سبب صده عن قضاء مُرسية الفتنة التي نشبت بظهور دولة الموحيدين^(٤) التي قضت على دولة المرابطين. والله أعلم. رحمه الله، ونفعنا بعلومه. آمين.

(١) سقطت دولة المرابطين سنة (٥٤١هـ)، وتوفي ابن عطية سنة (٥٤١هـ) وقيل: ٥٤٢ وقيل: ٥٤٦هـ). وسيأتي التعريف

بدولة المرابطين في المطلب القادم الأسرة والدولة التي نشأ فيها)، لمناسبة ذلك هناك.

(٢) مُرسية: بضم أوله، والسكون، وكسر السين المهملة، وياء مفتوحة خفيفة، وهي مدينة بالأندلس بناءها عبد الرحمن الداخل الأموي، وتقع حاليا في جنوب شرق إسبانيا، وهي مدينة كبيرة وجميلة على نهر يسقي جميعها كنيل مصر، وهي غنية بالثمار والمعادن ولها إطلال على البحر الأبيض المتوسط. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي (١٠٧/٥)، وكذلك الموسوعة الحرة في الشبكة الدولية للمعلومات تحت عنوان مُرسية.

(٣) تاريخ قضاة الأندلس، لمؤلفه: (النباهي) أبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة الناشر: دار الأفاق الجديدة، بيروت- لبنان، عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط: الخامسة، (ص ١٠٩).

(٤) دولة الموحيدين: (٥٤١ هـ) إلى (٦٦٨هـ)، وأول مؤسس لها محمد بن تومرت أظهر معارضته للمرابطين، ثم أعلن دعوته إلى مذهب التوحيد، ويقصد به تأويل صفات الله وتنزيهه وأن ما سواه باطل أو كفر، وادعى المهديّة وأن نسبه يتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم، من فرع الحسن بن علي، وتلقب بالمهدي، وبعد وفاته تولى زعامة هذه الطائفة القائد عبد المؤمن والذي توسعت في عهده دولة الموحيدين، وهكذا حتى سيطرت على معظم المغرب والأندلس وقضت على دولة المرابطين، ثم ضُغفت وهُزمت أمام الصليبيين، وتساقطت الأندلس بعد ذلك في أيدي الصليبيين. انظر: كتاب دولة الموحيدين، لمؤلفه: علي محمد الصلابي، الناشر: دار البيارق للنشر، عمان، (ص: ١٧). ومقالات متفرقة في الشبكة الدولية للمعلومات عن دولة الموحيدين.

المطلب الثالث

الأسرة والدولة التي نشأ فيها

الأسرة التي نشأ فيها:

ينحدر ابن عطية من أسرة كريمة ذات فضل وشرف وعلم، وقد أشاد المؤرخون بتلك الأسرة الفاضلة التي خرج منها العلماء والفضلاء، ومن ذلك قولهم: "نزل جدّه عطية بن حَقَّاف بقرية قسلة^(١) من زاوية غرناطة، فأنسل كثيراً ممن له حَظْر^(٢)، وفيه فضل"^(٣). وقيل أيضاً: "وبيته عريق في العلم"^(٤).

وكان لوالده القاضي العلامة المحدث أبوبكر غالب بن عطية الأثر الكبير في نهوض ولده المفسر عبد الحق بن غالب بن عطية، فقد كان له الأب الحاني والمربي الناصح والمعلم الحاذق، وقد عدّه ابن عطية في كتابه فهرسة ابن عطية أول شيوخه الذين أخذ عنهم العلم^(٥)، وقد كان أبوه - رحمه الله - عالماً زاهداً فقهياً محدثاً، رحل إلى المشرق للعلم والحج، وعاد للأندلس فكان نِعَم المُعَلِّم والأب الناصح المشفق المحب لولده، ومن ذلك أنّه ربما أيقظ ابنه أبا محمد عبد الحق في الليلة مرتين يقول له: قم يا بني اكتب كذا وكذا في موضع كذا من تفسيرك^(٦).

وهكذا نشأ المفسر ابن عطية في أسرة مُتَدِينَة فاضلة ذات مكانةٍ وعلم.

(١) لم أجد لها ترجمة.

(٢) الحَظْر: الشَّرْفُ والمالُ والمنزلةُ وارتفاعُ القَدْرِ، (وَيُحَرِّكُ) وَيُقَالُ: لِلرَّجُلِ الشَّرِيفِ: هُوَ عَظِيمُ الحَظْرِ، وَلَا يُقَالُ لِلدُّونِ. تاج العروس، للزبيدي (١١ / ١٩٧).

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب (٣ / ٤١٢).

(٤) مُعْجَم أصحاب القاضي أبو علي الصدي، لابن الأبار (ص: ٢٦٣).

(٥) فهرسة ابن عطية (ص: ٥٩).

(٦) بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لابن عميرة (ص: ٤٤٠-٤٤١)

الدولة التي نشأ فيها:

نشأ في ظل دولة المرابطين^(١)، وقد كان أول دخول المرابطين الأندلس في عام ٤٧٩ هـ في معركة الزلاقة^(٢) قبل ولادة ابن عطية بعام أو عامين، وكان هذا الدخول بغرض انقاذ الأندلس من هجمات الصليبيين الحاقدين الذين استغلوا اختلاف وضعف أمراء الممالك والطوائف في الأندلس، ولم يكن هناك حل أمام أهل الأندلس وبعض حكام الطوائف إلا أن يستنصروا إخوانهم في الدين فلم يجدوا إلا دولة المرابطين التي كانت تشكل دولة اسلامية قوية في أفريقيا والمغرب الإسلامي ويفصلهم عن الأندلس البحر فقط، واستجاب المرابطون لنصرة إخوانهم الأندلسيين وعبروا بجيشهم مع من وافقهم من المجاهدين البحر إلى الأندلس والتحم بهم بعض الطوائف ومجاهدي الأندلس ليواجهوا حشد النصارى الصليبي الحاقد، فكانت معركة الزلاقة التي انتهت بنصر مبارك عظيم للمسلمين وهزيمة نكراء للكافرين، وفرح المسلمون واستبشروا بالمرابطين خيراً وأملوا فيهم، ثم عاد المرابطون إلى بلاد المغرب بعد أن تركوا بعض جنودهم على الثغور لحمايتها والمشاركة في الجهاد إلا أن حكام الطوائف والممالك عادوا إلى الظلم والتناحر وموالاتة النصارى ولم يقوموا بحق

(١) دولة المرابطين: (٤٥١ هـ) إلى (٥٤١ هـ)، وأول نشأتها في جنوب بلاد المغرب الأقصى في قبائل صنهاجة بزعامة الفقيه عبد الله بن ياسين، والأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي ثم يحيى بن عمر اللمتوني، وبدأت برباط ديني علمي وصارت حركة إصلاحية جهادية، جاهدت الوثنيين وقامت بنشر الدين وتعاليمه، وهي دولة سنية على المذهب المالكي، وتوسعت حتى ضمت المغرب كله والأندلس في عصر القائد الأمير يوسف بن تاشفين، وكان سقوطها على أيدي دولة الموحيين التي نشأت على إثرها في الأندلس. انظر: كتاب فقه التمكن عند دولة المرابطين للدكتور الصلابي، الناشر: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة - مصر، ط: الأولى، عام ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، (ص: ٩).

(٢) الزلاقة: هو الموضع الذي لا يمكن الثبوت عليه من شدة زلقه، والزلاقة: أرض بالأندلس بقرب قرطبة كانت فيها الواقعة الشهيرة والنصر المبين للمسلمين بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين و المعتمد محمد بن عباد من قادات الطوائف الأندلسية على النصارى الصليبيين، وكان ذلك في ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ. انظر: معجم البلدان، للحموي (٣/ ١٤٦)، الروض المعطار في خير الأقطار، لمؤلفه: أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الجميري (ت: ٩٠٠ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط: الثانية، عام ١٩٨٠ م، (ص: ٢٨٧).

الجهاد والمجاهدين، وعاد خطر النصارى يداهم الأندلس فتطلع الناس إلى المرابطين مرة أخرى فراسلوهم واستنصروهم، فكان لابد من الإجابة والنصرة وإنهاء مهزلة الممالك والطوائف الضعيفة المتناحرة التي صارت تُشكل عبئاً ثقيلاً على المسلمين ولا تدفع خطر الكافرين المعتدين، بل بعض أمراء الطوائف كان حليفاً للنصارى!

فتتابعت الرسائل والمناشدات وفتاوى العلماء ليوسف بن تاشفين^(١) قائد المرابطين فعبر إلى الأندلس بجيشه واستطاع أن يوقف الصليبيين عند حدهم ويؤدب تلك الطوائف ويلغيها تماماً ويوحد بلاد الأندلس مع بلاد المغرب تحت سلطنة ودولته التي عُرفت بـ (الملثمين أو المرابطين)^(٢) التي حكمت بلاد المغرب والأندلس جميعاً. وقد عُرفت دولة المرابطين بالتدين والجهاد والنهضة العلمية والسياسية والاقتصادية مع أن عمرها لم يتجاوز مائة سنة، إلا أن بلاد الأندلس انتقلت في ظلهم من عصر التفكك والضعف إلى عصر جديد من الازدهار والقوة والأمان والنشاط العلمي والديني والاقتصادي، لاسيما في عصر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد تأثر ابن عطية بدولة المرابطين التي نشأ فيها، فكان ممن أكثر الغزو معهم، وتولى لهم القضاء فعُدل. كما استفاد ابن عطية من النهضة العلمية في عصره وتنقل في

(١) أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني، الملتئم، ويعرف بأمر المرابطين، ثم اشتهر بلقب أمير المسلمين، وكان بطلاً شجاعاً شهماً عادلاً ذو همة عالية وقيادة نادرة، برز في الحرب والجهاد، واختط مراکش سنة (٤٦٥هـ) وصيرها دار ملكه، شمل سلطانه المغربيين الأقصى والوسط، وجزيرة الأندلس. مات: في أول سنة خمس مائة هجرية، وله بضع وثمانون سنة. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٥٢/١٩).

(٢) كان يطلق عليهم الملتئمين أولاً ثم اشتهروا بالمرابطين لكثرة جهادهم ورباطهم في سبيل الله، وسبب تسميتهم بالملتئمين أن اللثام كان شايح في جنودهم ولا يُعرف صغيروهم من كبيرهم وشيوخهم من شبابهم، لاسيما قبيلة لمتونة أساس دولة المرابطين وقد قيل في سبب لبسهم اللثام أنها عادة ورثوها من أجدادهم الحميريين كانت في خواصهم ثم انتشرت في عوامهم، وقيل لزموا اللثام تبركاً بسبب أن رجالهم كانوا في غزو خارج القبيلة فجاء العدو إلى ديارهم وأراد استباحتهم فلبس الشيوخ والأطفال والنساء اللثام وهيئة الفرسان فخاف العدو فلما عاد الرجال أثنوا في عدوهم فاتخذوه عادة، وقيل كان هناك من أعدائهم من يغير عليهم في بيوتهم إذا خرج الرجال فصنعوا حيلة بأن أمروا النساء للخروج خارج القبيلة وقعد الرجال في البيوت ولزموا اللثام فلما جاء العدو ظفروا به. انظر: الوافي بالوفيات، للصفدي (٢٩ / ٧٨).

ربوع الأندلس لطلب العلم ولقاء العلماء، وبرع في العلم والأدب والنثر والنظم، وصنف كتابه المحرر الوجيز فكان خير شاهد له بالإمامة والفضل^(١).

(١) انظر: معجم أصحاب القاضي أبي علي الصديقي، لابن الأبار (ص: ٢٦٣). وللتوسع في معرفة دولة المرابطين انظر كتاب فقه التمكن عند دولة المرابطين للدكتور الصلابي، والموسوعة الحرة وغيرها في الشبكة الدولية للمعلومات.

المطلب الرابع

أسباب أهلت ابن عطية علمياً، وطلبه للعلم، ومؤلفاته، وانتفاع الناس به

أسباب أهلت ابن عطية علمياً:

أصله الكريم الذي عُرف بالفضل والعلم، ونشأته في ظل أبيه العالم المربي الزاهد، الذي لازال يوجهه ويشجعه ويحوطه بالعناية والتعليم، وعصره المزدهر بالعلم والعلماء، وعيشه في ظل دولة المرابطين التي شجعت العلم والعلماء وأقامت الشرع حتى عُرفت بدولة الفقهاء، وما اتصف به ابن عطية من همة عالية، وذكاء وقاد، وحرص على اقتناء الكتب وقراءتها، ومتابعة الشيوخ والأخذ منهم، كل ذلك كان سبباً بعد توفيق الله عز وجل لجعل ابن عطية عالماً جليلاً وإماماً مجتهداً من أئمة المسلمين.

طلبه للعلم:

تتلمذ -رحمه الله- منذ نشأته على يد والده العلامة المحدث أبي بكر غالب بن عطية، كما تتلمذ على غيره من العلماء، واستكثر من المشايخ والعلماء والإجازات في الفنون المختلفة، وقد صنف ابن عطية كتابه (فهرس ابن عطية)⁽¹⁾ في هذا الشأن، يذكر فيه إجازاته ومروياته وشيوخه ولقياه بهم، وقد ذكر فيه نحو ثلاثين شيخاً التقى بهم وأخذ منهم وأجازوه في فنون مختلفة، ومن خلال التأمل في كتابه هذا (فهرس ابن عطية) وهو يقص رحلته في طلب العلم ولقياه بالمشايخ و العلماء، لم يذكر لنفسه رحلة إلى بلاد المشرق، وذكر لنفسه عدة رحلات ولقاءات علمية في إطار بلاد الأندلس ومدنها، ولعل ابن عطية ترك الرحلة خارج بلاد الأندلس لأسباب أبرزها:

١- ازدهار بلاد الأندلس بالنهضة العلمية في عصره، فأغناه ذلك عن الرحلة خارجها.

(1) كتابه هذا خير مرجع لمن أراد التوسع في معرفة حياته العلمية ومشايخه، فقد وضعه لهذا الغرض.

٢- أخذَه عن أبيه وعن غيره من مشايخ الأندلس الذين كانت لهم رحلة إلى المشرق وإجازات من هناك، فاستغنى بهم عن الرحلة.

٣- انشغاله بأعمال فاضلة أخرى كالجهاد والتصنيف والقضاء، فترك الرحلة خارج الأندلس. والله تعالى أعلم.

مؤلفاته وانتفاع الناس به:

وأما مؤلفاته وتصانيفه، فاشتهر عنه كتابان فقط، وهما كتابه المعروف بفهرس ابن عطية أو برنامج ابن عطية، وقد ضمنه أسماء مشايخه ومروياته وإجازاته عنهم، والكتاب الثاني المعروف بالمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز^(١).

ولعل سبب اقتصاره في التصنيف على هذين الكتابين انشغاله بالجهاد ثم بالقضاء، مع ما صرح به من العزم في أن يقضي عمره وجهده في تفسير كلام الله، فعكف على علم التفسير تمحيصًا، وتلخيصًا وتصنيفًا، بحيث يُخرج للأمة كتابًا ملخصًا وجيزًا يرجع الناس إليه^(٢). وقد حقق الله له ذلك، فأخرج لنا كتابه العظيم المحرر الوجيز، ويكفيه هذا الكتاب الذي صار مرجعًا للمسلمين وللمفسرين من بعده، وهو خير شاهد له بالعلم والإمامة وحسن التصنيف.

وقد انتفع الناس بآبِن عطية وبتفسيره كثيرًا، فابن عطية-رحمه الله- ممن أعز الله بهم الدين، فقد جمع بين جهاد السيف والقلم، فجاهد في سبيل الله وأمر بالمعروف ونهى عن

(١) انظر: كتاب الأعلام، لمؤلفه: (الزركلي) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، ط: الخامسة عشر عام ٢٠٠٢م، (٣/ ٢٨٢)، معجم المؤلفين، لمؤلفه: (عمر كحالة) عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (ت: ٤٠٨هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٥/ ٩٣).

(٢) أشار ابن عطية إلى هذا التعليل في مقدمة تفسيره المحرر الوجيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٢٢هـ، (٣٥-٣٣/١).

المنكر، وعدل في القضاء، حتى قيل عنه: " توخى^(١) الحق، وعدل في الحكم، وأعزّ الخطة^(٢)... ، ألف كتابه المسمى ب (الوجيز في التفسير) فأحسن فيه وأبدع، وطار بحسن نيته كل مطار"^(٣).

وقال ابن الأبار^(٤): "وتأليفه في التفسير جليل الفائدة كتبه الناس كثيراً وسمعوا منه وأخذوا عنه"^(٥).

وقد كان العلماء لا سيماء القدماء منهم ممن جاء بعد ابن عطية يستشهدون بابن عطية وتفسيره ويقدمونه على غيره من التفسير، وقد استشهد به شيخ الإسلام ابن تيمية^(٦) في مؤلفاته في مواضع كثيرة، وقال رحمه الله في مقارنة بين التفسير التي أدركها جواباً عن أصح التفسير: " وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري^(٧) وأصح نقلاً وبحثاً وأبعد

(١) توخى: تحرى وقصد. انظر: كتاب مختار الصحاح، لمؤلفه: (زين الدين الرازي) زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط: الخامسة، عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، (ص: ٣٣٥).

(٢) الخطة: الخطة - بكسر الخاء - الأرض الغير مملوكة يأذن السلطان للمسلمين بأن يخطوا فيها الدور والبنيان، والخطة - بضم الخاء - بمعنى الولاية. انظر: لسان العرب (٧/ ٢٨٩) و (١٥/ ٤٠٧).

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين الخطيب (٣/ ٤١٢).

(٤) الإمام العلامة البليغ الحافظ المجود المقرئ مجد العلماء أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي الأندلسي البلنسي الكاتب المنشي، ويقال له: الأبار وابن الأبار، ولد عام (٥٩٥هـ) وتوفي سنة (٦٥٨هـ) بتونس. سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٧٢).

(٥) المعجم في أصحاب القاضي الصديقي، لابن الأبار (ص: ٢٦١).

(٦) ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن المقتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني، كان من بحور العلم ومن الأكتياء المعدودين والزهاد، ألف ثلاثمائة مجلدة وامتنح وأوذى مرارا، وكانت حياته بين (٦٦١هـ . ٧٢٨هـ). انظر: طبقات الحفاظ لمؤلفه: (جلال الدين السيوطي) عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: ٩١١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٠٣هـ، (ص: ٥٢٠).

(٧) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري، العلامة، النحوي، اللغوي، المفسر، المتكلم، المعتزلي، لقب (جار الله)؛ لأنه جاور بمكة زماناً، من أشهر تصانيفه الكشاف في التفسير، ولد في زمخش من قرى خوارزم، عام (٤٦٠هـ)، ومات ليلة عرفة سنة (٥٣٨هـ). طبقات المفسرين، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين

عن البدع وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفسير...^(١). ومن المفسرين الذين انتفعوا بابن عطية ونقلوا منه الإمام القرطبي، وابن كثير^(٢)، والثعالبي^(٣)، والألوسي^(٤)، والشوكاني^(٥)، وغيرهم.

السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: علي محمد عمر، الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة، ط: الأولى، ١٣٩٦ (ص: ١٢).

(١) مجموع الفتاوى، لمؤلفه: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد، السعودية-المدينة- عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، (١٣ / ٣٨٨).

(٢) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير البصري الدمشقي الشافعي، إمام مفتي ومحدث بارع، وفقه متقن ومؤرخ نقال، ومفسر مشهور، له تصانيف عظيمة من أشهرها (تفسير القرآن العظيم)، وُلد في قرية من أعمال بصرى الشام عام (٧٠١هـ) ثم انتقل وهو طفل مع أخيه إلى دمشق وعاش وتوفي فيها سنة (٧٧٤هـ). انظر: كتاب طبقات المفسرين، لمؤلفه (شمس الدين الداوودي) محمد بن علي بن أحمد الداوودي، المالكي (ت: ٩٤٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، (١ / ١١١)، والأعلام للزركلي (١ / ٣٢٠).

(٣) أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجزائري، المالكي، مُفسر وفقه وأصولي، من تصانيفه: (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، وُلد عام (٧٨٦هـ)، وتُوفي سنة (٨٧٥هـ). انظر: كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لمؤلفه: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، (٤ / ١٥٢). وتفسير الجواهر الحسان عبارة عن تلخيص لتفسير ابن عطية مع بعض فوائد الثعالبي. وانظر كتاب التفسير والمفسرون، لمؤلفه: الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (ت: ١٣٩٨هـ)، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة (١ / ١٧٩).

(٤) شهاب الدين أبو التثاء محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي، مُفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، من تصانيفه (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، ولد ببغداد عام (١٢١٧هـ) وتُوفي بها سنة (١٢٧٠هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٧ / ١٧٦)، ومُعجم المؤلفين، لكحالة (١٢ / ١٧٥).

(٥) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، له (١١٤) مؤلفاً، منها تفسير فتح القدير، وُلد بهجرة شوكان من بلاد خولان، باليمن عام (١١٧٣هـ)، ونشأ بصنعاء، وولي قضاءها سنة (١٢٢٩هـ) وتوفي فيها سنة (١٢٥٠هـ). انظر: الأعلام، للزركلي (٦ / ٢٩٨).

المبحث الثاني

التعريف بتفسير ابن عطية المسمى بالحرر الوجيز

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسم الكتاب والغرض من تأليفه

المطلب الثاني: منهج ابن عطية في كتابه المحرر الوجيز

المطلب الثالث: وصف الكتاب وقيمته العلمية ومصادره في التفسير

المطلب الرابع: ثناء العلماء على ابن عطية و كتابه المحرر الوجيز

المطلب الأول

اسم الكتاب والغرض من تأليفه

اسم الكتاب:

اشتهر تفسير ابن عطية بهذا الاسم (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)^(١)، وهذا الاسم لم يصرح به ابن عطية في كتابه ولكنه أشار إليه فقال رحمه الله: "ففرغت إلى تعليق ما يتخيل لي في المناظرة من علم التفسير وترتيب المعاني، وقصدت فيه أن يكون جامعًا وجيزًا محررًا"^(٢).

ولعل هذه العبارة هي سبب اشتهار الكتاب بالمحرر الوجيز، وقد يسميه بعضهم بتفسير ابن عطية، نسبة إلى مؤلفه، وهذه التسمية أيضًا مشهورة.

الغرض من تأليف تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز):

إن المتأمل في مقدمة تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) يجد أن ابن عطية قد ذكر الغرض من تأليفه لهذا الكتاب العظيم في عبارات متفرقة خلاصتها:

أن يقضي عمره القصير ويبذل جهده ومهجته في خدمة كتاب الله أشرف العلوم، وهو تفسير القرآن الكريم، وأن يخرج للناس كتابًا في التفسير جامعًا وجيزًا محررًا^(٣)، يجمع فيه كل ما يتعلق بالآية، على وجه الاختصار وترك التطويل، حتى يكون كتابه كالحصن

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمؤلفه: (حاجي خليفة) مصطفى بن عبد الله القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة، (ت: ١٠٦٧هـ)، الناشر: مكتبة المثنى - بغداد، عام ١٩٤١م، (٢/ ١٦١٣).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لمؤلفه: (ابن عطية الأندلسي) القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ت(٥٤٦هـ)، تحقيق: هاني الحاج، الناشر: دار التوفيقية للتراث، مصر-القاهرة، (١٠/١).

(٣) مُحرراً: تحرير الكتاب تقويمه وتخليصه، بإقامة حروفه، وتحسينه بإصلاح سقطه. انظر: مختار الصحاح، لزين الدين الرازي (ص: ٧٠)، وتاج العروس، للزبيدي (١٠/ ٥٨٨).

المشيد يرجع إليه الناس، متجاوزاً ما حصل من تفريط أو إفراط في التفاسير السابقة، راجياً
بذلك ثواب الله والنجاة من عقابه (١).

(١) انظر: المحرر الوجيز (١/٩-١١).

المطلب الثاني

منهج المؤلف في كتابه المحرر الوجيز

صرح الإمام ابن عطية -رحمه الله- عن المنهج الذي رسمه لنفسه في تصنيف هذا الكتاب فذكر في مقدمته عبارات وجيزات نافعات، أحببت أن أنقلها بنصها مجتمعة لنفعها وترابطها ثم سنوجز ما ظهر لنا من تلك الخطة التي رسمها لنفسه.

قال رحمه الله: "وقصدت فيه أن يكون جامعاً وجيزاً محرراً، لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به، وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح -رضوان الله عليهم- كتاب الله من مقاصده العربية السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز وأهل القول بعلم الباطن^(١)، وغيرهم، فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين، نبهت عليه، وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة، وقصدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفر^(٢) كما في كثير من كتب المفسرين، ورأيت أن تصنيف التفسير كما صنع المهدي^(٣) -رحمه الله- مفرق للنظر، مشعب للفكر، وقصدت

(١) أهل القول بالرموز وأهل القول بعلم الباطن: هم الذين يميلون عن ظاهر القرآن وتفسير السلف إلى معان أخرى خفية يدعونها بالرأي والهوى، مخالفين بذلك القواعد الشرعية والعربية في التفسير، مدعين الاختصاص بعلم الباطن وأنه المراد والمقدم على علم الظاهر. وهذا التفسير من التفسير بالرأي المذموم، وحكمه حرام، ومن أمثلته: التفسير الباطني للشيعة، وبعض التفسير الإشاري للصوفية. انظر: كتاب: الواضح في علوم القرآن، لمؤلفه: مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب / دار العلوم الانسانية - دمشق، ط: الثانية، عام ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، (ص: ٢٣٨ - ٢٣٩).

(٢) (الطَّفَرَةُ: الوَثْبُ في ارتقاع) كَمَا يَطْفُرُ الْإِنْسَانُ حَائِطًا، أَيْ يَثْبُهُ، وَطَفَرَ الْحَائِطُ: وَثَبَهُ إِلَى مَا وَرَاءَهُ. تاج العروس (٤٣١/١٢). ويقصد بالعبارة الخلل الذي وقع في بعض التفسير، إما بسبب الزيادة والتطويل أو التجاوز والإخلال بترك اشياء مهمة. والله أعلم.

(٣) أحمد بن عمار المهدي، العالم، الفاضل، كان مُقَدِّمًا في القراءات والعربية، صنف التفصيل الجامع لعلوم التنزيل، وهو من أكبر التفسير وأشرفها جليل القدر والشأن في علم التفسير، أولاً فسر النظم الكريم بما ورد في أصح الأقوال المتضمنة للآثار الشريفة ثم بعد ذلك أعرب ما ينبغي إعرابه وذكر أوجه القراءات وما ينبغي لكل وجه من أوجهها في الإعراب، توفي سنة (٤٣١ هـ). وانظر طبقات المفسرين لمؤلفه: أحمد بن محمد الأذنه وي، من علماء

إيراد جميع القراءات: مستعملها وشاذها^(١)، واعتمدت تبين المعاني وجميع احتمالات الألفاظ، كل ذلك بحسب جهدي وما انتهى إليه علمي، وعلى غاية من الإيجاز وحذف فضول القول. وأنا أسأل الله جلت قدرته، أن يجعل ذلك كله لوجهه، وأن يبارك فيه وينفع به، وأنا وإن كنت من المقصرين فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيرًا من علم التفسير، وحملتُ خواطري فيه على التعب الخطير، وعمرتُ به زمني، واستفرغتُ فيه مُنني^(٢)، إذ كتاب الله تعالى لا يتفسر إلا بتصريف جميع العلوم فيه، وجعلته ثمرة وجودي، ونخبة مجهودي، فليستصوب للمرء اجتهاده، وليعذر في تقصيره وخطئه وحسبنا الله ونعم الوكيل. ولنقدم بين يدي القول في التفسير أشياء قد قدم أكثرها المفسرون، وأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم مجتمعة لذهنه^(٣).

والم تأمل في هذه العبارات لابن عطية وهو يتحدث عن المنهج الذي رسمه لنفسه في تأليفه للمحرر الوجيز يجد منهجًا رصينًا يحتوي على الإتقان والعلم والتواضع. ويمكن تلخيص منهج ابن عطية بالنقاط الآتية:

القرن الحادي عشر، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ط: الأولى، عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (ص: ١١١) وطبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٣٠).

(١) والقراءة الشاذة: ما نُقل قرآنًا من غير تواتر واستفاضة متفقا بالقبول من الأئمة. البرهان في علوم القرآن، لمؤلفه: (الزركشي) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى الباني الحلبي وشركائه، ط: الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، (١/ ٣٣٢). وذكر الإمام ابن الجزري أن القرآن هو ما اجتمع فيه ثلاثة شروط، فإن اختلف شرط منها صارت القراءة شاذة، كما في منته طيبة النشر في القراءات العشر، قال رحمه الله:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ *** وَكَانَ لِلرَّسْمِ اِحْتِمَالًا يَحْوِي
وَصَحَّ إِسْنَادًا هُوَ الْقُرْآنُ *** فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْأَرْكَانُ
وَحَيْثُمَا يَخْتَلُّ رُكْنٌ أَثْبِتَ *** شُدُودَهُ لَوْ أَنَّهُ فِي السَّبْعَةِ

انظر متن طيبة النشر في القراءات العشر، المؤلف: (ابن الجزري) شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت: ٨٣٣هـ)، المحقق: محمد تميم الزغبى، الناشر: دار الهدى، جدة، ط: الأولى، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، (ص: ٣٢).

(٢) والمُنَّة، بالصَّمِّ: القُوَّة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٩٧/٣٦).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ٩-١١).

- الجمع والاستيعاب لما يتعلق بالآيات مع الحرص على الإيجاز وعدم التطويل وترك القصص إلا ما لا ينفك معنى الآية إلا به.
- التفسير وفق تفسير السلف ونقل المآثور منسوبًا إليهم، والتفسير باللغة العربية الفصيحة التي نزل بها القرآن والابتعاد عن التفسير المنحرفة.
- الأدب وإحسان الظن بأهل العلم الفضلاء، والرد والتنبيه على الأقوال والتفسيرات المنحرفة.
- التفسير بحسب ما تبدأ به الآية وتشتمل عليه، كان حُكمًا، أو نحوًا، أو لغةً، أو معنى، أو قراءةً.
- إيراد القراءات شاذها ومستعملها.
- تتبع تفسير الألفاظ والمفردات وإيراد المعاني المحتملة لذلك.
- ذكر نكت من علم التفسير والعلوم المتعلقة به من قواعد ومقدمات لا بد أن يعملها المفسر وأن تكون حاضرة عند تفسيره لكتاب الله.
- بذل الجهد في التزام هذا المنهج، مع الاعتراف بالقصور البشري.

المطلب الثالث

وصف الكتاب وقيمته العلمية ومصادره في التفسير

وصف الكتاب وقيمته العلمية:

لقد وصف العلماء تفسير ابن عطية بالتقدير والتبجيل، والجمع والتلخيص، والصحة والسنة، وحُسن التأليف وأدب العبارة. وسنذكر بعض أوصاف أهل العلم لهذا التفسير العظيم التي تبين مكانته وقيمته العلمية:

قال ابن خلدون^(١) -رحمه الله-: "وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفسير كلها وتحزى ما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى"^(٢).

وقال أبو حيان^(٣) في مقدمة تفسيره، واصفًا ومُمتدحًا ومُقارنًا بين ابن عطية

(١) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، وليّ الدين الحضرميّ اليمني يصل نسبه إلى الصحابي وائل بن حجر، الأشبيلي نسبة إلى إشبيلية التي دخلها أجداده مع الفاتحين، التونسي مولدًا ونشأة، كان فيلسوفًا ومؤرخًا بارعًا، له علم بالحديث والفقّه، تولى القضاء، وُلد عام (٧٣٢هـ) وتوفي في القاهرة سنة (٨٠٨هـ)، اشتهر بكتابه المشهور تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر) في سبعة مجلدات، أولها (المقدمة) وهي تعد من أصول علم الاجتماع. انظر: ترجمته ونسبه في كتابه تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط: الثانية، عام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، (٧/ ٥٠٣).

(٢) تاريخ ابن خلدون (١/ ٥٥٥).

(٣) أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي الأندلسي، أثير الدين، النحوي المقرئ، المفسر، المحدث، نزيل القاهرة، من مؤلفاته في النحو شرح التسهيل وفي التفسير البحر المحيط، ولد بالأندلس عام (٦٥٤هـ) ومات بالقاهرة سنة (٧٤٥هـ). انظر: كتاب ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، لمؤلفه: (الفاسي) محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (ت: ٨٣٢هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (١/ ٢٨٣)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٢٨٧).

والزمخشري: "أجل من صنّف في علم التفسير، وأفضل من تعرّض فيه للتنقيح والتحرير... ، وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري أخص وأغوص" (١).

وقال ابن جُزَي (٢) -رحمه الله-: " وأما ابن عطية فكتابه في التفسير أحسن التآليف وأعدلها. فإنه اطلع على تآليف من كان قبله فهذبها ولخصها. وهو مع ذلك حسن العبارة. مسدّد النظر، محافظ على السنة... " (٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمّة -رحمه الله- جوابًا لسؤال: (وأي التفسير أقرب إلى الكتاب والسنة؟)، فقال رحمه الله: " (وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلاً وبحثاً وأبعد عن البدع وإن اشتمل على بعضها بل هو خير منه بكثير بل لعله أرجح هذه التفسير لكن تفسير ابن جرير (٤) أصح من هذه كلها) " (٥).

(١) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، عام ١٤٢٠هـ، (٢٠/١).

(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جُزَي الكلبلي، أبو القاسم، من أهل غرناطة، وذوي الأصالة والنباهة، فقيهاً مالكيًا، حافظًا قائمًا على التدريس مشاركًا في فنون من عربية وأصول وقراءات وحديث وأدب، حافظًا للتفسير، من مؤلفاته: التسهيل لعلوم التنزيل في التفسير، تُوفي رحمه الله شهيدًا عام (٧٤١هـ). الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص: ٢٩٥).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لمؤلفه: ابن جُزَي، بتحقيق الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط: الأولى عام ١٤١٦هـ، (٢٠/١).

(٤) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، الإمام، العلم، المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، من أهل أمل طبرستان، كان ثقةً، صادقًا، حافظًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه، والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة، من مؤلفاته جامع البيان في تأويل القرآن، وُلد عام (٢٢٤هـ)، وتُوفي سنة (٣١٠هـ) ببغداد. سير أعلام النبلاء (٤ / ٢٦٧).

(٥) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م ، (٨٥/٥). ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٣ / ٣٨٨).

وقال الدكتور محمد حسين الذهبي^(١) وهو يصف تفسير ابن عطية وقيمه العالية بين التفسير: "تفسير ابن عطية... له قيمته العالية بين كتب التفسير وعند جميع المفسرين، وذلك راجع إلى أن مؤلفه أضاف عليه من روحه العلمية الفياضة ما أكسبه دقةً، ورواجاً، وقبولاً... والحق أن ابن عطية أحسن في هذا التفسير وأبدع، حتى طار صيته كل مطار، وصار أصدق شاهد لمؤلفه بإمامته في العربية وغيرها من النواحي العلمية المختلفة...".^(٢)

ويمكن للباحث من خلال رحلته في هذا التفسير أن يصف تفسير ابن عطية في السطور الآتية:

كتاب المحرر الوجيز من كتب التفسير بالمأثور، فهو ينقل أقوال السلف منسوبة إليهم في تفسير الآيات ويستشهد بالنصوص الشرعية، ويُقدم الإجماع على الرأي والاستنباط، كما أن اللغة العربية الأثر الظاهر في تفسيره فهو يورد معاني الألفاظ المختلفة ويكثر من الاستشهاد بالشعر ويذكر اشتقاق بعض الكلمات والنحو، كما أنه متوسع في إيراد القراءات المتواترة والشاذة، كما اهتم بالجانب الفقهي المتعلق بالآيات، وغالبًا يذكر الأقوال والمذاهب دون ترجيح مُظهرًا للمذهب المالكي دون تعصب، وقد ترك كثيرًا من القصص والإسرائيليات، وأحيانًا يذكر بعض القصص والاسرائيليات والأقوال الضعيفة وينبه على ذلك وينقده في كثير من الأحيان، وله اهتمام بالجانب العقدي والرد على المخالفين، وابن عطية محقق بارع يُناقش ما ينقل وله استنباطات وتوجيهات وردود مفيدة ومختصرة، وهو لطيف في عباراته ونقده، وقد جمع في تفسيره هذا بين الاستيعاب والإيجاز. وقد اشتهر تفسير ابن عطية شهرة واسعة، لاسيما عند المتقدمين، ونقل منه المفسرون واستشهدوا به

(١) محمد حسين الذهبي، عالم أزهرى كبير، مصري، عُرف ببحوثه القيمة في مناهج التفسير، تقلد عدة مناصب في التدريس ثم وزيراً للأوقاف، اغتيل في شهر رجب، ١٣٩٧ هـ. انظر: كتاب: تكملة مُعجم المؤلفين، لمؤلفه: محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، الناشر: دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، (ص: ٤٧٤).

(٢) التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي (١/ ١٧٢).

كثيراً، ومع شهرته لم يُطبع إلا مُتأخراً، وقد كان مخطوطاً في عشر مجلدات، ثم طُبِع عدة طبعات^(١).

ومن خلال ما سبق يتبين أنّ تفسير ابن عطية من كتب أهل السنة الجامعة النافعة الوجيزة، التي لها السبق والريادة والمكانة العالية.

مصادره في التفسير:

لقد اعتمد ابن عطية في تفسيره على العلوم والفنون المختلفة التي حصّلها أثناء طلبه للعلم، كما اعتمد على كتب التفسير التي قبله فخلصها ومحصها، ولم يكن مجرد ناقلٍ لها ولكن كان عالماً باحثاً مجتهداً نزيهاً، فهو مع نقله من غيره يناقش ويوجه ويُضعّف، وهذا ما أضاف إلى تفسير ابن عطية قيمة رفيعة عند العلماء والمفسرين. ومن أبرز مصادره في التفسير:

ابن جرير الطبري صاحب تفسير جامع البيان في تأويل القرآن وهو أبرز مصادره في التفسير بالمأثور، والمهدوي صاحب كتاب التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل، والنقاش^(٢) صاحب كتاب شفاء الصدور.

ومن مصادره في القراءات:

أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي^(١) صاحب كتاب الحُجّة في علل القراءات السبع، وأبو الفتح عثمان بن جني^(٢) صاحب كتاب المُحْتَسَب.

(١) ذكر مناع بن خليل القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن تفسير ابن عطية فقال: "والكتاب يقع في عشر مجلدات كبار وكان مخطوطاً إلى عهد قريب ثم طُبِع في المغرب سنة ١٩٧٥م بتحقيق "المجلس العلمي بفاس- مديرية الشؤون الإسلامية- المملكة المغربية". مباحث في علوم القرآن للقطان (ت: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، (ص: ٣٧٥). قلت: وقد طبعته اليوم عدة دور منها (دار الكتب العلمية) بيروت، بتحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، في ستة مجلدات، السادس منها عبارة عن فهرس، الطبعة: الأولى عام ١٤٢٢هـ، وطبعته (دار التوفيقية للتراث) بالقاهرة، بتحقيق هاني الحاج، في خمسة مجلدات مضغوطة. وهناك طبعات أخرى.

(٢) النقاش: أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد ابن زياد الموصلي ثم البغدادي، المقرئ المفسر أحد الأعلام، صنّف شفاء الصدور في التفسير وغريب القرآن والسنة وغير ذلك، ومع جلالتة فهو متروك الحديث وحاله في القراءات أمثل، ولد سنة (٢٦٦هـ) ومات سنة (٣٥١هـ). طبقات الحفاظ، للسيوطي (ص: ٣٧١).

ومن مصادره في اللغة العربية:

الخليل بن أحمد الفراهيدي^(٣) صاحب كتاب العين، وسيبويه^(٤) صاحب الكتاب، والفراء^(٥) صاحب كتاب معاني القرآن، والزجاج^(٦) صاحب كتاب معاني القرآن.

ومن مصادره في الفقه:

الإمام مالك صاحب الموطأ، والإمام المالكي سَحْنُون^(٧) صاحب كتاب المدونة. كما نقل عن علماء أهل الكلام والأصول من الأشاعرة^(٨)، كأبي الحسن الأشعري^(١) وأبي المعالي الجويني^(٢)، وغيرهم.

-
- (١) أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي، إمام النحو صاحب التصانيف النافعة، ومن تلامذته: أبو الفتح بن جني، وكانت وفاته ببغداد سنة (٣٧٧هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٦ / ٣٧٩).
- (٢) ابن جني أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي إمام العربية، ومن مؤلفاته المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها، وُلد قبل (٣٣٠هـ)، وتُوفي سنة (٣٩٢هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٧ / ١٧).
- (٣) الخليل بن أحمد الفراهيدي أبو عبد الرحمن الإمام، صاحب العربية، ومُنشئ علم العروض، البصري، أحد الأعلام، شيخ سيبويه، دعا الله أن يرزقه علماً لا يُسبق إليه ففتح له بالعروض، وله كتاب (العين) في اللغة، كان متقشفاً، متعبداً، وُلد عام (١٠٠هـ) ومات سنة بضعة وستين ومائة للهجرة. سير أعلام النبلاء، للذهبي (٧ / ٤٢٩).
- (٤) سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، ثم البصري إمام النحو، حجة العرب، وقد طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير المسمى (الكتاب)، وكانت وفاته على الصحيح سنة (١٨٠هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (٨ / ٣٥١).
- (٥) الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدي مولاهم، الكوفي، النحوي، صاحب الكسائي، وصاحب التصانيف، قيل سُمي بالفراء؛ لأنه كان يفري الكلام لفصاحته، ومات الفراء: بطريق الحج، سنة (٢٠٧هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٠ / ١١٨).
- (٦) الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج، البغدادي، الإمام، نحوي زمانه، مصنف كتاب (معاني القرآن)، وله تأليف جمة، وتُوفي سنة (٣١١هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٤ / ٣٦٠).
- (٧) سحنون: أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة بن عبد الله التنوخي، الحمصي الأصل، المغربي، القيرواني، المالكي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة، ويلقب: بسحنون، كان موصوفاً بالعقل والديانة التامة والورع، مشهوراً بالجود والبذل، وافر الحرمة. وأصل (المدونة) أسئلة سألتها أسد بن الفرات لابن القاسم. فلما ارتحل سحنون بها، عرضها على ابن القاسم، فأصلح فيها كثيراً، وأسقط، ثم رتبها سحنون، وبوبها. سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٢ / ٦٣).
- (٨) الأشاعرة: فرقة كلامية إسلامية، تُنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة بعد أن تلقى مذهبهم وتقدم فيهم ثم رجع إلى عقيدة أهل السنة وما كان عليه الإمام أحمد وهتك المعتزلة وفق أصولهم العقلية وقواعدهم الكلامية. طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (٣ / ٣٤٧)، البداية والنهاية، لابن كثير (١١ / ١٤٢)، الموسوعة الميسرة

فهذه بعض مصادره ومن أراد التوسع والزيادة فليرجع إلى الكتب والرسائل المتوسعة في ذلك^(٣).

في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة تأليف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ١٤٢٠هـ. (٨٣/١)

(١) الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى ابن أمير البصرة بلال بن أبي بردة ابن صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري، اليماني، البصري، العلامة، إمام المتكلمين، ولما برع في معرفة الاعتزال، كرهه وتبرأ منه، وصعد للناس فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يرد على المعتزلة، ويهتك عوارهم، قلت (الذهبي): رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات، وقال فيها: تمر كما جاءت، مولده: عام (٢٦٠هـ)، وقيل: (٢٧٠هـ)، ووفاته ببغداد سنة (٣٢٤هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٥ / ٨٥).

(٢) الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالي عبد الملك ابن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، ثم النيسابوري، ضياء الدين، الشافعي، صاحب التصانيف، وفي آخر حياته رجح مذهب السلف في الصفات وأقره، ولد عام (٤١٩هـ)، وتوفي سنة (٤٧٨هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٨ / ٤٧٢).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية بتحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الأولى عام ١٤٢٢هـ، (٢٠/١)، فقد ذكر المحقق مصادر ابن عطية بتوسع.

المطلب الرابع

ثناء العلماء على ابن عطية وتفسيره المحرر الوجيز

وهو كثير يَعُسرُ جمعه كله، وقد مرَّ علينا بعضه أثناء التعريف به في المطالب السابقة، وسنسرِد هنا بعض مقالات أهل العلم والتراجم مما يؤكد مكانة هذا المفسر الجليل وكتابه الضخم المحرر الوجيز:

(كان عبد الحق فقيهاً، عالماً بالتفسير والأحكام والحديث والفقه، والنحو والأدب واللغة، مُقَيِّداً حَسَنَ التَّقْيِيدِ، له نظم ونثر، ولي القضاء بمدينة المَرِيَّة^(١) في المُحرم سنة تسع وعشرين وخمسائة، وكان غايةً في الدَّهَاءِ والذِّكَاءِ، والتَّهَمُّمِ بالعلم، سَرِيَّ الهَمَّةِ في اقتناء الكتب. توخَّى الحق، وَعَدَلَ في الحُكْمِ، وَأَعَزَّ الخَطَّةَ... أَلَّف كتابه المسمى بالوجيز في التفسير فأحسن فيه وأبدع، وطار بحسن نيَّته كل مطار...)^(٢).

(عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن غالب بن تمام بن عطية الإمام الكبير قدوة المفسرين أبو محمد الغرناطي القاضي... وكان فقيهاً، عارفاً بالأحكام، والحديث، والتفسير، بارع الأدب، بصيراً بلسان العرب، واسع المعرفة، له يد في الإنشاء والنظم والنثر، وكان يتوقد ذكاء، له التفسير المشهور، ولي قضاء المرية)^(٣).

(١) المَرِيَّة: وهي مدينة كبيرة في الأندلس، تقع في جنوب شرق إسبانيا على البحر المتوسط، وكانت هي وبيجانة بابي الشرق منها يركب التجار وفيها تحل مراكبهم، يضرب ماء البحر سورها، وفيها يكون ترتيب الأسطول الذي يخرج لغزو الأفرنج، واشتهرت بعمل الدباج، وممن ينسب إليها من المشهورين ابن عبد البر وأبي محمد بن حزم. انظر: معجم البلدان، للحموي (٥/ ١١٩).

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب (٣/ ٤١٢).

(٣) طبقات المفسرين، لجلال الدين السيوطي (ص: ٦٠).

(ولأبي محمد بن عطية الغرناطي في تفسير القرآن، الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة)^(١).

(فقيه حافظ مُحدِّث مشهور أديب نحوي شاعر بليغ كاتب، ألف في التفسير كتاباً ضخماً أربى فيه على كل متقدم)^(٢).

(واسع المعرفة قوي الأدب، متفنناً في العلوم. أخذ الناس عنه)^(٣).

(وتأليفه في التفسير جليل الفائدة كتبه الناس كثيراً وسمعوا منه وأخذوا عنه)^(٤).

(الإمام، العلامة، شيخ المفسرين، أبو محمد عبد الحق ابن الحافظ أبي بكر غالب بن عطية المحاربي، الغرناطي.. وكان إماماً في الفقه، وفي التفسير، وفي العربية، قوي المشاركة، ذكياً فطناً مدرّكاً، من أوعية العلم)^(٥).

(وكان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير بارع الأدب بصيراً بلسان العرب واسع المعرفة وله يد في الإنشاء والنظم والنثر، وكان يتوقد ذكاء، وله التفسير المشهور ذكر في أسامي الكتب أنه المسمى بالمحرر الوجيز تفسير الكتاب العزيز وهو تفسير شريف جليل القدر والشأن قد تداوله فحول العلماء وأثنوا عليه خيراً حتى قال أبو حيان هو أجل من صنف في علم التفسير وأفضل من تصدر للتنقيح فيه والتفسير. وقال جماعة من الفضلاء كتاب ابن عطية أجمع وللسنة السنوية أخلص وأكمل)^(٦).

(١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت- لبنان، (٣/١٧٩).

(٢) بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لابن عميرة (ص: ٣٨٩).

(٣) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، لمؤلفه: أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت: ٥٧٨هـ)، تحقيق: السيد عزت العطار، الناشر: مكتبة الخانجي، ط: الثانية، عام ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، (ص: ٣٦٨).

(٤) معجم أصحاب القاضي أبي علي الصديقي، لابن الأبار (ص: ٢٦١).

(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٩/٥٨٧).

(٦) طبقات المفسرين، للأدنه وي (ص: ١٧٦).

رحمه الله وجمعنا الله به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.. آمين.

الفصل الثاني

التعريف بالإمام القرطبي وتفسيره الجامع لأحكام القرآن

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالإمام القرطبي

المبحث الثاني: التعريف بتفسير الإمام القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن

المبحث الأول

التعريف بالإمام القرطبي

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمه ونسبته وكنيته ولقبه

المطلب الثاني: مولده ووفاته

المطلب الثالث: الأسرة والدولة التي نشأ فيها

المطلب الرابع: أسباب أهلت القرطبي علمياً، وطلبه للعلم، ومؤلفاته وانتفاع الناس به

المطلب الأول

اسمه وكنيته ونسبته ولقبه

اسمه:

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح^(١) الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المالكي، وكنيته: أبو عبد الله^(٢).

نسبته:

الإمام القرطبي صاحب نسب شريف فهو من نسل أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في اسمه ونسبه، وقد اشتهر - رحمه الله - في نسبه بالآتي:
- الأنصاري الخزرجي: نسبة إلى أصله وأجداده الأوائل أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحديدًا الخزرج - رضي الله عنهم -^(٣).

- الأندلسي القرطبي: نسبة للبلاد التي سكنها أجداده وتحديدًا قُرْبُبة^(٤) التي وُلد ونشأ فيها.

(١) وقيل: "ابن أبي فرح" كما في طبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٩٢)، والذي يظهر أنه خطأ مطبعي أو وهم لمخالفته من سبقه من أهل التراجم، والسيوطي إنما نقل ممن قبله وليس فيها ابن أبي فرح، والله أعلم. وفرح: بسكون الراء والحاء. وانظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧).

(٢) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص: ٣١٧)، والوافي بالوفيات، للصفدي (٢/ ٨٧).

(٣) الأنصار: وهم أبناء الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد من أهل اليمن، وأمهم قبيلة ولذلك سمي بنو قبيلة، قيل هاجروا من اليمن حين خافوا تهدم سد مأرب وسكنوا يثرب (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) وأقاموا فيها على جهد وضنك من العيش، واستضعفتهم يهود حتى استعانوا بإخوانهم من أهل اليمن من الملوك فنصروهم على اليهود فصارت لهم العزة والمكانة في يثرب، كانوا أول القبائل إسلامًا ونصرةً للإسلام، وجعلوا من يثرب مدينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمهاجرين، صدقوا في إيمانهم وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأووا ونصروا كما أخبر القرآن، نالوا شرف مقام النبي عليه الصلاة والسلام فيهم ودعائه لهم وتناء الشرع عليهم، فهنيئًا لهم. انظر: معجم البلدان، للحموي (٥/ ٨٥).

(٤) قُرْبُبة: بضم أوله، وسكون ثانيه، وضم الطاء المهملة أيضًا، وهي مدينة عظيمة في وسط الأندلس، وبينها وبين البحر خمسة أيام، وتقع على النهر الأكبر الذي يعرف بوادي الكبير، ومسجدها الجامع من أكبر مساجد الإسلام وأجمعها لمحاسن البنين، كان بها مستقر خلافة الأمويين، وآثارهم بها ظاهرة، وفصائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر، وكان فيها أعلام العلماء، وسادة الفضلاء وتجارها مياسير، وأحوالهم واسعة، وتميزت عن

- المالكي: نسبة لمذهب الإمام مالك الذي انتشر في بلاد الأندلس وبلاد

المغرب، وكان القرطبي من أعيان علماء المالكية^(١).

لقبه:

شمس الدين^(٢).

غيرها بخزائن الكتب والاهتمام بمظاهر التعليم. انظر: معجم البلدان (٤ / ٣٢٤)، آثار البلاد وأخبار العباد، لمؤلفه زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت: ٦٨٢هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت (ص: ٥٥٢).

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧).

(٢) وهذا اللقب لم أجده في كتب التراجم إلا أنني وجدته في الموسوعة العربية العالمية والشبكة الدولية للمعلومات وبعض الكتب المعاصرة، فقد يكون أطلقه عليه بعض المتأخرين، أو أنه لم يشتهر به. والله أعلم.

المطلب الثاني

مولده ووفاته

مولده

اتفقت كتب التراجم أن الإمام القرطبي وُلد في بلاد الأندلس وفي فُرطبة تحديداً، ولم تُحدد كتب التراجم تاريخ ولادته واقتصرت على ذكر وفاته^(١).

ومن خلال البحث عن تاريخ ولادته يمكننا تقريب ذلك بأنه وُلد في آخر القرن السادس الهجري ومطلع القرن السابع الهجري، في عام ستمائة للهجرة (٦٠٠هـ) تقريباً^(٢).

وفاته:

استقر الإمام القرطبي في آخر حياته في مصر بمدينة مُنيّة ابن خَصِيب^(٣)، ومات ودفن فيها، وكانت وفاته - رحمه الله - ليلة الاثنين في التاسع من شهر شوال سنة إحدى وسبعين وستمائة للهجرة (٦٧١هـ)^(٤).

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧). وغيره من التراجم.

(٢) وذلك لأن هذا التاريخ يناسب الأحداث التي رواها القرطبي في حياته، ولأن هذا التحديد ورد في الموسوعة العربية العالمية (١٨ / ١٦٣)، وهناك مَنْ قَدَّر أنه ولد قبل ذلك. والله أعلم.

(٣) مُنيّة ابن خَصِيب بالضم ثم السكون ثم ياء مفتوحة، وهي مدينة كبيرة الساحة، متسعة المساحة، على شاطئ النيل في صعيد مصر، بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد. انظر: معجم البلدان (٥ / ٢١٨)، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، لمؤلفه: (ابن بطوطة) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله (ت: ٧٧٩هـ)، الناشر: أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، عام ١٤١٧هـ، (١ / ٢٢٤).

(٤) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٨)، والوفاي بالوفيات، للصفدي (٢ / ٨٧)، ونفح الطيب، للمقري (٢ / ٢١١).

المطلب الثالث

الأسرة والدولة التي نشأ فيها

الأسرة التي نشأ فيها:

نشأ القرطبي في أسرة عريقة النسب والفضل، فهو من سلالة الأنصار رضي الله عنهم، الذين فازوا بصحبة رسول الله ونصرة دينه واشتهروا بالشجاعة والصدق والإيثار والتضحية في سبيل الله، فنالوا رضوان الله وبركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولأبنائهم: (اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار)^(١)، ولا غرابة أن يشابه الفرع الأصل، ولعل القرطبي ممن وصله بركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم.

ولم تذكر التراجم والسير تفاصيل أسرته، إلا أن القرطبي -رحمه الله- ذكر أحداثاً عن حياته يُمكننا أن نتعرف من خلالها عن شيء من نشأة القرطبي في أسرته، فالذي يظهر أن أسرته كانت أسرة مباركة فيها الصلاح والتواضع والتعفف فقد اشتغل أبوه بالزراعة، كما اشتغل الإمام القرطبي في أول شبابه بالعمل اليدوي وهو نقل الطين، قال القرطبي -رحمه الله- عن نفسه: "ولقد كنت في زمن الشباب أنا وغيري ننقل التراب على الدواب من مقبرة عندنا تسمى بمقبرة اليهود خارج قرطبة..."^(٢).

وكذلك حكى القرطبي عن مأساة قتل أبيه فقال: "أغار العدو -قصمه الله- صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة والناس في أجرانهم"^(٣) على غفلة،

(١) مسند أحمد بن حنبل، مسند أبي سعيد الخدري، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون. الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الثانية، عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، (١٨ / ٢٥٥)، رقم الحديث: (١١٧٣٠). قال محققو المسند في حاشيته: إسناده حسن.

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، تحقيق ودراسة: الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم، الناشر: مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط: الأولى، عام ١٤٢٥هـ، (ص: ١٦٨).

(٣) الأجران: مواضع تجفيف وتخزين الثمار والمحصول. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٤ / ٣٥١)، معجم اللغة العربية المعاصرة لمؤلفه: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، ط: الأولى، عام ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (١ / ٣٦٦).

فقتل وأسر، وكان من جملة من قتل والدي رحمه الله، فسألتُ شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة^(١)، فقال: غسله وصل عليه، فإن أباك لم يُقتل في المعترك بين الصفين. ثم سألتُ شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع^(٢)، فقال: إن حكمه حكم القتلى في المعترك، ثم سألتُ قاضي الجماعة أبا الحسن علي بن قَطْرال^(٣) وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا: غسله وكفنه وصل عليه، ففعلت، ثم بعد ذلك وقفت على المسألة في "التبصرة" لأبي الحسن اللّخمي^(٤) وغيرها، ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسلته، وكنت دفنته بدمه في ثيابه^(٥). هذه الحادثة تدل على أشياء كثيرة في نشأة القرطبي في أسرته، منها علاقته الحميمة بوالده، واشتغال والده بالزراعة وإصلاح الثمار، وما عانتها أسرته وغيرها من المعاناة الشديدة والمآسي البالغة بسبب غارات الصليبيين، وأن القرطبي نشأ نشأة صالحة في أسرة صالحة متواضعة، وطلب العلم في شبابه واستكثر من المشايخ وكان يستفتيهم ويبحث عن الحق ويعمل به، وكان بارًا بوالده. فعليه وعلى والده وعلى عباد الله الصالحين الرحمة والسلام.

(١) أبو جعفر أحمد بن محمد القيسي المعروف بابن أبي حجة، من أهل قرطبة، تصدّر لتحفيظ القرآن وتعليم العربية، وانتقل إلى إشبيلية بعد سقوط قرطبة، وأسرّه الروم في البحر، فامتحن بالتعذيب، وتوفي إثر ذلك، سنة ٦٤٣هـ، أخذ عنه القرطبي القراءات في قرطبة. انظر: كتاب التكملة لكتاب الصلة، لمؤلفه: أبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، (١/١٠٨).

(٢) أبو سليمان ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري من أهل قرطبة وآخر قضاتها، وكان رجلاً صالحاً، عدلاً في أحكامه، من بيت نباهة ووجاهة، ولم يزل أبو سليمان قاضياً بقرطبة، إلى أن استولت الروم عليها سنة (٦٣٢هـ)، فتحول إلى إشبيلية، وبها تُوفي إثر انتقاله إليها. تاريخ قضاة الأندلس، لمؤلفه: أبي الحسن علي بن عبد الله بن محمد الجذامي النباهي المالقي الأندلسي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط: الخامسة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، (١/١١٨).

(٣) القاضي، العلامة، القدوة، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن يوسف الأنصاري، القرطبي، المالكي، أحد الأعلام في زمانه، وُلد عام (٥٦٣هـ) وكانت وفاته (٦٥١هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٣/٣٠٤).

(٤) علي بن محمد الربيعي، أبو الحسن، المعروف باللخمي، من أعيان فقهاء المالكية، وكان فاضلاً ديناً متقناً ذا حظ من الأدب وبقي بعد أصحابه فحاز رياسة إفريقية جملة وله تعليق كبير على المدونة سماه التبصرة مفيد حسن لكنه ربما اختار فيه وخرج فخرجت اختياراته عن المذهب، توفي سنة (٤٧٨هـ). الديباج المذهب (ص: ٢٠٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/٦١٦).

الدولة التي نشأ فيها:

لقد نشأ القرطبي من أول حياته إلى منتصف عمره تقريباً في قرطبة، تحت ظل دولة الموحدين وفي آخر عصرهم وسقوطهم المفاجئ من الأندلس، ومن ثم سقوط قرطبة بيد الإفرنج^(١) الصليبيين الذين ارتكبوا أبشع الجرائم في تلك البلاد، وقد كانت هذه المرحلة من حياة القرطبي يغلب عليها التحصيل العلمي وبناء شخصية القرطبي رحمه الله، وهذا القرن مع ما فيه من النكبات إلا أن أكابر العلماء ظهوروا فيه كالإمام القرطبي وغيره.

ولنعش قليلاً مع دولة الموحدين، ونأخذ موجزاً عنها وعن مؤسسها: دولة الموحدين بدأت كدعوة دينية لمحمد بن تومرت^(٢) الذي اتصف بالدهاء والجرأة والقوة لاسيما في إنكار المنكر، وكان فيه هيبة ووقار، وكان زاهداً متقشفاً في عيشه وحياته لكنه غاويًا في الرياسة والظهور، لم يتورع في الكذب والحيل حتى ادعا المهديّة والعصمة لنفسه، وأقر له بذلك أتباعه، أقام دعوته على أساس التوحيد وهو إثبات وجود الله المطلق دون إثبات صفاته، واعتبر إثبات الصفات لله تجسيمًا وكفرًا، واتهم المرابطين^(٣) بذلك، خلط في عقيدته وتعاليمه بين الحق والباطل وبين العقائد المختلفة^(٤)، كان جريئًا في انكار المنكر، متجلدًا على ما يلقاه في سبيل ذلك وكان أحيانًا يتظاهر بالجنون وخطب الكلام حتى يُترك فلا يؤذى، رحل إلى المشرق وأخذ شيئًا من العلوم، وعاد وهو يسعى سعيًا حثيثًا لنشر دعوته

(١) الإفرنج: جمع افرنجي، وهو اسم معرب أطلقه العرب على الأوربيين بعد الحروب الصليبية في الشرق. انظر: كتاب معجم اللغة العربية المعاصرة، لمؤلفه: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٠هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (١/ ١٠٢).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي البربري، مختلف في نسبه فقيل: أنه يصل إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، ومنهم من كذبه وقال: إنما ادعا ذلك بعد ادعائه المهديّة والعصمة، توفي سنة ٥٢٤هـ وله نحو من خمس وخمسين سنة، من كتبه: أعز ما يطلب، وكنز العلوم، والمرشدة. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٩/ ٥٣٩).

(٣) سبق التعريف بهم، والمرابطون هم الدولة التي انقلب عليها ابن تومرت ومن معه من الموحدين، وقاموا مكانها. (٤) فقد ذكروا أنه تأثر بالتشيع والأشعرية والاعتزال والخوارج والفلاسفة. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٩/ ٥٣٩)، درء تعارض العقل والنقل، لمؤلفه: ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط: الثانية، عام ١٤١١هـ - ١٩٩١م، (٣/ ٤٣٨).

وإقامة دولته مستقيماً من فصاحته وذكائه، مستغلاً جهل بعض الناس والقبائل، فسرت دعوته في قبيلته مسمودة^(١) ووجد منهم العون والمؤازرة، واستعصم بجمال تين مَلَّ (٢) في أول دعوته ومناوآته للمرابطين وذلك لمنعة تلك الجبال حتى انتشر أمره وكثر أتباعه، وألف كتابه المرشدة^(٣) وألزم أتباعه به، ولم يتورع في سفك الدم الحرام في سبيل فكرته، وقبل أن تدركه المنية أوصى بالحكم والطاعة لقائده الميداني وأشد أتباعه عبد المؤمن الكومي^(٤) الذي استطاع القضاء على دولة المرابطين والتغلب على بلاد المغرب ومعظم الأندلس. واتخذ مدينة مراكش^(٥) عاصمة له، وصارت الإمارة والحكم في نسله. قام الموحدون بدور المرابطين في حماية الأندلس وبلاد المغرب وخضعت لهم البلاد، وأخمدوا الثورات^(٦) التي كانت تقوم عليهم من بقايا المرابطين، وحقق الموحدون

(١) مسمودة: قبيلة بالمغرب من قبائل البربر، ومنها محمد بن تومرت. انظر: معجم البلدان، للحموي (١٣٦ / ٥).

(٢) تين مَلَّ: الميم مفتوحة، واللام الأولى مشددة مفتوحة: جبال بالمغرب في قلب جبال الأطلسي، بها قرى ومزارع يسكنها البربر، شديدة التحصين بطبيعتها، وبها كان أول خروج محمد بن تومرت المسمى بالمهدي، وبها مات. انظر: معجم البلدان، للحموي (٦٩ / ٢)، دولة الموحدين، للصلاحي (ص: ٣٦).

(٣) المرشدة: كتاب لابن تومرت فيها توحيد وخير، وفيها انحراف، حمل عليها أتباعه، وسماهم الموحدين، ونبز من خالف (المرشدة) بالتجسيم، وأباح دمه (نعوذ بالله من الغي والهوى). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٩ / ٥٤١).

(٤) عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي، القيسي، المغربي، قيل: أن عبد المؤمن الكومي قال: إنما نحن من قيس غيلان بن مضر بن نزار، ولكومية علينا حق الولادة والمنشأ فيهم وهم أخوالي، وكان الخطباء إذا دعوا له بعد ابن تومرت، قالوا: قسيمه في النسب الكريم، التقى بابن تومرت وهو فتى يريد طلب العلم فقال له ابن تومرت قد وجدت العلم والشرف، فقربه وأفضى إليه بسره ودعوته فأشربت في قلب عبد المؤمن، كان جميلاً ذكياً متقشفاً شجاعاً ذو عزيمة وهيبة يتحرى العدل وينكر المنكر، وكان يقود الجيوش للموحدين ثم أوصى له ابن تومرت من بعده فادعى العصمة واستمر في القتال حتى خضع له المغرب ومعظم الأندلس، مولده: بأعمال تلمسان، عام (٤٨٧هـ)، ووفاته سنة (٥٥٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٣٦٦ / ٢٠).

(٥) مراكش: بالفتح ثم التشديد، وضم الكاف، وشين معجمة: أعظم مدينة بالمغرب وأجلها وبها سرير ملك بني عبد المؤمن، وهي في البرّ الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر، وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين من أمراء المرابطين سنة ٤٧٠هـ، وكان موضع مراكش قبل ذلك مخافة يقطع فيه اللصوص على القوافل، فكان إذا انتهت القوافل إليه قالوا: مراكش، ومعناه بالبربرية أسرع المشي. معجم البلدان (٩٤ / ٥).

(٦) كثورة بني غانية التي كلفت الموحدين تكاليف كبيرة. انظر: الروض المعطار، للحميري (ص: ٥٦٧).

حضارة ونهضة كبيرة، و كانت سياستهم وأفكارهم تتغير بحسب الحاكم، وكان عصرهم الذهبي في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور^(١) الذي نصره الله على الصليبيين في معركة الأرك^(٢) في عام واحد وتسعين وخمس مائة للهجرة (٥٩١هـ) هذه المعركة التي أعز الله فيها الإسلام والمسلمين، وأذل فيها الصليبيين الحاقدين، وتوغل فيها الملك المنصور في بلاد أوربا، فطلبوا من المنصور الهدنة فهادنهم، إلا أن الصليبيين استغلوا فترة الهدنة والصلح لجمع شملهم وتعبئة النصارى من كل مكان لحرب صليبية كبرى على الأندلس للقضاء على الإسلام فيها، وفي أقل من عشرين عامًا بعد معركة الأرك دارة الدائرة وجاءت معركة العقاب^(٣) سنة تسع وستمائة للهجرة (٦٠٩هـ) التي انكسر فيها جيش الموحيدين وانتهى ملكهم من الأندلس وانحسر سلطانهم إلى بلاد المغرب ولازال يتقهقر حتى انتهى تمامًا على يد بني مرين^(٤) سنة ثمان وستين وستمائة للهجرة

(١) أمير المؤمنين المنصور: أبو يوسف يعقوب ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي القيسي، الكومي، المغربي، المراكشي، الظاهري، وأمه أمة رومية اسمها سحر، عقدوا له بالأمر سنة ٥٨٠هـ عند مهلك أبيه، فكان سنه يومئذ ثنتين وثلاثين سنة، كان حكمه حافلًا بالإنجازات العظيمة والعدل والنهضة قدم طلاب العلم ورغب في الكتاب والسنة ومال إلى المذهب الظاهري وأحرق كتب الفلاسفة ولم ير العصمة لابن تومرت، كان يغزو بنفسه وكان منصوراً، ومن أهم معاركه معركة الأرك التي أذل الله فيها الصليبيين، عاش بضعة وأربعين سنة، واختلّف في موته فقيل أنه اختفى وعاش خاملاً وقيل غير ذلك إلا أن البيعة تمت لولي عهده من بعده ولده الناصر في عام (٥٩٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٣١١ / ٢١).

(٢) الأرك: هو حصن منيع بمقرية من قلعة رباح أول حصون أذفونش ملك قشتالة بالأندلس، وهناك كانت وقية الأرك على صاحب قشتالة، بقيادة المنصور ومن معه من الموحيدين، فانهزم العدو وركبهم السيف وقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً، واستشهد من المسلمين دون الخمس مائة، وأفلت أذفونش ولجأ هو ومن معه للمصالحة والهدنة، وأعز الله بلاد الإسلام والمسلمين. وانظر الروض المعطار، للحميري (ص: ٢٧).

(٣) العقاب: بكسر العين، موضع بالأندلس بين جيان وقلعة رباح أحرزت فيها حشود النصارى نصرهم الساحق على جيش الموحيدين ومن معهم، وذلك في زمن وقيادة السلطان الناصر محمد ابن السلطان المنصور يعقوب بن يوسف والتي كانت ضربة قاضية لقوى الموحيدين بالأندلس والمغرب، ولم يمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحيدين بالأندلس، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدي النصارى في وابل من المحن المؤلمة. انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري (ص: ٤١٦).

(٤) بني مرين: قبائل من أهل البادية نوي بأس ومنعة سكنت المغرب، ثاروا على الموحيدين حين ضعف سلطانهم، وأخذوا ما تبقى من سلطان الموحيدين، وقاموا مقامها، واستقل سلطانهم بالمغرب الأقصى، ولهم دور كبير في نشر السنة والدفاع على ثغور الأمة الإسلامية ومؤازرة غرناطة في الصمود والبقاء أمام الحشد الصليبي الكبير. انظر:

(٦٦٨هـ)، وأمّا بلاد الأندلس فصارت بعد معركة العقاب ممالك وطوائف متفرقة أمام الحشد الصليبي الكبير فتساقطت مدنها في فترة وجيزة، وكان سقوط قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمئة للهجرة (٦٣٣هـ) وفي هذا التاريخ خرج القرطبي منها إلى مصر، وتتابع مدن الأندلس في السقوط إلا غرناطة فقد صمدت إلى سنة سبع وتسعين وثمانمئة للهجرة (٨٩٧هـ)، وهي آخر معاقل الإسلام سقوطاً في الأندلس، إن المتأمل في سقوط دولة الموحدين وبلاد الأندلس لم يكن بسبب قلة العدد أو ضعف العدة ! وإنما كان بسبب ضعف الإيمان، والتنازع والظلم والركون إلى الكفار، وتولي حكم المسلمين من ليس أهلاً للحكم^(١).

لقد عاصر القرطبي انهيار دولة الموحدين وسقوط قرطبة وما ترتب على ذلك من محن ورزايا، وقد ذكر مرارة ذلك في كتبه في عبارات متفرقة، منها:

"ولم يزل المسلمون في نعمة وسرور إلى سنة تسع وستمئة فكانت فيها وقعة العقاب هلك فيها كثير من المسلمين، ولم يزل المسلمون في تلك الوقعة بالأندلس يرجعون القهقري^(٢) إلى أن استولى عليهم العدو وغلبهم بالفتن الواقعة بينهم والتفصيل يطول، ولم يبق الآن من الأندلس إلا اليسير، فنعوذ بالله من الفتن والخذلان والمخالفة والعصيان وكثرة الظلم والفساد والعدوان"^(٣).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لمؤلفه أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (ت: ٧٤٩هـ)، الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط: الأولى، عام ١٤٢٣هـ، (٤/ ٢٢٤).

(١) انظر: كتاب دولة الموحدين، للصلابي (ص: ٢٢٠، ٢٩٣)، وسقوط الأندلس دروس وعبر، للدكتور ناصر بن سليمان العمر، وغيرها من المراجع.

(٢) (القهقري) الرجوع إلى خلف. مختار الصحاح، لزين الدين الرازي (ص: ٢٦١).

(٣) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص: ١٢٢٢).

"فقد لبسنا العدو في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا أموال بعض"^(١).

"ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدونا للعين بنا، صرنا أحقر من الفراش وأذل من الفراش، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"^(٢).

"وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تُغلبون وتُذَلون ويذهب أمركم. قلتُ: وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأسر وقتل وسبي واسترق، فإننا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته!"^(٣).

لقد عاش القرطبي نصف عمره الأول في قرطبة وهو يطلب العلم في ظل دولة الموحدين إلى أن سقطت قرطبة فانتقل إلى مصر ف قضى فيها نصف عمره الآخر فعاصر دولة الأيوبيين^(٤) قبل سقوطهم، ثم عاصر دولة المماليك^(٥) التي عقتب دولة الأيوبيين.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، ط: الثانية، عام ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م (٧/٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ط: ٢ (دار الكتب المصرية، بالقاهرة)، (١٤/١٢٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/٣٩).

(٤) دولة الأيوبيين: (٥٦٧هـ) إلى (٦٤٨هـ)، أنشأها صلاح الدين الأيوبي بعد أن عُين وزيراً لمصر للفاطميين، فألغى الحكم الفاطمي في مصر وأغلق مراكز الشيعة، ونشر المذهب السني، امتد سلطانه من مصر إلى الشام والحجاز واليمن والنوبة وبعض أجزاء المغرب العربي، استرد صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ بعد ثلاثة أشهر من انتصاره في معركة حطين التي كسر فيها تحالف الصليبيين، تُوفي صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ)، وصار الحكم بين أولاده وإخوانه إلا أنهم اختلفوا ولم يدم حكمهم طويلاً وانتقل إلى المماليك. انظر: كتاب صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحريم بيت المقدس، تأليف: علي محمد الصلابي، الناشر: دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (ص: ٢٢٣).

(٥) دولة المماليك: (٦٤٨هـ) إلى (٩٢٣هـ) نشأت عقب دولة الأيوبيين، والمماليك جند عسكريين معظمهم من الترك والمغول، ملكهم الأيوبيون وهم صغار واستقدمهم إلى مصر وريوهم في دور خاصة تربية عسكرية ودينية، فنشأوا على القوة والحكمة وكان ولائهم للأيوبيين، تقلدوا مناصب كبيرة في الدولة والجيش، وبعد موت السلطان الأيوبي فجأة، حصل نزاع في البيت الأيوبي، وكان الخطر الصليبي والمغولي يحدق بمصر ويأكل بلاد الإسلام، فسيطر المماليك على الحكم، ومن أبرز قادتهم الملك المظفر قطز ثم الملك الظاهر بيبرس ومن معاركهم الشهيرة معركة

لقد كان الأيوبيون والمماليك أهل خير وعز للإسلام والمسلمين، فقد أقاموا الجهاد في سبيل الله ودافعوا الصليبيين وكسروهم، ونشروا مذهب أهل السنة، وشجعوا العلم والعلماء، وازدادت البلاد في عهدهم حضارة علمية وعُمرانية، لقد كانت مصر في تلك الفترة حصن المسلمين وقاعدتهم وحامية الثغور، ومنها كُسرت حشود التتار المغولية^(١) الوحشية في عهد المماليك، كما كُسرت حشود النصارى الصليبية من قبل في عهد الأيوبيين، فضلاً من الله ونعمة.

لقد كان الشطر الثاني من حياة القرطبي في مصر أكثر أماناً وإنجازاً، وفيه ظهرت تصانيف القرطبي النافعة، وقد كان رحمه الله ممن أقبل على العبادة والتعليم والتصنيف وكان وقته معموراً بطاعة الله^(٢). فرحمه الله رحمة واسعة.

عين جالوت عام ٦٥٨هـ، التي كُسر فيها جيش التتار الغاشم وزالت هيئته ولم تقم له قائمة بعدها. انظر: كتاب المغول [التتار] بين الانتشار والانكسار، لمؤلفه: علي محمد الصلّابي، الناشر: الأندلس الجديدة، مصر، ط: الأولى عام ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، (ص: ٢٥٩).

(١) التتار جزء من المغول، ظهوروا على مسرح أحداث التاريخ العالمي في أواخر القرن السادس الهجري، توسعوا في بسط نفوذهم بطريقة وحشية، واستطاعوا أن يؤسسوا إمبراطورية عالمية في مدة قصيرة. انظر: كتاب المغول (التتار) بين الانتشار والانكسار، للصلابي (ص: ٢٧).

(٢) انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧).

المطلب الرابع

أسباب أهلت القرطبي علمياً، وطلبه للعلم، ومؤلفاته وانتفاع الناس به

أسباب أهلت القرطبي علمياً:

لقد كانت مدينة قرطبة مدينة العلم والعلماء، والتفاخر بخزائن الكتب، حتى قيل: لا يكاد يُوجد في قرطبة أمياً^(١). هذه البيئة التي وُلد فيها القرطبي ونشأ كان لها الأثر الكبير في تأهيل القرطبي بالإضافة إلى الصفات الشخصية النبيلة، والأسباب الجميلة التي حصلها القرطبي، ومن أبرزها:

- الصبر واليقين وحسن التوكل على الله قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾^(٢)، لقد كان القرطبي ممن اتصف بالصبر واليقين فجعله الله من الأئمة المهتدين ومن أوليائه الصالحين. ومن الشواهد على ذلك ما ذكره في تفسيره عمّا حصل له مع الصليبيين وقد أرادوا قتله فأعمى الله أبصارهم عنه بسبب قراءته للقرآن فمروا عليه ولم يروه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾^(٣)، قال القرطبي رحمه الله: "هربتُ أمام العدو وانحزتُ إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا علي ثم رجعا

(١) انظر: نفع الطيب، للمقري (١/ ٤٦١) وانظر كتاب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، لمؤلفه: عبد الشافي محمد عبد

اللطيف، الناشر: دار السلام، القاهرة، ط: الأولى ١٤٢٨هـ، (ص: ٣٧٠).

(٢) السجدة: ٢٤

(٣) الإسراء: ٤٥

من حيث جاء وأحدهما يقول للآخر: هذا دَيْبَلَةٌ، يعنون شيطانًا. وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمدًا كثيرًا على ذلك" (١).

وهناك قصة أخرى ظريفة تدل على عمق إيمان القرطبي وحسن توكله ويقينه وفيها: "ترافق القرطبي المفسر والشيخ شهاب الدين القرافي (٢) في السفر إلى الفيوم (٣) وكل منهما شيخ فنه في عصره، القرطبي في التفسير والحديث والقرافي في المعقولات، فلما دخلاها أَرادا مكانًا ينزلان فيه فُدلا على مكان فلما أتياه، قال لهما انسان: يا مولانا بالله لا تدخلاه فإنه معمور بالجان. فقال الشيخ شهاب الدين للغلمان: أدخلوا ودعونا من هذا الهذيان. ثم أنهما توجهتا إلى جامع البلد إلى أن يفرش الغلمان المكان، ثم عادا فلما استقرا بالمكان، سمعا صوت تيس من المعز يصيح من داخل الخرستان (٤) وكرر ذلك الصياح فأمتمتع لون القرافي وخارت قواه وبُهِت، ثم أن الباب فُتِح وخرج منه رأس تيس وجعل يصيح فذاب القرافي خوفًا، وأمَّا القرطبي فإنه قام إلى الرأس وأمسك بقرنيه وجعل يتعوذ ويبسمل ويقرأ: ﴿عَلَّمَ آدَانَ لَكُمَّ أُمَّ عَلَى اللَّهِ تَفَرُّوتُ﴾، ولم يزل كذلك حتى دخل الغلام ومعه حبل وسكين، وقال يا سيدي: تنح عنه وجاء إليه فأخرجه وانكاه وذبحه. فقالا له: ما هذا؟!!

(١) الجامع لأحكام القرآن، ط: ٢ (دار الكتب المصرية، بالقاهرة)، (١٠ / ٢٧٠).

(٢) أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي، من علماء المالكية، وكانت ولادته ونشأته ووفاته بمصر، ونُسب وإلى القرافة وهي المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي بالقاهرة، كان إمامًا بارعًا في الفقه والأصول والعلوم العقلية وله معرفة بالتفسير، من مصنفاته: أنوار البروق في أنواع الفروق (المعروف بالفروق للقرافي). تُوفي سنة (٦٨٤هـ). انظر: الديباج المذهب، لابن فرحون (١/٢٣٦).

(٣) الفيوم ناحية في غربي مصر في منخفض من الأرض والنيل مشرف عليها. آثار البلاد وأخبار العباد، لذكريا القزويني (ص: ٢٣٨).

(٤) الخرستان هي الخزانة أو الحجرة الصغيرة في البيت لا تسترهما ستارة بل لها باب، وقيل إنها كلمة مركبة من الفارسية بمعنى البيت الذي تحفظ فيه المؤونة والأدوات المختلفة. انظر: كتاب تكملة المعاجم العربية، لمؤلفه: رينهارت بيتر آن دُوزي (ت: ١٣٠٠هـ)، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي وجمال الخياط، الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط: الأولى، ٢٠٠٠ م، (٤ / ٥٥).

(٥) يونس: ٥٩

فقال: لما توجهتما رأيته مع واحد فاسترخصته واشتريته لنذبحه ونأكله وأودعته في هذا الخرستان. فأفاق القرافي من حاله، وقال: يا أخي لا جزاك الله خيرا ما كنت قلت لنا وإلا طارت عقولنا. أو كما قال.(^١).

ومن صفات القرطبي أيضا التي اشتهر بها وكانت سبب في تأهيله:

- التحري والدقة والبحث عن الحق والصواب، مع ما كان عليه من الأدب وتقدير العلماء، وعفة اللسان ونبذ التعصب، كما مرَّ في حادثة استفتائه عن غسل أبيه وتكفينه، وفي كتابه شواهد كثيرة، وقد شهد له العلماء بذلك(^٢).

- الزهد والقناعة والعفاف والإقبال على الآخرة، وقد ألف في ذلك كتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكسب والصناعة(^٣).

- الهمة العالية في طلب العلم والتصنيف والعبادة والاشتغال بما ينفع(^٤).

- ومع هذا كله فقد تميز القرطبي بقوة الإدراك وحسن الترتيب، كما هو ظاهر في كتابه الجامع لأحكام القرآن.

هذه معظم الأسباب بعد توفيق الله عز وجل في تأهيل الإمام القرطبي ليكون من أئمة المفسرين وأشهرهم.

طلبه للعلم:

(١) الوافي بالوفيات، للصفدي (٢/ ٨٧).

(٢) انظر: التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي (٢/ ٣٣٩).

(٣) انظر: الديباج المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧)، ونفح الطيب، للمقري (٢/ ٢١٠).

(٤) انظر: الديباج المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧)، ونفح الطيب، للمقري (٢/ ٢١٠).

الباحث لا يجد في كتب التراجم تفصيلاً عن طلبه للعلم، ولكن الذي يغلب على الظن أنه بدأ في طلبه للعلم على الطريقة المشتهرة في بلاد الأندلس في تعليم الصبيان، والتي ذكرها العلماء، قال ابن خلدون - رحمه الله -:

"وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو... ولا يقتصرون عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب. ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشببية وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة... "(1).

وقال أيضاً: "وأما أهل الأندلس فأفادهم التقتن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها، فكانوا لذلك أهل حظّ وأدب بارع أو مقصر، على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبي"(2).

ومن خلال ما تقدم يتضح أنّ الإمام القرطبي بدأ بتعلم العربية وبعض العلوم المصاحبة مع القرآن في أول عمره، ثم اجتهد في شبابه في طلب الحديث والفقهاء والقراءات وغيرها من العلوم حتى برع فيها، ولما سقطت قرطبة في أيدي الأعداء سنة ٦٣٣ هـ غادرها في رحلة طويلة إلى مصر، والتقى فيها ببعض العلماء وأخذ منهم كأمثال العلامة ابن

(1) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٤٠).

(2) المصدر السابق (١/ ٧٤٢).

الجُمَيْزِي^(١)، وابن رَوَاج^(٢)، وغيرهم^(٣). ثم استقر بمُنْيَةَ ابن خَصِيب، وقضى شطراً كبيراً من حياته هناك في تقشف وصلح وعبادة وتصنيف وتعليم حتى توفاه الله^(٤).

مؤلفاته وانتفاع الناس به:

للقرطبي مؤلفات كثيرة متنوعة حسنة، منها ما تم طبعه ومنها مازال مخطوطاً أو مفقوداً، ومنها ما نسبه لنفسه ومنها ما نسبت إليه، وسنذكر تلك المؤلفات باختصار ليتبين مدى نفع هذا الإمام لأُمَّته:

أولاً: الكتب المطبوعة:

١- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان:

كتاب مطبوع بطبعات عديدة منها طبعة الرسالة بإشراف الدكتور عبد الله التركي في خمسة وعشرين مجلداً^(٥). وهو من أشهر التفاسير وأعظمها وسيأتي الحديث عنه مفصلاً.

٢- التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة:

كتاب مطبوع عدة طبعات منها طبعة مكتبة دار المنهاج بالرياض في ثلاثة مجلدات تحقيق الصادق بن محمد إبراهيم ١٤٢٥هـ، أحال عليه القرطبي كثيراً في تفسيره^(٦)، وموضوعه عن علامات الساعة وأشراتها وأحوال الموتى والحشر والجنة والنار.

(١) شيخ الديار المصرية، العلامة، المفتي، المقرئ، بهاء الدين، أبو الحسن علي بن هبة الله بن سلامة بن المسلم اللخمي، المصري، الشافعي، الخطيب، المدرس، ابن بنت الشيخ أبي الفوارس الجميزي، ولد: يوم النحر، سنة (٥٥٩هـ)، وتوفي سنة (٦٤٩هـ)، رحمه الله. سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٣ / ٢٥٣).

(٢) الشيخ، الإمام، المحدث، مسند الإسكندرية، رشيد الدين، أبو محمد عبد الوهاب بن رواج - واسمه: ظافر بن علي بن فتوح بن حسين الأزدي، القرشي حليفهم، الإسكندراني، المالكي، الجوشني، ولد: سنة (٥٥٤هـ)، وتوفي (٦٤٨هـ)، بالثغر، رحمه الله. سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٣ / ٢٣٧).

(٣) طبقات المفسرين، للسيوطي (ص: ٩٢).

(٤) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، للمقري (٢ / ٢١٠).

(٥) وطبعته أيضاً دار الكتب المصرية، في القاهرة، بتحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة الثانية، عام ١٣٨٤-١٩٦٤م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءاً (في ١٠ مجلدات)، وطبعته دار الحديث بالقاهرة، بتحقيق محمد إبراهيم الحنفاوي، ومحمود حامد عثمان، عام ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءاً (في ١٠ مجلدات).

(٦) الجامع لأحكام القرآن، طبعة درا الكتب المصرية، (١ / ١٣٧)، (١ / ٢٤١).

٣- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى:

كتاب مطبوع، قام بتحقيقه محمد حسين جبل وطارق أحمد محمد، ونشرته دار الصحابة للتراث بمصر عام ١٩٩٥م، وهذا الكتاب متعلق بالعقيدة، في أسماء الله وصفاته، وكان يحيل عليه القرطبي كثيرًا عند تفسير الآيات والصفات^(١).

٤- التذكار في أفضل الأذكار:

كتاب مطبوع عدة طبعات منها طبعة دار البيان بتحقيق عبدالقادر الأرنؤوط بإشراف إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد عام ١٩٧٩م. يذكر فيه أحاديث وأثار متعلقة بالحث على القرآن وآداب التلاوة وأحوال القراء، قال ابن فرحون: "وضعه على طريقة التبيان للنووي لكن هذا أتم منه وأكثر علمًا"^(٢). ذكره القرطبي في كتابه التذكرة وفي التفسير^(٣).

٥- الإعلام بما في دين النصارى من المفاصد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام:

كتاب مطبوع في دار التراث العربي بمصر، بتحقيق أحمد حجازي السقا، سنة ١٩٨٠م، والكتاب مُختلف في نسبه للقرطبي^(٤).

٦- قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكسب والصناعة:^(٥)

وقيل اسمه: "قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة"^(١). وقيل: "قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكف والشفاعة"^(٢).

(١) المصدر السابق (٥٦/١)، (٢٦٢/١).

(٢) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص: ٣١٧).

(٣) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (٩٦٢/١)، الجامع لأحكام القرآن، طبعة درا الكتب المصرية، (١٩٢/١٥).

(٤) انظر: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لمؤلفه: إسماعيل بن محمد أمين الباباني البغدادي (ت: ١٣٩٩هـ)، الناشر: طبع بعناية وكالة المعارف الجلييلة في مطبعتها البهية، استانبول، عام ١٩٥١م، (٢/ ١٢٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية

السعودية، طبع عام: ١٤٢٣هـ، (١٦/١٣).

وهذا الاختلاف في الشطر الاخير من اسم الكتاب قد يكون سببه التصحيف والصواب الأول "بالكسب والصناعة"؛ لأنه أكثر مناسبة للمعنى وأكثر انتشاراً في الكتب والرسائل العلمية التي ذُكرت القرطبي ومؤلفاته. والله أعلم.

وهذا الكتاب طُبع في دار الصحابة للتراث بمصر، سنة ١٤٠٩ هـ بتحقيق مجدي فتحي السيد، وهذا الكتاب أشار إليه القرطبي كثيراً وهو يتحدث عن المسائل المتعلقة بالرزق والتعفف وكسب الحلال^(٣).

ثانياً: الكتب المخطوطة أو المفقودة:

وهذه الكتب منها ما أشار إليها القرطبي في مصنفاته، ومنها ما نُسبت له:

١. الإعلام في معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام. ذكره القرطبي في تفسيره^(٤).

٢. الانتهاز في قراءة أهل الكوفة والبصرة والشام وأهل الحجاز. ذكره القرطبي في كتابه التذكار^(٥).

٣. أرجوزة جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم. نُسبت له في بعض التراجم^(٦).

٤. منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد. ذكره القرطبي في تفسيره^(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار الكتب المصرية، وهدية العارفين، للباباني (٢/ ١٢٩).

(٢) انظر: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لمؤلفه: إسماعيل الباباني البغدادي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (٤/ ٢٤١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار الكتب المصرية، (٥/ ١٦٥)، (١٣/ ١٦٦).

(٤) المصدر السابق، (١٥/ ١١٣).

(٥) التذكار في أفضل الأذكار من القرآن الكريم، للقرطبي، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، (ص: ٢٩).

(٦) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧).

٥. المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس. ذكره القرطبي في تفسيره^(٢).

٦. اللمع اللؤلؤية في شرح العشرينيات النبوية. ذكره القرطبي في تفسيره^(٣).

٧. شرح التقصي^(٤). نُسب له في كتب التراجم^(٥).

٨. التقريب لكتاب التمهيد، نُسب له في كتب التراجم^(٦).

٩. المصباح في الجمع بين الأفعال والصحاح^(٧)، رسالة في ألقاب الأحاديث، وكتاب

أعلام النبوة. وهذه الثلاثة الكتب، لم أجد لها في كتب التراجم، وإنما نُسبت له في بعض الكتب^(٨).

إن هذه الكتب تدل على أن الإمام القرطبي كان موسوعاً كبيرة، وذو همة عالية، وأن الله بارك الله له في وقته وعمله، ونفع به الناس، فكتبه ومؤلفاته متنوعة ومتميزة لاسيما

(١) الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار الكتب المصرية، (٢١٥/١٥).

(٢) المصدر السابق (٩/٣)، (٨٤/٣).

(٣) المصدر السابق (٢٦٨/١٠)، (١٤٦/١٦).

(٤) التقصي للإمام ابن عبد البر النمري، وهو جمع لما في الموطأ من الأحاديث المرفوعة موصولاً كان أو منقطعاً مرتباً على شيخ مالك. انظر: كتاب المعجم المفهرس، لمؤلفه: أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد شكور الميادين، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، (ص: ٣٩).

(٥) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧)، هدية العارفين، للباباني (٢/ ١٢٩).

(٦) وكتاب التمهيد للإمام ابن عبد البر النمري واسمه "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد". انظر: هدية العارفين، للباباني (٢/ ٥٥٠). وورد نسبة كتاب التقريب لكتاب التمهيد للقرطبي في كتاب الأعلام، للزركلي (٥/ ٣٢٢).

(٧) وهو كتاب نُغوي اختصر فيه القرطبي كتاب "الأفعال" لأبي القاسم علي بن جعفر القطاع وكتاب "الصحاح" للجوهري. لم أجد من نسبه له من أهل التراجم، ولكن ذكره مشهور حسن محمود سليمان في كتابه الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، الناشر: دار القلم دمشق، ط: الأولى، عام ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، (ص: ١٥٣).

(٨) الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، لمؤلفه: مشهور حسن محمود سليمان، الناشر: دار القلم دمشق، ط: الأولى، عام ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، (ص: ١٥٣-١٥٤).

كتابه الجامع لأحكام القرآن، وقد ذكر أهل التراجم أنه من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً^(١)، كما ذكروا بعض طلابه الذين استفادوا منه وانتفعوا به وأنّ هناك من اختصر كتابه الجامع في مجلدين^(٢). وأمّا المنتفعون بتفسيره والناقلون منه فكثير منهم الحافظ ابن كثير، وأبو حيان الأندلسي، والإمام الشوكاني، وغيرهم، ولازال الناس إلى يومنا هذا ينتفعون وينهلون من علم هذا الإمام وسيتمر ذلك إلى ما شاء الله. فرحمه الله رحمة واسعة ونفعنا بعلمه في الدارين^(٣).

المبحث الثاني

التعريف بتفسير الإمام القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسم الكتاب وغرض المؤلف من تأليفه

المطلب الثاني: منهج القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن

(١) طبقات المفسرين، للداوودي (٢/ ٦٩).

(٢) قال أحمد بن محمد الأدنه وي في القرطبي وتفسيره: "مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان... وكان تفسيره المذكور مسمى بجامع أحكام القرآن وهو كتاب من أجل الكتب في سفرين وقد اختصره سراج الدين الشيخ عمر بن علي الشهير بابن الملقن المتوفي في سنة أربع وثمانمائة". طبقات المفسرين للأدنه وي (ص: ٢٤٦).

(٣) انظر: طبقات المفسرين، للسيوطي (ص: ٩٢). الجامع لأحكام القرآن (٨/١).

المطلب الثالث: وصف الكتاب وقيمتة العلمية ومصادره في التفسير

المطلب الرابع: ثناء العلماء على القرطبي و تفسيره الجامع لأحكام القرآن

المطلب الأول

اسم الكتاب وغرض المؤلف من تأليفه

اسم الكتاب:

لقد سمي الإمام القرطبي تفسيره ب(الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان) هكذا سماه في مقدمة تفسيره^(١).

وقد اشتهر اسمه بين الناس بالشرط الأول من تسمية القرطبي له (الجامع لأحكام القرآن) من باب الاختصار والتسهيل، كما اشتهر بنسبته لمؤلفه ب (تفسير القرطبي).

غرض المؤلف من تأليفه (الجامع لأحكام القرآن):

لقد بين القرطبي غرضه من تأليفه لهذا التفسير فقال -رحمه الله-:

"فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيتُ أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مُنتي^(٢)، بأن أكتب تعليقًا وجيزًا، يتضمن نكتًا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعًا بين معانيهما، ومبينًا ما أشكل منهما، بأقوال السلف، ومن تبعهم من الخلف. وعملته تذكرة لنفسي، وذخيرة ليوم رمسي، وعملاً صالحًا بعد موتي"^(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣).

(٢) والمُنَّة: بالضم، القوة. تاج العروس، للزبيدي (٣٦/ ١٩٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٢).

المطلب الثاني

منهج القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن

لقد بين الإمام القرطبي منهجه وشرطه في كتابه بعبارات وجيزات فقال -رحمه الله-:

"وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مصنفها... ، وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكماً أو حكماً فما زاد مسائل تُبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل هكذا إلى آخر الكتاب"^(١).

والمأمل في منهج القرطبي وشرطه يجد أنه قد رسم لنفسه منهجاً علمياً رصيناً، ويمكن تلخيصه بالآتي:

- نسبة الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مصنفها. غالباً^(٢).
- إعراضه عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه للبيان. وغالباً ينبه على ذلك^(٣).
- الرد على أهل الزيغ والضلال والانحراف.
- يُناقش الأقوال وينبه على الضعيف وما لا يصح، ويأخذ بالدليل دون تعصب، مع نزاهته في العبارة.

(١) المصدر السابق (١/ ١٣).

(٢) انظر في هذا البحث الباب الثاني، الفصل الأول، المبحث الثاني، المطلب الثاني المقارنة في التفسير بالمأثور.

(٣) انظر في هذا البحث الباب الثاني، الفصل الأول، المبحث الثاني، المطلب الخامس المقارنة في التفسير بالقصص والإسرائيليات.

- يذكر معانى غريب الألفاظ، واشتقاق الكلمات، وشيء من الإعراب، ويذكر القراءات متواترها وشاذها، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ.
 - الاهتمام والتوسع في جمع الأحكام الشرعية والمسائل الفقهية وذكر مذاهب العلماء مما له تعلق مباشر وغير مباشر بالآيات.
 - كثير الاستشهاد بالشعر العربي ولغة العرب.
 - حسن الترتيب والتقسيم بسرد مسائل متعددة يتناول فيها كل ما يتعلق بالآيات من أسباب النزول أو الناسخ والمنسوخ أو الأحكام الفقهية أو غيره، ويدرسها دراسة وافية مفيدة.
- وسياتي بيان هذا المنهج وأمثله في الباب الثاني من هذا البحث من خلال الدراسة التحليلية المقارنة كل نقطة في موضعها، وإنما أردنا هنا التعريف العام بمنهج القرطبي وشرطه^(١).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣)، والتفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي (٢/ ٣٣٦)، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، لمؤلفه: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (ت: ١٤٠٣هـ)، الناشر: مكتبة السنة، ط: الرابعة، (ص: ١٣٦)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٣٩٠).

المطلب الثالث

وصف الكتاب وقيمته العلمية ومصادره في التفسير

وصف الكتاب وقيمته العلمية:

لقد وصف العلماء كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي أوصافاً عظيمة تدل على قيمته العلمية البالغة، ومن أولئك العلماء الإمام ابن فرحون -رحمه الله- فقد قال:

" جمع [القرطبي] في تفسير القرآن كتاباً كبيراً في اثني عشر مجلداً سماه كتاب جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي القرآن وهو من أجل التفسير وأعظمها نفعاً أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ"^(١).

وقال ابن خلدون -رحمه الله-: " فلما رجع الناس إلى التحقيق والتّحصيل وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التّفسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصّحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى، وتبعه القرطبي في تلك الطّريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق"^(٢).

ويقول ابن تيمية -رحمه الله- وهو يقارن بين كتاب الزمخشري وتفسير القرطبي:

"وتفسير القرطبي خير منه بكثير وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة وأبعد عن البدع..."^(٣).

إن كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي يُعد كتاباً تفسيرياً فقهياً ضخماً في علمه وحجمه، مع أن مؤلفه ذكر في مقدمة تفسيره بأنه رأى أن يكتب "تعليقاً وجيزاً"^(١)، فأخرج لنا هذا الكتاب العظيم الذي يدل دلالة واضحة على سعة علم القرطبي وهمة العالية،

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧).

(٢) تاريخ ابن خلدون (١/ ٥٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٣/ ٣٨٨).

وهذا الكتاب موسوعة عظيمة لمن أراد أن يبحث في التفسير فهو شامل لكل ما يحتاجه الباحث؛ لأنه يذكر كل ما يتعلق بالآية المراد تفسيرها، فيذكر أسباب النزول ويذكر معاني الغريب من كتب اللغة ويحتكم إلى اللغة والإعراب ويستشهد بكلام العرب وأشعارهم ويذكر القراءات وينقل أقوال السلف والأثر النبوية المتعلقة بالآيات وأحكامها وينسب الأقوال والأثر إلى مصادرها ولهذا فهو معدود من التفسير بالمأثور، ويستفيض في أحكام الآيات ويذكر كلام أهل العلم ومذاهبهم ويناقش الأقوال ويأخذ بالراجح دون تعصب، وعباراته لطيفة، ولا يقبل التهكم بأهل العلم وإن أخطأوا ولهذا يُنكر على ابن العربي^(٢) حدته وتشنيعه على العلماء، ويرد على المخالفين وفاءً بشرطه بالرد على أهل الزيغ والضلالات، فهو كتاب موسوعة في التفسير والفقہ واللغة العربية والعقيدة، مع التحقيق والتدقيق فهو ينبه على بعض الأقوال والأحاديث والقصص الضعيفة والموضوعة، كما أنه لم يُكثر من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين واستعاض عنها بالتوسع في الأحكام الفقهية، وأجمل ما في هذا الكتاب حسن الترتيب والصياغة مما يدل على سعة علم القرطبي وقوة إدراكه وحسن تصنيفه، وكتابه هذا سابق للرسائل العلمية الأكاديمية في حسن الترتيب والتقسيم يظهر ذلك جلياً في تقسيم أحكام الآيات المراد تفسيرها إلى مسائل متعددة تصل إلى أكثر من ثلاثين مسألة في بعض المواضع ثم يدرسها مسألةً مسألةً، ويُعطي كل مسألة حقها، والمتأمل في تفسير القرطبي يعرف أن القرطبي لم يقتصر على

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١ / ٢).

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي، قاض، من حفاظ الحديث. ولد في إشبيلية، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. وصنف كتباً في الحديث والفقہ والأصول والتفسير والأدب والتاريخ. وولي قضاء إشبيلية، ومات بقرب فاس، ودفن بها، ومن مؤلفاته أحكام القرآن، وُلد عام (٤٦٨ هـ) وتُوفي سنة (٤٥٣ هـ). سير أعلام النبلاء (٢٠ / ١٩٨)، و الأعلام للزركلي (٦ / ٢٣٠). ملاحظة/ وهناك محمد بن علي بن محمد أبو بكر ابن العربي، الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر: فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم، وله مصنفات عديدة، قال الذهبي من مؤلفاته: كتاب (الفصوص) وعلق عليه فقال: "إن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة" وكانت ولادته سنة (٥٦٠ هـ) وتُوفي في (٦٣٨ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢٣ / ٤٨).

آيات الأحكام فقط، بل كان يبحث في كل آية عن معناها ومسائلها كانت فقهية أو أصولية أو في علوم القرآن أو العقيدة أو غيرها^(١).

ولهذا حظي تفسير القرطبي بمكانة عالية بين التفسير، وقد أشاد به العلماء وأخذوا به ونقلوا منه وقدموه على غيره وعدوه من مراجع التفسير المهمة، وبهذا تتضح القيمة العلمية لهذا التفسير العظيم. فرحم الله مؤلفه رحمة واسعة.

مصادره في التفسير:

لقد تبحر الإمام القرطبي في العلم وصار عالماً مجتهداً ومع هذا فقد استفاد ممن صنف قبله ونقل عنهم، ولم يكن ناقلاً فحسب، بل كان مُجتهداً ومحققاً بارعاً، ولهذا خرج لنا كتابه الجامع لأحكام القرآن بأحسن صورة ووصف.

ومن مصادره في التفسير:

ابن جرير الطبري، والمهدوي، وابن عطية الأندلسي وقد اعتمده كثيراً في تفسيره. كما أنه يستدل بكتب السنة وينقل أقوال السلف في تفسير الآيات، ولهذا يُعد تفسير القرطبي من التفسير بالمأثور.

ومن مصادره في القراءات:

أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي صاحب كتاب الحُجة في علل القراءات السبع، وأبو الفتح عثمان بن جني صاحب كتاب المُحْتَسَب.

ومن مصادره في اللغة:

الخليل الفراهيدي، وسيبويه، والجوهري^(٢)، وأبو جعفر النحاس^(١)، والنقاش. وغيرهم.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/١٣)، والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص: ٣١٧)، والتفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي (٢/٣٣٦)، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، لمحمد بن سويلم أبو شهبة (ص: ١٣٦)، ومباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص: ٣٩٠).

(٢) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري إمام اللغة، مصنف كتاب الصحاح، وأحد من يُضرب به المثل في ضبط اللغة، حاول الطيران ومات في سبيله، تُوفي متردياً من سطح داره بنيسابور سنة (٣٩٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/٨٠)، والأعلام للزركلي (١/٣١٣). ملاحظه/ أول من حاول الطيران عباس بن فراس، أبو القاسم،

ومن مصادره في الفقه والأحكام:

الكنيا الهراسي^(٢) وابن العربي وأبو بكر الجصاص^(٣)، وهؤلاء الثلاثة صنّفوا في أحكام القرآن وأخذ القرطبي عنهم، والإمام مالك، وسحنون صاحب المدونة، وغيرهم ومن مصادره في العقائد: الأشاعرة وعلى رأسهم الإمام أبي الحسن الأشعري. ومن أراد التوسع في معرفة مصادره فليراجع ذلك في مظانه^(٤).

مخترع أندلسي، من أهل قرطبة، كسا نفسه الريش، ومدّ له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذى في ظهره، فهو أول طيار اخترق الجو، وتوفي سنة (٢٧٤هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٢٦٤).
(١) أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس، العلامة، إمام العربية، مفسر، أديب، نحوي، من تصانيفه (تفسير القرآن) و (إعراب القرآن) و (الناسخ والمنسوخ) و (معاني القرآن)، ارتحل إلى بغداد، وأخذ عن الزجاج، وكان من أذكى العالم. تُوفي بمصر سنة (٣٣٨هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤٠١/١٥)، والأعلام، للزركلي (٢٠٨/١).

(٢) علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، المعروف بالكنيا الهراسي، أحد أعلام الشافعية، تتلمذ على يد إمام الحرمين الجويني، مفسر، وله علم بالحديث، وكان أحد الفصحاء، ومن ذوي الثروة والحشمة، له تصانيف حسنة، اتهم بالباطنية ثم ظهرت برأئته، وُلد في طبرستان عام (٤٥٠هـ) وتوفي سنة (٥٠٤هـ). وانظر سير أعلام النبلاء (٣٥٠ / ١٩)، والأعلام للزركلي (٤/ ٣٢٩).

(٣) أحمد بن علي الرّازي، المشهور بأبي بكر الجصاص، زاهد، عالم، سكن بغداد ومات فيها، انتهت إليه رئاسة الحنفية. وخطب في أن يلي القضاء فامتنع، من مؤلفاته أحكام القرآن، وُلد عام (٣٠٥هـ) وتُوفي (٣٧٠هـ). انظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، لمؤلفه عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محبي الدين الحنفي (ت: ٧٧٥هـ)، الناشر: مير محمد كتب خانه، كراتشي، (١/ ٨٤)، والأعلام للزركلي (١/ ١٧١).

(٤) انظر: التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي (٢/ ٣٣٨)، ومباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص: ٣٩٠)، والجامع لأحكام القرآن (٨/١)، والقرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير، لمؤلفه: دكتور مفتاح السنوسي، الناشر دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط: أولى، عام ١٩٩٨م، (ص: ١٩٦).

المطلب الرابع

ثناء العلماء على القرطبي و تفسيره الجامع لأحكام القرآن

لقد استفاضت عدالة وشهرة القرطبي وكتابه الجامع لأحكام القرآن، وأكثر العلماء من الثناء عليهما وشهدوا لهما بالفضل والتقديم، وسنذكر هنا بعض مقالات أهل العلم في الثناء على الإمام القرطبي وتفسيره:

- "القرطبي صاحب التفسير محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الإمام العلامة أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي القرطبي إمام متقن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله... وقد سارت بتفسيره الركبان وهو تفسير عظيم في بابه وله كتاب الأسنى في أسماء الله الحسنى وكتاب التذكرة وأشياء تدل على إمامته وكثرة اطلاعه"^(١).

- "... كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف، جمع في تفسير القرآن كتابًا كبيرًا في اثني عشر مجلدًا سماه كتاب جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان وهو من أجَلِّ التفاسير وأعظمها نفعًا أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ... وله تأليف وتعليق مفيدة غير هذه وكان قد طرح التكلف"^(٢).

- "وكان ورعًا متعبدًا، طارحًا للتكلف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية"^(٣) ^(٤).

(١) الوافي بالوفيات، للصفدي (٢/ ٨٧).

(٢) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص: ٣١٧).

(٣) طاقية: غطاء للرأس من القطن أو الصوف ونحوهما. معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ١٤٢٥).

(٤) الأعلام، للزركلي (٥/ ٣٢٢).

- " .. القرطبي مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان" (١).

- "القرطبي... إنه كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزاهدين في الدنيا المشتغلين بما يعنيه من أمور الآخرة" (٢).

رحمه الله رحمة واسعة، ونفعنا بعلومه في الدنيا والآخرة... آمين

(١) طبقات المفسرين، للأدنه وي (ص: ٢٤٦).

(٢) نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المقرئ (٢/ ٢١٠).

الباب الثاني

دراسة تحليلية مقارنة بين الحرر الوجيز والجامع لأحكام القرآن

وفيه فصلان:

الفصل الاول: دراسة تحليلية مقارنة في العقائد، وعلوم القرآن

الفصل الثاني: دراسة تحليلية مقارنة في العبادات والمعاملات والأخلاق

الفصل الأول

المقارنة في العقائد وعلوم القرآن

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المقارنة في العقائد

المبحث الثاني: المقارنة في علوم القرآن

المبحث الأول

المقارنة في العقائد

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: المقارنة في الربوبية والألوهية

المطلب الثاني: المقارنة في الأسماء والصفات

المطلب الثالث: المقارنة في الإيمان

المطلب الرابع: المقارنة في الوعد والوعيد

المطلب الخامس: المقارنة في الرد على المخالفين

المطلب الأول

المقارنة في الربوبية والألوهية

ذكر أهل العلم أن التوحيد^(١) يتضمن ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الاسماء والصفات. وكلاهما متلازمة^(٢).

والمقصود بتوحيد الربوبية: الاعتقاد والإقرار بأن الله واحد في أفعاله، لا شريك له فيها، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتدبير الأمور والتصرف في الكون، وغير ذلك مما يتعلق بربوبيته. والمقصود بتوحيد الألوهية: إفراد الله بالعبادة، كالدعاء والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر، وغيرها من أنواع العبادة التي يجب إفراده بها، فلا يصرف منها شيء لغير الله سبحانه وتعالى، ولو كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا^(٣). والتوحيد أول وآخر ما يجب على العبد، قال عليه الصلاة والسلام: (من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة)^(٤). ولما كان معظم الناس مُقَرَّبِينَ بالربوبية، ومُشْرِكِينَ في الألوهية، ومُلْحِدِينَ في أسماء الله وصفاته، ويحتكمون إلى الجاهلية، جاء القرآن بالتوحيد بجميع أنواعه ولوازمه، وكان منهج القرآن ينطلق مما هو معلوم عند الناس

(١) التوحيد في اللغة: التوحيد مصدر وحد يوحد، أي جعل الشيء واحدًا. وفي الاصطلاح: إفراد الله بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا. انظر: القاموس المحيط (ص: ٣٢٤)، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضوية في عقد الفرقة المرضية، المؤلف: (السفاريني) شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت: ١١٨٨هـ)، الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، ط: الثانية عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، (١/ ٥٧).

(٢) انظر: كتاب شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: (ابن أبي العز الحنفي) صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، (ت: ٧٩٢هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: وزارة الأوقاف، السعودية، ط: الأولى، عام ١٤١٨هـ (ص: ٢٧).

(٣) انظر: كتاب تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليهِ شرح الصدور في تحريم رفع القبور، المؤلف: محمد بن إسماعيل الصنعاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المحقق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، السعودية، ط: الأولى، عام ١٤٢٤هـ، (ص: ٩).

(٤) صحيح البخاري، باب ما جاء في الجنائز، ومن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، (٢/ ٧١). رقم الحديث: (١٢٣٧).

لإثبات ما هو محل شك عندهم، وهذا منهج قرآني عظيم في إثبات الحقائق، ومن الآيات التي جاءت لتحقيق التوحيد بجميع أنواعه ولوازمه قوله تعالى: ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمَنْ الْآتَعَنِ أَزْوَاجًا يَدْرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

فالتوحيد بأنواعه متلازم، فمن أقر بتوحيد الربوبية لزمه من ذلك الإقرار بأن يفرد الله سبحانه بالعبادة؛ لأنه لا يصلح أن يعبد إلا من كان رباً خالقاً مالكاً مُدبراً، وما دام ذلك لله وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده^(٣). ولزال العلماء قديماً وحديثاً يهتمون بالتوحيد، ومن ذلك ما ذكره المفسران (ابن عطية والقرطبي) في تفسيريهما من معاني التوحيد وترسيخه. وسنذكر في هذا المبحث شيء من ذلك الاهتمام.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في تفسير آيات التوحيد:

اهتم المفسران -رحمهما الله- بتفسير آيات التوحيد، وذكرنا توحيد الربوبية والألوهية، وتلازمهما، وتوسعا في ذلك، وحرصا على ترسيخ الإيمان، والعبادة، والتوكل على الله،

(١) الشورى: ٩ - ١١

(٢) الأعراف: ٥٤ - ٥٥

(٣) انظر: شرح الطحاوية (ص: ٢٧)، وكتاب مُعتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، لمؤلفه: محمد بن

خليفة بن علي التميمي، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، عام ١٤١٩هـ-

١٩٩٩م، (ص: ٤١).

واليقين، ومفاهيم التوحيد الصحيحة، من خلال تفسير الآيات. وكلا المفسرين على عقيدة أهل السنة ويؤكدان على توحيد الربوبية والألوهية، ويستشهدان باللغة العربية والأدلة النقلية والعقلية في تقرير مسائل التوحيد، ومن ذلك أنّ الله خاطب الناس بما أقرّوا به من توحيد الربوبية وألزمهم بما شكوا فيه من توحيد الألوهية.

وقد اتفق المفسران في أن الله وحده هو السيد المالك المدبر القائم على كل شيء على الإطلاق ومن كل وجه وغيره ليس كذلك، وأنه سبحانه الخالق وحده لا شريك له ولهذا وجب إفراده وحده بالعبادة، وأنّ الله قد جعل للناس السماء بناء وغطاء والأرض مهذاً وفراشاً وأنزل من السماء ماء، وبث نعمه في الأرض لكي يعبد الإنسان ويوحده ويستغني به عن سواه.

وجوه الافتراق بين التفسيرين في تفسير آيات التوحيد:

التفسيران متشابهان والقرطبي أكثر توسعاً واستشهاداً بالأدلة العقلية والنقلية. وقد ذكر القرطبي فوائد لم يذكرها ابن عطية، مثل أن (الرب) اسم الله الأعظم على قول بعض أهل العلم لما يحتويه من الصفات ولما تضمنه من العلاقة بين المخلوق والخالق، وأنّ الألف واللام إذا دخلت على (رب) اختص الله تعالى به ولا يجوز إطلاقه على غيره؛ لأنها للعهد، وإذا حُذفت منه صار مشتركاً بين الله وبين عباده، فيقال: الله رب العباد، وزيد رب الدار^(١).

أمثلة تطبيقية:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

(١) المحرر الوجيز (١/ ٩٣، ٥١)، والجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١٧، ١٣٨).

(٢) الفاتحة: ٢

"والرب في اللغة: المعبود والسيد المالك، والقائم بالأمر المصلح... وهذه الاستعمالات قد تتداخل فالرب على الإطلاق الذي هو رب الأرباب على كل جهة هو الله تعالى"^(١).

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

"قوله تعالى: ﴿ رَبِّ اَلْمَلِئِٔتِ ﴾ أي مالكهم، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، فالرب: المالك. وفي الصحاح^(٢): والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة... ، والرب: السيد... ، والرب: المصلح والمدبر والجابر والقائم... ، والرب: المعبود... ، والمربوب: المرَبِي. التاسعة: قال بعض العلماء: إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم، لكثرة دعوة الداعين به... ، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الربِّ والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال... العاشرة: متى أدخلت الألف واللام على (رب) اختص الله تعالى به؛ لأنها للعهد، وإن حذفنا منه صار مشتركاً بين الله وبين عباده، فيقال: الله رب العباد، وزيد رب الدار، فالله سبحانه رب الأرباب، يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُملَك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما يملك شيئاً دون شيء، وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعاني، فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين"^(٣).

(١) المحرر الوجيز (٥١/١). وفيه توسع ابن عطية في الاستشهاد لمعاني الرب.

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري (١/ ١٣٠)، واستطرد الامام القرطبي في الاستشهاد لمعاني الرب بكلام العرب وأشعارها، وبنصوص الشرع.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٨).

مثال آخر: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
 ٥١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا
 تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

" وقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ معناه وحدوه وخصوه بالعبادة، وذكر تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها، فذكر ذلك حجة عليهم... ، وواحد (الأنداد) ند، وهو المُقاوم والمُضاهي كان مثلاً أو خلافاً أو ضدّاً... ، واختلف المُتأولون من المخاطب بهذه الآية؟ فقالت جماعة من المفسرين: المخاطب جميع المشركين. فقوله على هذا: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يريد العلم الخاص في أنه تعالى خلق وأنزل الماء وأخرج الرزق، ولم تنف الآية الجهالة عن الكفار، وقيل: المراد كفار بني إسرائيل، فالمعنى تعلمون من الكتب التي عندهم، أن الله لا ند له. وقال ابن فورك^(٢): يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين، فالمعنى: لا ترتدوا أيها المؤمنون، وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله واحد. وهذه الآية تُعطي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرق من جعل لله ندا، عصمنا الله تعالى بفضله وقصر آمالنا عليه بمنه وطوله، لا رب غيره"^(٣).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله -:

(١) البقرة: ٢١ - ٢٢

(٢) أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، الإمام، العلامة، الصالح، شيخ المتكلمين، كان أشعرياً من فقهاء الشافعية، أصولي، أديب، نحوي، واعظ، بلغت مصنفاته قريباً من مائة مصنف، تُوفي سنة (٤٠٦هـ). سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢١٤)، والأعلام للزركلي (٦/ ٨٣).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ٩٣).

"واختلف من المراد بالناس هنا على قولين: أحدهما: الكفار الذين لم يعبدوه، يدل عليه قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾^(١). الثاني: أنه عام في جميع الناس، فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها. وهذا حسن. قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أمر بالعبادة له. والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه. وأصل العبادة الخضوع والتذلل، يُقال: طريق معبدة إذا كانت موطوءة بالأقدام... والعبادة: الطاعة. والتعبد: التنسك. وعبدت فلاناً: اتخذته عبداً. قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خص تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها، فذكر ذلك حجة عليهم وتقريعاً لهم. وقيل: ليذكرهم بذلك نعمته عليهم... الخامسة: قلت: ودلت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق، ولهذا قال عليه السلام مُشيراً إلى هذا المعنى: (والله لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه). أخرجه مسلم^(٢). ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل لله ندا. وقال علماء الصوفية: أَعْلَمَ اللهُ عز وجل في هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وطاء والسماء غطاء، والماء طيباً والكلأ طعاماً، ولا تعبد أحداً في الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عز وجل قد أتاح لك ما لا بد لك منه، من غير منةٍ فيه لأحد عليك... السادسة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ نهي. ﴿لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي أكفاء وأمثالا ونظراء، واحدها ند... (أندادا) أضدادا... ، السابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾... والجمله في موضع الحال، والخطاب للكافرين و المنافقين... فإن قيل: كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع

(١) البقرة: ٢٣

(٢) رواه القرطبي بالمعنى وهو في صحيح مسلم، باب كراهة المسألة للناس (٢/٧٢١)، رقم الحديث (١٠٤٢)، وصحيح البخاري، باب الاستعفاف عن المسألة (٢/١٢٣)، رقم الحديث: (١٤٧٠).

والصمم والعمى. فالجواب من وجهين: أحدهما (وأنتم تعلمون) يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق، فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد الثاني أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتهم، والله أعلم. وفي هذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد. وقال ابن فورك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين، فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله واحد" (١).

دراسة وتحليل:

ومن خلال ما تقدم يتبين أن الإمامين ابن عطية والقرطبي -رحمهما الله- قررا عقيدة التوحيد والإيمان، وأظهرا تلازم توحيد الربوبية والألوهية، وأن ذلك يورث الإيمان وحسن التوكل واليقين، وتوسع القرطبي أكثر من ابن عطية في ذكر معنى الربوبية والعبودية، والترغيب في استعمال حجج العقول وإبطال التقليد لترسيخ الإيمان والتوحيد. وهذا شيء مطلوب بجانب الأدلة الشرعية، فقد جاءت كثير من الآيات تخاطب القلب والعقل والفطرة لترسيخ الإيمان. وقد اتفق المفسران أن معنى ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ المقصود به التوحيد وإخلاص العبادة لله سبحانه دون غيره. وقد ذكر كثير من المفسرين أن الأمر بالعبادة في القرآن أمر بالتوحيد، قال شيخ المفسرين الإمام الطبري: "وإنما معنى ذلك: اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم، لنتقوه بطاعته وتوحيده وإفراده بالربوبية والعبادة" (٢)، وقال أبو الليث السمرقندي (٣): "﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي أطيعوا ربكم ويقال: وحدوا ربكم" (١)، وقال

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢١٧/١).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، لمؤلفه: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، (١/٣٦٤).

(٣) أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، الإمام، الفقيه، المحدث، الزاهد، الحنفي، ترك عدة مؤلفات منها تفسيره (بحر العلوم)، (تنبيه الغافلين)، وتروج عليه الأحاديث الموضوعية، تُوفي سنة (٣٧٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٣٧٧/٣١)، وطبقات المفسرين، للداودي (٣٤٦/٢).

السمعاني^(٢): "﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: وحدوا"^(٣)، وقال البغوي^(٤): "اعبدوا: وحدوا. قال ابن عباس^(٥): كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد"^(٦)، وقال ابن الجوزي^(٧): " هنا قولان: أحدهما: التوحيد. والثاني: الطاعة"^(٨)، وقال ابن جزي: "﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ يدخل فيه الإيمان به سبحانه وتوحيده وطاعته، فالأمر بالإيمان به لمن كان جاحداً، والأمر بالتوحيد لمن كان مشركاً، والأمر بالطاعة لمن كان مؤمناً"^(٩)، وقال أبو حيان: " في قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، أي فوحده وأخلصوا له العبادة؛ لأن أصل العبادة هو

-
- (١) بحر العلوم للسمرقندي، الناشر: دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمود مطرجي (١/ ٣٣).
- (٢) منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي السمعاني الحنفي، أبو المظفر، مُفسر ومحدث، ومفتي، له (تفسير القرآن)، وُلد بمرور عام (٤٢٦هـ) وتُوفي بها سنة (٤٨٩هـ) وهو جد السمعاني صاحب (الأنساب) عبد الكريم بن محمد. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٠٣/٣٧)، وطبقات المفسرين، للداوودي (٢/ ٣٣٩).
- (٣) تفسير القرآن، لمؤلفه: السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، ط: الأولى، عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، (١/ ٥٦).
- (٤) الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي، أبو محمد، يُلقب بمحبي السنة، صاحب التصانيف، له (معالم التنزيل)، كان سيِّداً إماماً عالماً علامة، زاهداً قانعاً باليسير، و كان أبوه يعمل الفراء وبيعهها، توفي: سنة (٥١٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤١٣/٣٧)، وطبقات المفسرين، للسيوطي (ص: ٤٩).
- (٥) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، أبو العباس القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يسمى البحر، لسعة علمه، ويسمى حبر الأمة، ولد في شعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين فحنكه النبي صلى الله عليه وسلم بريقه، ولما تُوفي النبي صلى الله عليه وسلم كان عمره ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة، وتُوفي ابن عباس بالطائف سنة (٦٨هـ) وعمره سبعين عاماً أو يزيد. انظر: كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة، لمؤلفه: أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، (٣/ ٢٩١).
- (٦) معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمؤلفه: مُحبي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٢٠هـ، (١/ ٩٣).
- (٧) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن جعفر، جمال الدين أبو الفرج، الإمام، العلامة، الحافظ، المفسر، المؤرخ، الواقظ، شيخ الإسلام، وعالم العراق، من تصانيفه (زاد المسير في علم التفسير)، وُلد عام (٥٠٨هـ) وتُوفي سنة (٥٩٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤١/ ٣٤٠).
- (٨) زاد المسير في علم التفسير، لمؤلفه: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٢٢هـ، (١/ ٤٢).
- (٩) التسهيل لعلم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧٤).

التوحيد" ^(١)، وقال الحافظ ابن كثير: " قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾
للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم" ^(٢)،
وقال أبو السعود ^(٣) "وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن كل ما ورد في القرآن من
العبادات فمعناها التوحيد وقيل معنى اعبدوا وحدوا وأطيعوا" ^(٤).

ومن خلال ما سبق يتبين أن التوحيد يدخل دخولاً أولياً تحت الأمر بالعبادة في مصطلح
القرآن، وهذا ما قرره ابن عطية والقرطبي وغيرهم من المفسرين.

(١) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان (١ / ١٦٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لمؤلفه: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)،
المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: الثانية، عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، (١ / ١٩٥).

(٣) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، أبو السعود، مفتي ومفسر وشاعر، سريع البديهة، من علماء الترك المستعربين،
اشتغل بالتدريس، وتولى قضاء القسطنطينية وغيرها، وتولى بعد ذلك الإفتاء ومكث فيه ثلاثين سنة، وقام بأمره خير
قيام، وتفسيره إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، كشف فيه عن مزايا القرآن اللغوية والعقلية، وُلد في إحدى
ضواحي القسطنطينية في بيت علم وفضل عام (٨٩٨هـ) وتوفي سنة (٩٨٢هـ)، ودفن إلى جوار قبر الصحابي
الجليل أبي أيوب الأنصاري قرب أسوار القسطنطينية. الأعلام للزركلي (٧ / ٥٩)، و الموسوعة العربية العالمية في
الشبكة الدولية للمعلومات.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لمؤلفه: أبي السعود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، (١ / ٥٨).

المطلب الثاني

المقارنة في الأسماء والصفات

الأسماء^(١) والصفات^(٢) هي الأسماء الحسنى والصفات العلى التي أثبتتها الشرع لله سبحانه وتعالى، بها يُعرف ويُدعى، وكلها على وجه الحسن والكمال المطلق، وأسماءه وصفاته سبحانه وتعالى توقيفية على ما جاء في الشرع لا سيما الأسماء وأما الصفات فيتوسع فيها بحسب مقتضى الدليل والكمال، ويجب الإيمان بأسماء الله وصفاته الواردة شرعاً، وإثبات ما أثبتته الشرع لله سبحانه ونفي ما نفاه الشرع عنه سبحانه، مع اعتقاد الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد^(٣).

وجوه الاتفاق بين التفسيرين:

(١) الأسماء جمع اسم، وهو مشتق من السمو، بمعنى العلو والارتفاع، وهو الذي رُفِعَ به ذكر المُسمَى وعُرفَ به، وقيل: مشتق من السمّة وهي العلامة، فالأسماء هي الألفاظ الدالة على الذوات. انظر: كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لمؤلفه: نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، ومطهر بن علي الإيراني، ود يوسف محمد عبد الله، الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، ط: الأولى، عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، وتاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٣٠٦).

(٢) والصفات: جمع صفة، مأخوذ من وصف، والهاء عوض من الواو وقيل: الوصف المصدر والصفة الحلية، والصفة: هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات، نحو طويل وقصير وعاقل، وقيل: الصفة هي الامارة اللازمة بذات الموصوف الذي يُعرف بها. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٩/ ٣٥٦). و كتاب التعريفات، لمؤلفه: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)، بتحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، (ص: ١٣٣).

(٣) انظر: كتاب الفقه الأكبر، لمؤلفه: أبي حنيفة النعمان (ت: ١٥٠هـ)، الناشر: مكتبة الفرقان، الإمارات العربية، ط: الأولى، عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، (ص: ٢٧)، العرش لمؤلفه: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قانيمار الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ط: الثانية، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، (١/ ٣٠)، وتطهير الاعتقاد للشوكاني (ص: ٩)، ومفهوم الأسماء والصفات، المؤلف: سعد بن عبد الرحمن نداء، الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (٤٥)، (ص: ٧٩، ٨٠).

اهتم المفسران ابن عطية والقرطبي بجانب أسماء الله وصفاته، وأصل اشتقاق تلك الأسماء والصفات، والرد على المخالفين، ويرى المفسران أن أسماء الله لها مدلولات ومعاني، فاسمه الرحمن يدل على صفة الرحمة كما يدل على الذات، وأن لفظ الجلالة (الله) أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها وأعرفها، ويرى المفسران أن أسماء الله توقيفية، وأن معية الله لعباده المقصود معية الحفظ والرعاية والعلم، لا معية الذات، وأن صفة العلو لله المقصود بها علو القدر والسلطان لا علو الذات، لأن الله منزّه عن التحيز، وأن استوائه سبحانه على العرش، له عدة معاني ويرجحان أنه علو السلطان والقاعدة التي يجب مراعاتها في ذلك هي منع النقلة والحركة، ويثبتان لله صفة الكلام، ويرى المفسران أن للعلماء في تفسير صفات الله التي يوهم ظاهرها التشبيه ثلاثة مذاهب الأول تلاوتها والإيمان بها دون التعرض لها بتفسير، والثاني إثبات معناها بحسب ظاهرها، ويرغبان عن هذا المذهب وينسبانه للمجسمة، والمذهب الثالث تأويل معناها بحسب ما يدل عليه سياق الكلام واللغة والتنزيه، ويرجحان ذلك ويشيدان به، والمفسران بالجملة على مذهب أهل السنة وطريقة الأشاعرة (1).

أوجه الافتراق:

المفسران من أهل السنة وعلى طريقة الأشاعرة، ولا يوجد اختلاف حقيقي بينهما، إلا أن القرطبي كان أكثر توسعاً من ابن عطية في باب الأسماء والصفات والرد على المخالفين، ويختصر أحياناً ويُحيل على كتابه (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى)، كما أنه في بعض المواضع يميل إلى عقيدة أهل الحديث والأثر في اثبات الصفات اثباتاً يليق بجلال الله كما وردت دون خوض أو تأويل، إلا أنه في الغالب يختار

(1) انظر: المحرر الوجيز (٤٦/١، ١٠٤، ١١٤، ٣٦١، ٢ / ١٥٤)، والجامع لأحكام القرآن (١٠٦/١، ٢٢٨/٣، ٣٩٨/٦).

التأويل وقد صرح بمدح واختيار مذهب أبي الحسن الأشعري والجويني في بعض المواضع^(١).

أمثلة تطبيقية:

اسم (الله) و(الرحمن).

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢)

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"(الله) أبهر أسماء الله تعالى وأكثرها استعمالاً، وهو المتقدم لسائرهما في الأغلب، وإنما تجيء الآخر أوصافاً، واختلف الناس في اشتقاقه، فقالت فرقة من أهل العلم: هو اسم مرتجل، لا اشتقاق له من فعل، وإنما هو اسم موضوع له تبارك وتعالى، والألف واللام لازمة له لا لتعريف ولا لغيره، بل هكذا وضع الاسم. وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه مشتق من أله الرجل إذا عبد، وتأله إذا تتسك... ، و(الرحمن) صفة مبالغة من الرحمة، ومعناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة كما يدل على الانتهاء سكران وغضبان، وهي صفة تختص بالله ولا تطلق على البشر، وهي أبلغ من فعيل، وفعيل أبلغ من فاعل؛ لأن راحماً يُقال لمن رحم ولو مرة واحدة، ورحيماً يُقال لمن كُثر منه ذلك، والرحمن النهاية في الرحمة. وقال بعض الناس: (الرحمن الرحيم) بمعنى واحد، كالندمان والنديم، وزعم أنهما من فعل واحد، ولكن أحدهما أبلغ من الآخر..."^(٣).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤٦/١، ١٠٤، ١١٤، ٣٦١، ٢/١٥٤)، والجامع لأحكام القرآن (١٠٦/١، ٢٤٢، ٢٢٨/٣،

٣٩٨/٦).

(٢) الفاتحة: ١

(٣) المحرر الوجيز (٤٦/١).

"الثامنة عشر: فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول: لم يزل الله سبحانه موصوفاً قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته، وهذا قول أهل السنة. ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول: كان الله في الأزل بالاسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فإذا أفناهم بقي بلا اسم ولا صفة، وهذا قول المعتزلة^(١) وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم في الخطأ من قولهم: إن كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك!... من ينفي الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات، ولذلك يقولون الاسم غير المسمى، ومن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هي أوصاف الذات... الموافية عشرين: قوله: ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، لذلك لم يثن ولم يجمع، وهو أحد تأويلي قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٢) أي من تسمى باسمه الذي هو (الله). فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه. وقيل: معناه الذي يستحق أن يُعبد. وقيل: معناه واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال، والمعنى واحد. الحادية والعشرون: واختلفوا في هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات علم؟. فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم. واختلفوا في اشتقاقه وأصله... ، وذهب الجمهور من الناس إلى أن (الرحمن) مشتق من الرحمة مبني على المبالغة، ومعناه ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها، فذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى (الرحيم) ويجمع"^(٣).

(١) المعتزلة: هي فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة. ولها امتداد إلى يومنا هذا ممن ينادي بإخضاع الشرع للعقل ولا يحترم الإجماع والنصوص النبوية. وانظر كتاب الملل والنحل، لمؤلفه: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، (ت: ٥٤٨هـ)، الناشر: مؤسسة الحلبي، (١ / ٤٩)، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (١ / ٦٤).

(٢) مريم: ٦٥

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٦).

دراسة وتحليل:

المفسران متفقان من حيث العموم، فهما يثبتان أسماء الله وصفاته، ويتوسعان في معرفة اشتقاق تلك الأسماء، ويثبتان المعاني والصفات اللازمة لأسماء الله، فأسماءه سبحانه تدل على ذاته وتدل على صفاته، فالرحمن اسم لله يدل على ذاته ويتضمن صفة الرحمة، كما اتفق المفسران أن لفظ الجلالة الله، أبهر أسماء الله وأعرفها وهو المقدم عليها، وأن اسمي (الله) و(الرحمن) مما اختص بهما الله فلا يطلقا على غيره، فأسماء الله منها ما يختص به ومنها ما هو مشترك، كالرحيم، إلا أن أسماء الله وصفاته كلها على وجه الحسن والكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد. وما ذكره المفسران مما اتفق عليه أهل السنة وذكره كثير من المفسرين^(١).

مثال آخر تفسير أسماء الله وصفاته (الحي، القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، العلي، العظيم):

(١) انظر: جامع البيان، للطبري (١/ ١٢٦)، و بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ١٤)، والكشف والبيان، لمؤلفه: أحمد بن محمد الثعلبي، أبي إسحاق (ت: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة: نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م (١/ ٩٩)، والوجيز، للواحي (ص: ٨٨)، وتفسير القرآن، للسمعاني (١/ ٣٣)، ومعالم التنزيل، للبعوي (١/ ٧١)، وتفسير القرآن، لمؤلفه: (العز بن عبد السلام) أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت: ٦٦٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، (١/ ٨٨)، وتفسير القرآن الكريم (ويُسمى التفسير القيم، وهو استخراج وجمع محمد أويس الندوي من مؤلفات ابن القيم)، لمؤلفه: (ابن القيم) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٠هـ، (ص: ١١)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦)، وفتح القدير، للشوكاني (١/ ٢١).

قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (١)

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"هذه سيدة أي القرآن... ، وهذه متضمنة التوحيد والصفات العلى... ، ﴿الْحَيُّ﴾ صفة من صفات الله تعالى ذاتية، وذكر الطبري عن قوم أنهم قالوا: الله تعالى حي لا ب حياة، وهذا قول المعتزلة وهو قول مرغوب عنه، وحكي عن قوم: أنه حي ب حياة هي صفة له، وحكي عن قوم أنه يُقال: حي كما وصف نفسه ويُسلم ذلك دون أن ينظر فيه، ﴿الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾... . وقبوم بناء مبالغة أي: هو القائم على كل أمر بما يجب له... ثم نفى عز وجل أن تأخذه سِنَّةٌ أو نَوْمٌ، وفي لفظ (الأخذ) غلبة ما، فلذلك حُسنَت في هذا الموضوع بالنفي، والسنة بدء النعاس، وهو فتور يعتري الإنسان وترنيق (٢) في عينيه، وليس يفقد معه كل ذهنه، والنوم هو المستقل الذي يزول معه الذهن، والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا تدركه آفة ولا يلحقه خلل بحال من الأحوال، فجعلت هذه مثالاً لذلك وأقيم هذا المذكور من الآفات مقام الجميع، وهذا هو مفهوم الخطاب كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أُفِي﴾ (٣)... و ﴿الْعَلِيُّ﴾ يراد به علو القدر والمنزلة لا علو المكان؛ لأن الله منزّه عن التحيز، وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: هو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه. قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذا قول جهلة مجسمين، وكان

(١) البقرة: ٢٥٥

(٢) ترنيق: رفق النوم في عينيه: إذا خالطهما ولم ينم، والترنيق: الضعف يكون في البصر، وفي البدن، وفي الأمر، ورفق النظر: أخفاه، ولقيت فلاناً مرنقة عيناه، أي: منكسر الطرف من جوع أو غيره. انظر: تاج العروس، للزبيدي. (٣٦٩ / ٢٥).

(٣) الإسراء: ٢٣

الوجه أن لا يحكى وكذا ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ هي صفة بمعنى عظم القدر والخطر، لا على معنى عظم الأجرام، وحكى الطبري عن قوم: أن الْعَظِيمُ معناه الْمُعْظَم... وذكر عن قوم أنهم أنكروا ذلك وقالوا: لو كان بمعنى مُعْظَم لوجب أن لا يكون عظيمًا قبل أن يخلق الخلق وبعد فنائهم، إذ لا مُعْظَم له حينئذ" (١).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

" قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ هذه آية الكرسي سيدة آي القرآن وأعظم آية، كما تقدم بيانه في الفاتحة... وهذه الآية تضمنت التوحيد والصفات العلا... ، ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ نعت لله عز وجل... واسم ﴿ الْحَيُّ ﴾ من أسمائه الحسنی يُسمى به، ويُقال: إنه اسم الله تعالى الأعظم. ويُقال: إن عيسى ابن مريم، عليه السلام، كان إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الدعاء: يا حي يا قيوم... ، قال الطبري عن قوم: إنه يُقال حي قيوم كما وصف نفسه، ويُسَلَّم ذلك دون أن يُنظر فيه. وقيل: سمي نفسه حيًا لصفه الأمور مصارينها وتقديره الأشياء مقاديرها. وقال قتادة (٢): الحي الذي لا يموت.

(١) المحرر الوجيز (١/٣٦١).

(٢) قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز السدوسي، البصري، أبو الخطاب، مفسر حافظ ضرير أكمه (أعمى البصر)، كان من أوعية العلم، وممن يُضرب به المثل في قوة الحفظ، عالمًا بالحديث، والعربية، وغير ذلك، وُلد عام (٥٦١ هـ) وتوفي بالطاعون سنة (١١٨ هـ)، وكان يُدلس ويرى القدر. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٩). *فائدة/ ذكر الإمام الذهبي في ترجمة قنادة كلامًا قيمًا فقال: "وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع، فإنه مدلس معروف بذلك، وكان يرى القدر - نسأل الله العفو - ومع هذا، فما توقف أحد في صدقه، وعدالته، وحفظه، ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببذعة يريد بها تعظيم الناري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يُسأل عما يفعل. ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثرت صوابه، وعلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتباعه، يُغفر له زلله، ولا تُضلله ونظره وننسى محاسنه. نعم، ولا نقندي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك). سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٩).

وقال السدي^(١): المراد بالحي الباقي... وقد قيل: إنَّ هذا الاسم هو اسم الله الأعظم. ﴿

أَلْفَيْوْمٌ﴾ مِنْ قَامٍ، أَي الْقَائِمُ بِتَدْبِيرِ مَا خَلَقَ، عَنِ قَتَادَةَ. وَقَالَ الْحَسَنُ^(٢): مَعْنَاهُ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ حَتَّى يَجَازِيَهَا بِعَمَلِهَا، مِنْ حَيْثُ هُوَ عَالَمٌ بِهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ... ، وَيُقَالُ هُوَ الَّذِي لَا يَنَامُ، وَكَأَنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ عَقِيْبِهِ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾... ثم نفى عز وجل أن تأخذه سنة ولا نوم. والسنة: النعاس في قول الجميع. و النعاس ما كان من العين فإذا صار في القلب صار نومًا... قلتُ: وبالجملة فهو فتور يعتري الإنسان ولا يفقد معه عقله. والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال... والنوم هو المستنقل الذي يزول معه الذهن في حق البشر... و﴿أَلْعَلِيُّ﴾ يُرَادُ بِهِ عُلُوُّ الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ لَا عُلُوُّ الْمَكَانِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ مَنْزَهُ عَنِ التَّحْيِيزِ. وَحَكَى الطَّبْرِيُّ عَنْ قَوْمٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: هُوَ الْعَلِيُّ عَنْ خَلْقِهِ بَارْتِفَاعِ مَكَانِهِ عَنْ أَمَاكِنِ خَلْقِهِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَهَذَا قَوْلٌ جَهْلَةٌ مَجْسَمِينَ، وَكَانَ الْوَجْهَ أَلَا يَحْكِي... ، وَالْعَلِيُّ وَالْعَالِي: الْقَاهِرُ الْغَالِبُ لِلْأَشْيَاءِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: عَلَا فُلَانٌ فُلَانًا أَي غَلَبَهُ وَقَهَرَهُ... وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٣)، و﴿أَلْعَظِيمُ﴾ صِفَةٌ بِمَعْنَى عَظِيمِ الْقَدْرِ وَالْخَطَرِ وَالشَّرَفِ، لَا عَلَى مَعْنَى عِظْمِ الْأَجْرَامِ. وَحَكَى الطَّبْرِيُّ عَنْ قَوْمٍ: أَنَّ الْعَظِيمَ مَعْنَاهُ الْمُعْظَمُ... وَحُكِيَ عَنْ قَوْمٍ أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا

(١) السُّدِّيُّ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي كَرِيمَةَ، أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَجَازِيُّ، ثُمَّ الْكُوفِيُّ، الْأَعُورُ، السُّدِّيُّ، أَحَدُ مَوَالِي قَرِيْشٍ، الْإِمَامُ، الْمَفْسَرُ، قَالَ عَنْهُ النَّسَائِيُّ: صَالِحُ الْحَدِيثِ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدِ الْقَطَانَ: لَا بَأْسَ بِهِ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: ثِقَّةٌ، وَقَالَ مَرَّةً: مُقَارِبُ الْحَدِيثِ، مَاتَ سَنَةَ (١٢٧هـ)، قَلْتُ (الذَّهَبِيُّ): أَمَّا السُّدِّيُّ الصَّغِيرُ، فَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْكُوفِيُّ، أَحَدُ الْمَتْرُوكِينَ، كَانَ فِي زَمَنِ وَكَيْعٍ. سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ (٥/ ٢٦٤).

(٢) هُوَ الْإِمَامُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، الْحَسَنُ بْنُ يَسَارٍ، وَكَانَ أَبُوهُ وَأُمُّهُ مِنْ سَبِيٍّ مَيْسَانَ (مَكَانٌ بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوَأَسْطِ)، وُلِدَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَتَرَبَّى بَيْنَ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ جَمِيلًا قَوِيًّا شَجَاعًا عَالِمًا فَقِيهًا زَاهِدًا مُهَابًا، يَجْمَعُ بَيْنَ خِصَالِ الْخَيْرِ وَالْحِكْمَةِ، وُلِدَ عَامَ (٢١هـ) وَتُوفِيَ فِي (١١٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣)، والأعلام للزركلي (٢/ ٢٢٦).

(٣) القصص: ٤

ذلك وقالوا: لو كان بمعنى مُعَظَم لوجب ألا يكون عظيمًا قبل أن يخلق الخلق وبعد فنائهم، إذ لا معظم له حينئذ^(١).

دراسة وتحليل:

المفسران متفقان من حيث العموم، وهما يثبتان لله عز وجل الاسماء والصفات، ويذكران معانيهما وينقلان الأقوال والخلاف من كلام السلف والعلماء منسوبًا إليهم وغير منسوب مع تعليقات لهم مختصرة في بعض المواضع، ويردان على المعتزلة المعطلة، والمفسران يرغبان عن تفسير العلو بعلو الذات والمكان، وجعلا هذا القول لجهلة المجسمة ولا ينبغي حكايته، ويفسران العلو بعلو القدر والقهر والسلطان. كما هي طريقة الأشاعرة ومن وافقهم، والمفسرون مختلفون في تفسير ﴿الْعَلِيُّ﴾ فمنهم من فسر العلو بعلو القدر والقهر والسلطان، كما فعل ابن عطية والقرطبي، ومنهم من أثبت العلو لله مُطلقًا في الذات والمكان والسلطان والصفات وسنذكر هنا بعض مقالات الفريقين:

المفسرون القائلون بأن اسم (العلي) المقصود به علو القدر والقهر والسلطان، لا علو المكان:

قال الثعلبي^(٢): " ﴿الْعَلِيُّ﴾ الرفيع فوق خلقه في التدبير والقوة والقدرة لا بالمسافة والمكان والجهة"^(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٢٨/٣).

(٢) الثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق، النيسابوري، والثعلبي لقب له لا نسب، مفسر، إمام بارع مشهور، وكان حافظًا واعظًا، رأسًا في التفسير والعربية، متين الديانة، له مصنوعات نافعة منها تفسيره المسمى الكشف والبيان عن تفسير القرآن، وكتاب العرائس في قصص الأنبياء، توفي (٤٢٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٧/٤٣٥)، وغاية النهاية في طبقات القراء، لمؤلفه: شمس الدين أبو الخير محمد ابن الجزري (ت: ٨٣٣هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية، ط: الأولى، عام ١٣٥١هـ، (١/١٠٠).

(٣) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي (٢/٢٣٤).

وقال مكي بن أبي طالب^(١): "﴿أَلْعَلِيُّ﴾... ولا يحسن أن يكون بمعنى العلو في المسافة والارتفاع من مكان إلى مكان تعالى الله عن ذلك - إنما هو علو قدرة وجلالة وهيبة وسلطان، لا علو ارتفاع من مكان إلى مكان، ليس كمثله شيء. لا يجوز عليه الحركة ولا الانتقال ولا التغيير من حال إلى حال، فافهمه. وقيل: معنى ﴿أَلْعَلِيُّ﴾ العلي عن النظراء والأشباه، لا علو مكان"^(٢).

وقال الماوردي^(٣): "﴿وَهُوَ أَلْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ في العلي تأويلان: أحدهما: العلي بالاقترار ونفوذ السلطان. والثاني: العلي عن الأشباه والأمثال"^(٤).

وقال الواحدي^(٥): "وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ يقال: علا يعلو علواً فهو عالٍ وعلِيّ... ، فالله تعالى عليّ بالاقترار ونفوذ السلطان، وقيل: عليّ على الأشباه والأمثال.

(١) أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمَوْش - وحمّوش هي تصغير محمد عند المغاربة - بن محمد بن مختار القيسي نسبة إلى قيس عيلان من وائل وكانت تُقيم في اليمن وانتشروا في بلاد إفريقيا، القيرواني المولد والنشأة، القرطبي من حيث السكنى والتدريس والوفاء، المالكي المذهب، له رحلة إلى المشرق، إمام، فقيه، خطيب، متبحر في العربية وعلوم القرآن، له تصانيف كثيرة منها الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، وُلد عام (٣٥٥هـ)، وتُوفي سنة (٤٣٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥٩١/١٧)، وغاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري (٣٠٩ / ٢).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لمؤلفه: مكي بن أبي طالب، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (١ / ٨٥٠).

(٣) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشافعي، الشهير بالماوردي نسبتاً إلى بيع ماء الورد، وُلّي القضاء في بلدان كثيرة، ثم جُعِل (أقضى القضاة)، وكان له مكانة رفيعة عند الحكام والأمراء، له تصانيف كثيرة نافعة منها النكت والعيون في التفسير، والحاوي في الفقه الشافعي نحو عشرين مجلد، متهم بالاعتزال، وُلد بالبصرة عام (٣٦٤هـ) وتُوفي ببغداد سنة (٤٥٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٨ / ٦٤).

(٤) النكت والعيون، لمؤلفه: الماوردي، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، (١ / ٣٢٦).

(٥) الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الإمام، العلامة، الأستاذ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، صاحب (التفسير)، وإمام علماء التأويل، من أولاد التجار. قال أبو سعد السمعاني:

يقال: علا على قرنه، إذا اقتدر عليه وغلبه، وليس ثمَّ علُوٌّ من جهة المكان، ويقال أيضًا: علا فلان عن هذا الأمر: إذا كان أَرْفَعَ مَحَلًّا عن الوصف به، فمعنى العُلُوِّ في صفة الله تعالى منقولٌ إلى اقتداره، وقهره، واستحقاقه صفات المدح، على وجه لا يُساوى ولا يُوازى^(١).

وكثير من المفسرين عند تفسيرهم ﴿الْعَلِيُّ﴾ لم يصرحوا بإثبات علو المكان والذات وأثبتوا علو الصفات والقدر والقهر^(٢).

المفسرون المثبتون لصفة العلو المطلق ويشمل الذات والمكان:

قال الخازن^(٣): " ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ أي الرفيع فوق خلقه الذي ليس فوقه شيء فيما يجب له أن يوصف به من معاني الجلال والكمال فهو العلي بالإطلاق، المتعالي عن الأشباه والأنداد والأضداد، وقيل: العلي بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد، وقيل: معنى العلو في صفة الله تعالى منقول إلى اقتداره وقهره واستحقاق صفات المدح جميعها على كل وجه، وقيل: معناه أنه يعلو أن يحيط به وصف الواصفين. ﴿الْعَظِيمُ﴾ يعني أنه ذو

كان الواحدي حقيقًا بكل احترام وإعظام، لكن كان فيه بسط لسان في الأئمة...، قلت (الذهبي): الواحدي معذور مأجور، من تصانيفه في التفسير: (البيسط) و (الوسيط) و (الوجيز) وبتلك الأسماء سمى الغزالي تولى في الثلاثه في الفقه. توفي بنيسابور سنة (٤٦٨هـ). سير أعلام النبلاء (١٨ / ٣٣٩).

(١) التفسير البسيط، لمؤلفه: الواحدي، أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط: الأولى، عام ١٤٣٠هـ، (٤ / ٣٥٨).

(٢) انظر: تفسير السمعاني (١ / ٢٥٩)، ومعالم التنزيل، للبغوي (١ / ٣٤٩)، والكشاف، للزمخشري (١ / ٣٠١)، ومفاتيح الغيب، للفخر الرازي (١ / ١٣٥)، وتفسير العز بن عبد السلام (١ / ٢٣٧)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (١ / ١٥٤)، وروح البيان، لمؤلفه: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (ت: ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت (١ / ٤٠٥)، فتح القدير، للشوكاني (١ / ٣١٢).

(٣) الخازن هو: علي بن محمد بن إبراهيم الشحي، أبو الحسن، وعُرف بالخازن؛ لأنه كان أمينًا لمكتبة في دمشق، أصله من حلب، ثم سكن دمشق وسمع بعض علمائها، فاشتغل بالعلم والتأليف، ويسر له عمله في المكتبة سبل التعلم والكتابة، من مصنفاته لباب التأويل في معاني التنزيل، وُلد ببغداد عام (٦٧٨هـ) وتوفي بحلب سنة (٧٤١هـ). انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر، (٤ / ١١٥)، طبقات المفسرين، للداودي، (١ / ٢٢٦)

العظمة والكبرياء الذي لا شيء أعظم منه. وقال ابن عباس: العظيم الذي قد كَمُلَ في عظمته، وقيل: العظيم هو ذو العظمة والجلال والكمال وهو في صفة الله تعالى ينصرف إلى عظم الشأن وجلالة القدر دون العظم" (١).

وقال ابن القيم (٢): "فإنَّ من لوازم اسم ﴿الْعَلِيُّ﴾ العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه ﴿الْعَلِيُّ﴾" (٣).

وقال الحافظ ابن كثير: "فقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه" (٤).

وقال الإيجي (٥): ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ذاتًا وقدرًا وقهرًا، المتعالي عن الأنداد" (٦).

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ط: الأولى، عام ١٤١٥ هـ، (١/ ١٩٠).

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعيّ الدمشقيّ، شمس الدين أبو عبد الله، المشهور ب ابن قيم الجوزية، الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف، أبرز تلاميذ ابن تيمية، من تصانيفه: إعلام الموقعين، وزاد المعاد، ومدارج السالكين، والتفسير القيم (استخرجه محمد أويس الندوي من مؤلفاته)، وُلد بدمشق عام (٦٩١هـ) وتُوفي بها سنة (٧٥١هـ). انظر: ذيل طبقات الحنابلة، لمؤلفه: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، ط: الأولى، عام ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م، (٥/ ١٧١)، والأعلام للزركلي (٦/ ٥٦).

(٣) التفسير القيم، لابن القيم الجوزية (ص: ٣٥).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٢).

(٥) محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسن بن الحسيني الإيجي الشافعيّ: مفسر، من أهل (إيج) بنواحي شيراز. من كتبه (جامع البيان في تفسير القرآن) وُلد عام (٨٣٢ هـ) وتُوفي سنة (٩٠٥ هـ). الأعلام للزركلي (٦/ ١٩٥).

(٦) جامع البيان في تفسير القرآن، لمؤلفه: الإيجي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، (١/ ١٨٩).

وقال السعدي^(١): ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته^(٢).

ومن خلال البحث في كتب التفسير والعقيدة عن صفة العلو يخلص الباحث للآتي:

- ١- السلف الأوائل لم يظهر عندهم خلاف في صفة العلو، ولم يستشكلوا النصوص الدالة على صفة العلو.
- ٢- النصوص الشرعية على صفة العلو كثيرة ومتنوعة.
- ٣- اتفق المفسرون والمسلمون على اثبات صفة علو القدر والقهر والسلطان والصفات لله، واختلفوا في اثبات علو الذات والمكان، وكثير من المفسرين ينفون ذلك خشية التجسيم والتحيز والنقطة، مع اتفاق المفسرين على تنزيه الله سبحانه عن النظر والتمثيل والتحيز.
- ٤- الباحث يرى اثبات صفة العلو لله مطلقاً اثباتاً يليق بجلال الله كما أخبر الله ورسوله، دون خوض في الخيالات والإلزامات فهو سبحانه فوق ذلك كله، وهو سبحانه صادق في قوله وإخباره، وقد جاءت النصوص الشرعية الدالة على اثبات صفة العلو متضافرة وأقرها سلف الأمة دون استشكل. كما ينبغي اعتبار هذه المسألة وأمثالها من المسائل الخلافية المعتمدة. والله أعلم^(٣).

(١) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله. عالم ومفسر سعودي ولد في القصيم بالمملكة العربية السعودية، عام (١٣٠٧هـ) ومات، (١٣٧٦هـ) اشتهر أمره وعلت منزلته وكثر تلاميذه، ترك عدة كتب نافعة، أكثرها في تفسير القرآن وعلومه، أبرزها تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، واختصر هذا التفسير بكتاب سماه تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن. انظر: المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، لمؤلفه: أعضاء ملتقى أهل الحديث، <http://www.ahlalhdeth.com>

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لمؤلفه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويح، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، (ص: ١١٠).

(٣) انظر: كتاب إثبات صفة العلو، لمؤلفه: أبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي (ت: ٦٢٠هـ)، المحقق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، ط: الأولى، عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، (ص: ٦٣).

صفة الاستواء :

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١)

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"و﴿أَسْتَوَىٰ﴾ قال قوم: معناه علا دون تكييف ولا تحديد، هذا اختيار الطبري، والتقدير علا أمره وقدرته وسلطانه. وقال ابن كيسان^(٢): معناه قصد إلى السماء. قال القاضي أبو محمد: أي بخلقه واختراعه. وقيل معناه: كَمُلَ صنعه فيها كما تقول استوى الأمر. قال القاضي أبو محمد: وهذا قلق. وحكى الطبري عن قوم: أن المعنى أقبل، وضعفه. وحكى عن قوم (المستوي) هو الدخان. وهذا أيضًا ياباه رصف الكلام، وقيل المعنى استولى... والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع النقلة وحلول الحوادث، ويبقى استواء القدرة والسلطان"^(٣).

وقال الإمام القرطبي - رحمه - في تفسيره:

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ﴾، والاستواء في اللغة: الارتفاع والعلو على الشيء، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾^(٤)، وقال: ﴿لِئَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(٥)

(١) البقرة: ٢٩

(٢) ابن كيسان: ابو بكر الأصم، عبد الرحمن بن كيسان، فقيه معتزلي مفسر، صاحب المقالات في الأصول، وهو من طبقة أبي الهذيل العلاف وأقدم منه، له تصانيف كثيرة ذكرها النديم في (الفهرست)، توفي نحو ٢٢٥هـ. انظر: كتاب لسان الميزان، لمؤلفه: أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: دار البشائر الإسلامية، ط: الأولى، ٢٠٠٢م، (٥ / ١٢١)، وطبقات المفسرين للداوودي (١ / ٢٧٤)، والأعلام للزركلي (٣ / ٣٢٣).

(٣) المحرر الوجيز (١ / ١٠٤).

(٤) المؤمنون: ٢٨

﴿١﴾ ... ، وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها، وذهب إليه كثير من الأئمة، وهذا كما روي عن مالك رحمه الله أن رجلاً سأله عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٢﴾، قال مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأراك رجل سوء! أخرجوه. وقال بعضهم: نقرؤها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة. وهذا قول المشبهة. وقال بعضهم: نقرؤها ونتأولها ونحيل حملها على ظاهرها. وقال الفراء في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال: الاستواء في كلام العرب على وجهين، أحدهما: أن يستوي الرجل وينتهي شبابه وقوته، أو يستوي عن اعوجاج. فهذان وجهان. ووجه ثالث أن تقول: كان فلان مقبلاً على فلان ثم استوى علي وإلي يشاتمني. على معنى أقبل إلي وعلي. فهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ والله أعلم^(٣). قال وقد قال ابن عباس: ثم استوى إلى السماء سعد. وهذا كقولك: كان قاعدًا فاستوى قائمًا، وكان قائمًا فاستوى قاعدًا، وكل ذلك في كلام العرب جائز. وقال البيهقي أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين^(٤): قوله: ﴿اسْتَوَى﴾ بمعنى أقبل صحيح؛ لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء، والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى...^(٥)

(١) الزخرف: ١٣

(٢) طه: ٥

(٣) معاني القرآن، للفراء تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط: الأولى، (١/ ٢٥).

(٤) البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، من أئمة الحديث، ولد في خسروجرد (من قرى بيهق، بنيسابور) ونشأ في بيهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرها، وطلب إلى نيسابور، فلم يزل فيها حتى مات، قال الذهبي: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبًا يجتهد فيه لكان قادرًا على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف، صنف زهاء ألف جزء، منها السنن الكبرى، والسنن الصغرى، والأسماء والصفات، وغيرها، ولد عام (٣٨٤هـ) وتوفي سنة (٤٥٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٦٣)، والأعلام للزركلي (١/ ١١٦).

(٥) الأسماء والصفات لـ أحمد بن الحسين بن علي، أبي بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الله الحاشدي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م (٢/ ٣١٠).

وقال سفيان بن عيينة^(١) وابن كيسان في قوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصد إليها، أي بخلقه واختراعه، فهذا قول. وقيل: على دون تكييف ولا تحديد، واختاره الطبري. ويذكر عن أبي العالية الرياحي^(٢) في هذه الآية أنه يُقال: استوى بمعنى أنه ارتفع. قال البيهقي: ومراده من ذلك - والله أعلم - ارتفاع أمره، وهو بخار الماء الذي وقع منه خلق السماء. وقيل: إن المستوي الدخان. وقال ابن عطية: وهذا ياباه رصف الكلام. وقيل: المعنى استولى... ، قال ابن عطية: وهذا إنما يجيء في قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. قلت: قد تقدم في قول الفراء علي وإلي بمعنى. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في سورة الأعراف^(٣) إن شاء الله تعالى. والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة^(٤).

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، كنيته أبو محمد الهلالي، مولى محمد بن مزاحم، الإمام الكبير، حافظ العصر، ومحدث الحرم المكي، شيخ الإسلام، الكوفي، ثم المكي، مولده: بالكوفة، عام (١٠٧هـ)، وتوفي بمكة سنة (١٩٨هـ). سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٤).

(٢) أبو العالية رُفِعَ بن مهران الرياحي البصري الإمام، المقرئ، الحافظ، المفسر، ثقة من كبار التابعين، كان مولى لامرأة من بني رياح، أدرك زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، وسمع من الصحابة، توفي سنة (٩٠هـ) وقيل غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٠٧).

(٣) قال القرطبي في تفسير سورة الأعراف عند قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الأعراف: ٥٤، هذه مسألة الاستواء، وللعلماء فيها كلام وإجراء. وقد بينا أقوال العلماء فيها في الكتاب (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى) وذكرنا فيها هناك أربعة عشر قولاً. والأكثر من المتقدمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيه الباري سبحانه عن الجهة والتحيز فمن ضرورة ذلك ولواقعه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهه تبارك وتعالى عن الجهة، فليس بجهة فوق عندهم؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون في مكان أو حيز، ويلزم على المكان والحيز الحركة والسكون للتحيز، والتغير والحدوث. هذا قول المتكلمين. وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله. ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. وخص العرش بذلك؛ لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم - يعني في اللغة - والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة. وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها. وهذا القدر كاف، ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه في موضعه من كتب العلماء. والاستواء في كلام العرب هو العلو والاستقرار...، قلت: فعلوا الله تعالى وارتفاعه عبارة عن علو مجده وصفاته وملكوته. أي ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد، ولا معه من يكون العلو مشتركاً بينه وبينه، لكنه العلي بالإطلاق سبحانه. انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط: دار الكتب المصرية، (٧/ ٢١٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٤٢).

دراسة وتحليل:

اهتم المفسران بآيات الأسماء والصفات، وتفسيرها من حيث اللغة وما يحتمله اللفظ من المعاني ونقلوا أقوال المفسرين والخلاف العقدي، والمفسران ممن يرى صفة الاستواء وأمثالها من المشتبهات، وأنّ هناك ثلاثة أقوال في تفسير الصفات الخبرية المشتبهة، الأول: الإيمان بها دون كيف أو تفسير، ونسبوه إلى السلف، والثاني: إثبات الصفة على ظاهرها بحسب معناها اللغوي، ونسبوه للمشبهة والمجسمة، والثالث: التأويل والتنزيه بحسب ما يحتمله اللفظ العربي والسياق القرآني، وهذا القول هو المختار عند المفسرين ابن عطية والقرطبي، وقد ذكر المفسران عدة معاني لأهل التأويل والتنزيه لصفة الاستواء منها استواء القدر والسلطان ومنها الاستيلاء ومنها القصد والإقبال، والقاعدة المشتركة التي قررها المفسران في صفة الاستواء (منع الحركة والنقلة) ^(١). وهذا مذهب الأشاعرة وجماعة من المفسرين ^(٢).

وذهب جماعة من المفسرين إلى ترجيح اثبات صفة الاستواء على العرش والعلو على الحقيقة استواءً يليق بجلاله، ولا يلزم منه انتقال أو زوال ولا ينبغي السؤال عن الكيف والتعمق في ذلك، قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري بعد أن ذكر الخلاف في تفسير الاستواء: "وأولى المعاني بقول الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ علا عليهن وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهن سبع سموات، والعجبُ ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٠٤)، والجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٤٢).

(٢) انظر: بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٣٩)، الهداية الى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب (١/ ٢٠٨)، ولطائف الإشارات، لمؤلفه: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط: الثالثة، (١/ ٧٤)، والوجيز، للواحدي (ص: ٩٨)، و تفسير العز بن عبد السلام (١/ ١١٣)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (١/ ٦٦)، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، لمؤلفه: (النسفي) أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت: ٧١٠هـ) تحقيق: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (١/ ٧٦)، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ٧٨)، وغيرهم.

العرب في تأويل قول الله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الذي هو بمعنى العلو والارتفاع...^(١)

وقال السمعاني وغيره: "﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين من السلف: أي ارتفع وعلا إلى السماء"^(٢).

وقال ابن جزي: "﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾^(٣) حيث وقع حمله قوم على ظاهره... ، وتأوله قوم بمعنى: قصد.. وتأولها الأشعرية أن معنى استوى استولى بالملك والقدرة، والحق: الإيمان به من غير تكيف، فإن السلامة في التسليم، والله در مالك بن أنس في قوله للذي سأله عن ذلك: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والسؤال عن هذا بدعة، وقد روي مثل قول مالك عن أبي حنيفة^(٤)، وجعفر الصادق^(٥)، والحسن البصري، ولم يتكلم الصحابة ولا التابعون في معنى الاستواء، بل أمسكوا عنه ولذلك قال مالك السؤال عنه بدعة"^(٦).

(١) جامع البيان، للطبري (٤٣٠/١).

(٢) تفسير السمعاني (٦٣ / ١)، ومعالم التنزيل، للبغوي (١٠١ / ١).

(٣) الأعراف: ٥٤

(٤) أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي، الكوفي، مولى بني تيم الله بن ثعلبة - يُقال: إنه من أبناء الفرس - الإمام، فقيه الملة، عالم العراق، اشتهر بالورع وصلاح العبادة والمعتقد والفقه والقياس، قال عنه ابن المبارك: أبو حنيفة أفتقه الناس، وقال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة، وقال الذهبي: الإمامة في الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام وهذا أمر لا شك فيه، وُلد عام (٨٠هـ)، في حياة صغار الصحابة، وتوفي سنة (١٥٠هـ)، وله سبعون سنة، وقبره مشهور ببغداد. انظر: سير أعلام النبلاء (٦ / ٣٩٠).

(٥) جعفر (الملقب بالإمام جعفر الصادق) بن محمد (الملقب بالإمام الباقر) بن علي (الملقب بزين العابدين) بن الحسين (الشهيد، سبط رسول الله وريحانته) بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الهاشمي القرشي، لُقّب بالصادق؛ لأنه لم يُعرف عليه كذب، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه جده من جهة أمه، فأمه: هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر التيمي، وأمها: هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، ولهذا كان يقول: ولدني أبو بكر الصديق مرتين، وكان يغضب من الرافضة ويمقتهم، ويتبرأ ممن تبرأ من أبي بكر وعمر، وكان من علماء التابعين وفضلائهم، وممن أخذ عنه العلم الإمامان أبو حنيفة ومالك وغيرهم، وُلد في المدينة عام (٨٠هـ)، وتوفي بها سنة (١٤٨هـ). وانظر سير أعلام النبلاء (٦ / ٢٥٥).

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١ / ٢٩٠).

قال الحافظ ابن كثير: "وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح... وغيرهم، من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإنَّ الله لا يشبهه شيء من خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١)... وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى"^(٢).

وقال الشوكاني: "والاستواء في اللغة: الاعتدال والاستقامة، قاله في الكشف، ويطلق على الارتفاع والعلو على الشيء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾^(٣) وقال: ﴿لِئَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾^(٤) وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية. وقد قيل: إن هذه الآية من المشكلات. وقد ذهب كثير من الأئمة إلى الإيمان بها وترك التعرض لتفسيرها، وخالفهم آخرون"^(٥).

وقال السعدي: " وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تُعدى بالحرف، فيكون معناها، الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾^(٦) وتارة تكون بمعنى (علا، وارتفع) وذلك إذا عدت بـ (على) كما في قوله تعالى: ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ﴿لِئَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾، وتارة تكون بمعنى (

(١) الشورى: ١١

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٦)، وقد نقل الخازن نحو ذلك، انظر لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (٢/ ٢٠٧).

(٣) المؤمنون: ٢٨

(٤) الزخرف: ١٣

(٥) فتح القدير، للشوكاني (١/ ٧٢).

(٦) القصص: ١٤

قصد) كما إذا عدت بـ (إلى) كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات" (١).

ومن خلال ما سبق يتبين أن معنى استوى يحتمل عدة معاني في اللغة منها التمام والقصد والإقبال والاستيلاء، ومنها العلو والارتفاع. وأن السياق له دور في تحديد المعنى الأقرب فلفظ (استوى إلى السماء) المعنى الأقرب فيه قصد، ولفظ (استوى على العرش) المعنى الأقرب علا وارتفع، ومن أنكر اثبات صفة الاستواء والعلو على ظاهره فبسبب توهم لزوم الحركة والنقلة والزوال والتحيز، وقد ذكر المفسرون المثبتون لصفة العلو والاستواء أن ذلك لا يلزم، ولا ندري كيف استوائه بل يجب التسليم والإيمان بذلك على وجه الكمال المطلق. ومع جلاله القائلين بتأويل صفة العلو والاستواء على العرش، إلا أن الباحث يرى أنّ الراجح اثبات صفة الاستواء على العرش اثباتاً يليق بجلال الله و مشيئته، ولا يعلم كنه ذلك إلا الله، ولا ينبغي الخوض في ذلك وينبغي الإيمان به كما أخبر سبحانه وتعالى في أكثر من آية، والأدلة على علو الله واستوائه على عرشه متضافرة (٢).

مثال لتفسير صفة الكلام لله سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَيَحْنُ تُسْبِحُ بِحَمْدِكَ ۖ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۗ﴾ (٣)

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزل، بشرط وجودهم وفهمهم، وهذا هو الباب كله في أوامر الله سبحانه ونواهيته ومخاطباته" (١).

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٤٨).

(٢) انظر: كتاب العرش، للذهبي (١/ ٣٠).

(٣) البقرة: ٣٠

وقال ابن عطية -رحمه الله- في موضع آخر: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾^(١) إخبار بخاصة موسى، وأنَّ الله تعالى شرفه بكلامه ثم أكد تعالى الفعل بالمصدر، وذلك مُنبئ في الأغلب عن تحقيق الفعل ووقوعه، وأنه خارج عن وجوه المجاز والاستعارة... وكلام الله للنبي موسى عليه السلام دون تكييف ولا تحديد ولا تجويز حدوث ولا حروف ولا أصوات، والذي عليه الراسخون في العلم: أن الكلام هو المعنى القائم في النفس، ويخلق الله لموسى أو جبريل إدراكًا من جهة السمع يتحصل به الكلام، وكما أنَّ الله تعالى موجود لا كالموجودات، معلوم لا كالمعلومات فكذلك كلامه لا كالكلام^(٢).

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ ﴾ وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزل بشرط وجودهم وفهمهم. وهكذا الباب كله في أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته. وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، وهو الذي ارتضاه أبو المعالي. وقد أتينا عليه في كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى^(٣). وقال القرطبي: ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ مصدر معناه التأكيد، يدل على بطلان من يقول: خلق لنفسه كلامًا في شجرة فسمعه موسى، بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم مُتَكَلِّمًا. قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا... فكذا لما قال: ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ وجب أن يكون كلامًا على الحقيقة من الكلام الذي يُعقل^(٤).

دراسة وتحليل:

(١) المحرر الوجيز (١/١١٤).

(٢) النساء: ١٦٤

(٣) المحرر الوجيز (٢/١٥٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/٢٤٩).

(٥) المصدر السابق (٤/٣٩٨).

ومما سبق يتضح أن الإمامين ابن عطية والقرطبي يثبتان صفة الكلام لله على الحقيقة، والقاعدة في ذلك أن كلام الله متقرر قديم في الأزل، والمفسران يردان على المعتزلة الذين نفوا صفة الكلام لله وجعلوها من باب المجاز، وإثبات صفة الكلام لله من حيث العموم لم يختلف فيها العلماء والمفسرون من أهل السنة^(١)، وإن اختلفوا في تفصيل ذلك هل هو الكلام القائم بالذات، أو هو بصوت وحرف، والمقام في تحقيق ذلك يطول، والباحث يرى أن الواجب إثبات صفة الكلام لله اثباتاً يليق بجلاله ومشيئته، وترك التعمق في تفاصيل لا دليل عليها سوى الجدل والمنطق الذي لا يعتمد على دليل شرعي، وهو من علم الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله، ولم نُؤمر بالتقريب عنه، وإنما أمرنا بالإيمان والتسليم للشرع، وقد جاءت أدلة كثيرة في الكتاب والسنة تثبت صفة الكلام لله، وأن القرآن كلامه سبحانه وتعالى، وأن الله كلم آدم وموسى ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام، والقاعدة العامة في إثبات صفة الكلام وغيرها من صفات الله، ما قرره السلف وعامة أهل السنة: هي إثبات أسماء الله وصفاته مع نفي مماثلة المخلوقين، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، فالمعطل يعبدُ عَدَمًا، والمُمثل يعبدُ صَنَمًا، والمعطل أعمى، والممثل أعشى، وكما أن ذاته ليست كالذوات، فصفاته ليست كالصفات، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال، منزه

(١) انظر: جامع البيان، للطبري (٣٧٨/٥)، وتفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة، نزار مصطفى الباز، السعودية، ط: الثالثة، عام ١٤١٩هـ، (٤٨٣/٢)، وبحر العلوم، للسمرقندي (١٦٦/١)، والوسيط، للواحدي (١٤٠ / ٢)، وتفسير السمعاني، (٢٥٥/١)، ومعالم التنزيل، للبيهقي (٧٢٣ / ١)، ومفاتيح الغيب، للرازي (٣٥٣ / ١٤)، وزاد المسير، لابن الجوزي (٤٩٩ / ١)، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢١٧ / ١)، وتفسير ابن كثير (٦٧١/١)، الحيدة والاعتدار في الرد على من قال بخلق القرآن، لمؤلفه: أبي الحسن عبد العزيز بن يحيى بن مسلم بن ميمون الكنانى المكي (ت: ٢٤٠هـ)، المحقق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، ط: الثانية، عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، (ص: ١٧)، رسالة في القرآن وكلام الله، لمؤلفها: ابن قدامة المقدسي، المحقق: يوسف بن محمد السعيد، الناشر: دار أطلس الخضراء، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م (ص: ٢٩)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ١٣٨)، اضطراب الناس في مسألة الكلام مع بيان الحق الذي تدل عليه الأدلة وتشهد به الفطر السليمة، لمؤلفه: عبد الكريم مراد، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة: السادسة عشرة، العدد الثاني والستون - ربيع الآخر - جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، (ص: ١٠٦).

عن العيب والنقص، لا تتركه الظنون، يفعل ما يشاء وقت ما يشاء كيف ما يشاء أحاط بكل شيء ولا يحيطون به علمًا، ويشهد لهذا ظاهر القرآن والسنة وهدي الصحابة والأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة الهدى^(١).

(١) انظر: المصادر الآتية: الفقه الأكبر لأبي حنيفة (ص: ١٥٩)، وموطأ الإمام مالك (ت: ١٧٩هـ)، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد آل نهيان للأعمال الخيرية، أبو ظبي، الإمارات، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، (١/ ٢٥٢)، الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، المحقق: د فوقية حسين محمود، الناشر: دار الأنصار، القاهرة، ط: الأولى، عام ١٣٩٧هـ، (ص: ٢٢)، وشرح الطحاوية، لابن أبي العز (ص: ٢٨، ٥٣)، العرش للذهبي (١/ ٣٠)، وقطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، لمؤلفه: أبي الطيب محمد صديق خان (ت: ١٣٠٧هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف، السعودية، ط: الأولى، عام ١٤٢١هـ، (ص: ٣٣، ٥٢)، واعتقاد الأئمة الأربعة، لمؤلفه: محمد بن عبد الرحمن الخميس، الناشر: دار العاصمة، السعودية، ط: الأولى، عام ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، (ص: ٧).

المطلب الثالث

المقارنة في الإيمان

اتفق أهل العلم واللغة أنّ الإيمان معناه: التصديق^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾^(٢)، وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث جبريل - عليه السلام - : (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)^(٣).

واختلف الناس في تعريف الإيمان شرعاً، وضلت في ذلك طوائف، وأمّا أهل السنة فاتفقوا على أنّ الإيمان التصديق بما جاء في الشرع، وعلى أهمية القول والعمل بمقتضى الإيمان، ثم اختلفوا هل القول والعمل من الإيمان أو زائد عليه، وهل الإيمان يزيد وينقص؟!؟

وقال السّفاريني^(٤): " اعلم - وفقك الله تعالى - أن الناس اختلفوا في حقيقة الإيمان لغةً واصطلاحاً، والمشهور أن الإيمان لغة التصديق، واصطلاحاً تصديق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به عن ربه وهذا القدر متفق عليه، ثم وقع الاختلاف، هل يشترط مع ذلك مزيد أمر من جهة إبداء هذا التصديق باللسان المعبر عما في القلب - إذ التصديق من أفعال القلوب - أو من جهة العمل بما صدّق به من ذلك، كفعل المأمورات

(١) تهذيب اللغة، لمؤلفه: محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي (ت: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، عام ٢٠٠١م، (١٥ / ٣٦٨). ولسان العرب، لابن منظور (١٣ / ٢٣).

(٢) يوسف: ١٧

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (١ / ٣٧)، رقم الحديث (١).

(٤) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، شمس الدين، أبو العون: عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق، وُلد في سفارين (من قرى نابلس)، عام (١١١٤هـ)، ورحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها. وعاد إلى نابلس فدرّس وأفتى، وتوفي فيها سنة (١١٨٨هـ). الأعلام للزركلي (٦ / ١٤).

وترك المحظورات، وهذا هو الذي اشتهر من مذهب السلف" (١). فمذهب جمهور أهل السنة والمشهور عن السلف أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، يزيد وينقص. وزهد الإمام أبو حنيفة (٢) -رحمه الله- ومُعظم الأشاعرة (٣) إلى أنّ الإيمان شيء واحد لا يمكن أن يزيد ولا ينقص؛ لأنه لا يقبل الشك أو التكذيب، فالإيمان عندهم اعتقاد القلب، ولا بد أن يصدق اللسان، لإجراء أحكام الإسلام على صاحبه، والزيادة والنقصان إنما هي في الأعمال، وهذا هو المختار عند المفسرين ابن عطية والقرطبي -رحمهما الله-، وسيأتي بيان ذلك ومناقشته في هذا المطالب.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في تفسير الإيمان:

اهتم المفسران بقضايا الإيمان وتعريفه، وأدلته، والمفسران يذكran الخلاف ويرجحان ويردان على الفرق المخالفة، ويخلصُ المفسران إلى أن الإيمان معناه التصديق وأنه لا يزيد ولا ينقص وأن الآيات في ذلك على وجه المجاز، والمراد بزيادته زيادة السمع والطاعة وأعمال الإيمان، و المفسران يُشددان على أهمية الأعمال الصالحة واجتناب المعاصي وأن الناس يتفاضلون بسبب ذلك، ويردان على من يرى أن الإيمان بالقلب فقط، أو إقرار باللسان فقط، والمفسران يجمعان بين أقوال المفسرين وخلافهم الذي هو من باب التنوع والتفسير بالمثل كما في تفسير الغيب ونحوه من آيات الإيمان،

(١) لوامع الأنوار البهية، فصل في الكلام على الإيمان واختلاف الناس فيه وتحقيق مذهب السلف في ذلك، (١/٤٠٣).

(٢) قال أبو حنيفة: "والإيمان هو الإقرار والتصديق وإيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص من جهة المؤمن بها ويزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق والمؤمنون مستوون في الإيمان والتوحيد، متفاضلون في الأعمال". الفقه الأكبر، لأبي حنيفة (ص: ٥٥).

(٣) جمهور الأشاعرة على أن الإيمان هو التصديق القلبي، ومنهم من يقول التصديق القلبي وإقرار اللسان. وانظر كتاب الإيمان بين السلف والمتكلمين، لأحمد عطية الغامدي، (حقيقة الإيمان عند الأشاعرة)، لمؤلفه: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط الأولى، عام ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م، (ص: ١٥١).

ويرشدان أن ذلك تفسير بالمثل، والإيمان يشمل ذلك كله، والمفسران يهتمان بالحجج النقلية والعقلية في ترسيخ الإيمان^(١).

وجوه الافتراق بين التفسيرين في تفسير الإيمان:

المفسران كما سبق في وجوه الاتفاق يخلصان في تعريف الإيمان إلى نتيجة واحدة، وهي أن الإيمان معناه: التصديق، وما زاد فمن باب التوسع، وأن لفظ زيادة الإيمان من باب المجاز، وذكرنا لذلك عدة تأويلات^(٢)، إلا أن القرطبي يفارق ابن عطية في توسعه، فقد ذكر التعريف الشرعي للإيمان وذكر أدلة شرعية كثيرة فيها أن الأعمال من الإيمان وتسمى إيماناً، والباحث يلمس منه الميل إلى ما ذهب إليه جمهور أهل السنة بأن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، لولا تصريحه في بعض المواضع أن الإيمان هو التصديق وما زاد فمن باب التوسع.

أمثلة تطبيقية:

مثال لتفسيرهم معنى الإيمان:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُمِئُونَ الصَّلَاةَ وَنَادَوْهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

(١) انظر: المحرر الوجيز (٧١/١، ٧٧، ٦٠٦)، والجامع لأحكام القرآن (١/١٦٣، ٢٢٩، ٤/٦٢٣).
(٢) وخلاصة الأقوال التي ذكرها المفسران (ابن عطية والقرطبي) في تأويل زيادة الإيمان ونقصانه: ١- الزيادة والنقصان في الأعمال ٢- الزيادة بدوام الإيمان والنقص بتوالي الغفلات على قلب المؤمن ٣- زيادة الإيمان ونقصه إنما هو من طريق الأدلة ٤- الزيادة في الإيمان إنما هي بنزول الفرائض والأخبار في مدة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي المعرفة بها بعد الجهل. انظر: المحرر الوجيز (١/٦٠٦)، والجامع لأحكام القرآن (٤/٦٢٣).

(٣) البقرة: ٣ - ٤

"﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: يصدقون... وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قالت طائفة: معناه يصدقون إذا غابوا وخلصوا، لا كالمناققين الذين يؤمنون إذا حضروا ويكفرون إذا غابوا. وقال آخرون: معناه يصدقون بما غاب عنهم مما أخبرت به الشرائع. واختلفت عبارة المفسرين في تمثيل ذلك، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية هو الله عز وجل. وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الحشر والصراف والميزان والجنة والنار. قال القاضي أبو محمد: وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها... وقوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ﴾ يعني القرآن، ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني الكتب السالفة... ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ قيل: معناه: بالدار الآخرة، وقيل: بالنشأة الآخرة. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: يعلمون علماً متمكناً في نفوسهم. واليقين أعلى درجات العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله شك بوجه..^(١)

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون. والإيمان في اللغة: التصديق... وروى حجاج بن حجاج الأحول^(٢) - ويلقب بزق^(٣) العسل - قال: سمعت قتادة يقول: يا بن آدم، إن كنت لا تريد أن تأتي الخير إلا عن نشاط فإن نفسك مائلة إلى السامة والفتنة والملة^(٤)، ولكن المؤمن هو المتحامل^(٥)، والمؤمن هو المتقي^(٦)، والمؤمن هو المتشدد^(١)، وإن

(١) المحرر الوجيز (٧١/١).

(٢) حجاج بن حجاج الباهلي البصري الأحول، وهو حجة، وأحد حفاظ أصحاب قتادة، مات قبل الأربعين ومائة للهجرة. سير أعلام النبلاء، للذهبي (٧٦ / ٧).

(٣) زق: الرق؛ وعاء للشراب، وهو الجلد يجز شعره ولا يُنْتَفَ نْتَفَ الأديم. العين، للخليل الفراهيدي (١٣ / ٥).

(٤) السامة والفتنة والملة: معاني متقاربة، من السُم والملل والانكسار والضعف. انظر: مختار الصحاح، لزين الدين الرازي (ص: ١٤٠، ٢٩٨، ٢٣٣).

(٥) وتحاملت الشيء: تكلفته على مشقة. لسان العرب، لابن منظور (١١ / ١٧٦).

(٦) وفي نسخة دار الكتب المصرية (المتقوي). الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية (١ / ١٦٣).

المؤمنين هم العجاجون^(٢) إلى الله الليل والنهار، والله ما يزال المؤمن يقول: ربنا ربنا في السر والعلانية حتى استجاب لهم في السر والعلانية. الثانية: قوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ الغيب في كلام العرب كل ما غاب عنك... الثالثة: واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية: الله سبحانه. وضعفه ابن العربي. وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدي إليه العقول من أسرار الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراف والميزان والجنة والنار. قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها. قلت: وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم: فأخبرني عن الإيمان. قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن

(١) التشدد: يقال: تشدد للأمر: أي اشتد له. ورجل متشدد: أي بخيل. ويأتي التشدد بمعنى المغالبة. انظر: شمس العلوم، لنشوان الحميري (٦/ ٣٣٥٣)، وتاج العروس، للزبيدي (٨/ ٢٤٢). ملاحظة/ قلت: والذي يظهر أن المصنف أورد بقوله: (والمؤمن هو المتشدد) القوة والاجتهاد والصدق، قال الله عز وجل: ﴿يَجِيئُ خُذًا لِكِتَابٍ يَقُولُ﴾ مريم: ١٢، وقال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ محمد: ٢١ وأما التشدد الذي بمعنى المغالبة والغلو في الدين فهذا مذموم. كما أخبر الله ﴿لَا تَعْلَوْا فِي دِينِكُمْ﴾ المائدة: ٧٧، وفي حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الدين يسر، ولن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدوةِ وَالرُّوحَةِ وشيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) رواه البخاري في باب الدين يسر (١/ ١٦)، وفي الحديث الآخر: (إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، وَلَا تُبْعِضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ، فَإِنَّ الْمُنْتَبِتَ لَا سَفَرًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى، فَأَعْمَلْ عَمَلِ امْرِئٍ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ أَبَدًا، وَاحْذَرْ حَذْرًا مَنْ يَخْشَى أَنْ يَمُوتَ غَدًا) السنن الكبرى للبيهقي، باب القصد في العبادة، والجهد في المداومة (٣/ ٢٨). و الْمُنْتَبِتُ: هو الذي انقطع في سفره وعطبت راحلته، بسبب حمله الشديد عليها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لمؤلفه: (ابن الأثير) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، و محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، (١/ ٩٢).

(٢) العَجُّ: رفع الصوت، ومنه رفع الصوت بالتلبية، والعجاجون: الملازمون الدعاء والاستغاثة بالله. وانظر كتاب العين للخليل الفراهيدي، باب العين والجيم (١/ ٦٧). و لسان العرب لابن منظور (٢/ ٣١٨)، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ١٨٤).

بالقدر خيره وشره. قال: صدقت^(١) وذكر الحديث. وقال عبد الله بن مسعود^(٢): ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قلت: وفي التنزيل ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾^(٣) وقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾^(٤). فهو سبحانه غائب عن الأبصار، غير مرئي في هذه الدار، غير غائب بالنظر والاستدلال، فهم يؤمنون أن لهم ربًّا قادرًا يُجازي على الأعمال، فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس، لعلمهم باطلاعه عليهم، وعلى هذا تتفق الآي ولا تتعارض، والحمد لله. وقيل: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي بضمايرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين، وهذا قول حسن... قوله تعالى: ﴿يَا أَنْزِلْ إِلَيْنَا﴾ يعني القرآن ﴿وَمَا أَنْزِلْ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني الكتب السالفة، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَنْزِيلُ مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾^(٥) الآية. ويقال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قالت اليهود والنصارى: نحن آمننا بالغيب، فلما قال: ﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾ قالوا: نحن نقيم الصلاة، فلما قال: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُقْمُونَ﴾ قالوا: نحن ننفق ونتصدق، فلما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ نفروا من ذلك... وهنا مسألة: إن قال قائل: كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافي أحكامها؟ قيل له فيه جوابان: أحدهما: أن الإيمان

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (١/ ٣٧)، رقم الحديث (١).

(٢) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، من مضر، أبو عبد الرحمن، وأمه أم عبد بنت عبد ود من هذيل أيضًا، كان من أوائل الصحابة إسلامًا، ومن أجَلِّهم وأكثرهم علمًا وأشبههم هديًا وسمتا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مُقرَّبًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخدمه ويستتره ويحمل سواكه ونعله حتى لُقِّب بصاحب النعلين والوساد والسواك، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة، وكان عبد الله بن مسعود قصيرًا دقيق الساقين فضحكوا من دقة ساقيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لرجل عبد الله أنقل في الميزان يوم القيامة من أحد. انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (٣/ ٣٨١).

(٣) الأعراف: ٧

(٤) الأنبياء: ٤٩

(٥) البقرة: ٩١

بأن جميعها نزل من عند الله، وهو قول من أسقط التعبد بما تقدم من الشرائع. الثاني: أن الإيمان بما لم ينسخ منها، وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدمة، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي وبالبعث والنشر هم عالمون. واليقين: العلم دون الشك... والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو، على ما يأتي^(١).

مثال آخر: تفسيرهم لزيادة الإيمان:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخَشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٢).

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"وقوله تعالى: ﴿فزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، أي ثبوتًا واستعدادًا، فزيادة الإيمان في هذا هي في الأعمال، وأطلق العلماء عبارة: أن الإيمان يزيد وينقص، والعقيدة في هذا أن نفس الإيمان الذي هو تصديق واحد بشيء ما، إنما هو معنى فرد لا تدخله زيادة إذا حصل، ولا يبقى منه شيء إذا زال، فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقص في متعلقاته دون ذاته... فالقول فيه إن الإيمان يزيد وينقص قول مجازي ولا يتصور النقص فيه على هذا الحد..."^(٣).

وقال الإمام القرطبي:

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٦٣).

(٢) آل عمران: ١٧٣.

(٣) المحرر الوجيز (١/٦٠٦).

" قوله تعالى: ﴿فَرَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، أي فزادهم قول الناس إيمانًا، أي تصديقًا و يقينًا في دينهم، وإقامةً على نصرتهم، وقوةً وجراءةً واستعدادًا. فزيادة الإيمان على هذا هي في الأعمال. وقد اختلف العلماء في زيادة الإيمان ونقصانه على أقوال. والعقيدة في هذا على أن نفس الإيمان الذي هو تاج واحد، وتصديق واحد بشيء ما، إنما هو معنى فرد، لا يدخل معه زيادة إذا حصل، ولا يبقى منه شيء إذا زال، فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقصان في متعلقاته دون ذاته... فالقول فيه إن الإيمان يزيد قول مجازي، ولا يتصور فيه النقص على هذا الحد... " (١).

مثال آخر: يوضح تعريف الإيمان عند المفسرين وأن الأعمال شيء زائد عليه:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (٢).

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"... وفي قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ رد على من يقول إن لفظة الإيمان بمجردا تقتضي الطاعات؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها" (٣).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"... قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ رد على من يقول: إن الإيمان بمجرده يقتضي الطاعات؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها، فالجنة تُنال بالإيمان والعمل الصالح. وقيل: الجنة تُنال بالإيمان، والدرجات تستحق بالأعمال الصالحات. والله أعلم" (٤).

مثال آخر: وفيه أن الإيمان تصديق وإقرار والرد على من خالف ذلك:

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/٦٢٣).

(٢) البقرة: ٢٥

(٣) المحرر الوجيز (١/٩٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/٢٢٩).

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"... ثم نفى تعالى الإيمان عن المنافقين وفي ذلك رد على الكرامية في قولهم إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب"^(٢).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"... ففي هذا رد على الكرامية حيث قالوا: إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَأَتَّبَعَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾^(٣) ولم يقل: بما قالوا وأضمروا، وبقوله عليه السلام: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم)^(٤) وهذا منهم قصور وجمود، وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان) أخرجه ابن ماجة^(٥) في سننه^(٦)

(١) البقرة: ٨

(٢) المحرر الوجيز (٧٧/١).

(٣) المائدة: ٨٥

(٤) أصل الحديث في الصحيحين، وله ألفاظ متعددة وفي معظمها لزوم العمل كإقامة الصلاة، انظر صحيح مسلم، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله مسلم (١ / ٥١)، رقم الحديث (٣٥).

(٥) ابن ماجة الحافظ الكبير المفسر أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجه الربيعي صاحب السنن والتفسير والتاريخ ومحدث تلك الديار، وُلِدَ عام (٢٠٩هـ)، وكانت وفاته لثمان بقين من رمضان سنة (٢٧٣هـ). تذكرة الحفاظ، لمؤلفه: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قانماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط: الأولى، عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (٢ / ١٥٥).

(٦) قال المحقق محمد فؤاد عبد الباقي: وإسناد هذا الحديث ضعيف لاتفاقهم على ضعف أبي الصلت الراوي. انظر: سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، باب في الإيمان (١ / ٢٥)، رقم الحديث (٦٥).

فما ذهب إليه محمد بن كزّام السجستاني^(١) وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق، ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد"^(٢).

دراسة وتحليل:

من خلال الأمثلة السابقة وغيرها يتبين أن ابن عطية والقرطبي - رحمهما الله - يُفسران الإيمان بأنه التصديق والإقرار، وأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص إمّا أن يبقى كله أو يزول كله، وأن الأعمال لا تدخل في تعريف الإيمان إلا من باب التوسع، وهي شيء زائد عليه ومنبثقة منه والناس متفاوتون فيها. وهو مذهب الأشاعرة^(٣) ومن وافقهم، وهذا القول قريب من قول أبي حنيفة - رحمه الله - في تعريفه للإيمان بأنه الإقرار والتصديق، وأن الأعمال لا تدخل في مُسمى الإيمان^(٤)، وأمّا جمهور أهل السنة ومذهب السلف فقالوا: الإيمان اعتقاد وقول وعمل يزيد وينقص^(٥). ويرى الباحث أن الراجح هو مذهب

(١) محمد بن كزّام السجستاني، المبتدع، شيخ الكرامية، كان زاهداً، عابداً، قليل العلم، أخذ من المذاهب أرداها، ومن الأحاديث أواهاها، وكان يقول: الإيمان هو نطق اللسان بالتوحيد، مجرد عن عقد قلب، وعمل الجوارح، وقال بعض أتباعه: بأن الباري جسم لا كالأجسام، وأن النبي تجوز منه الكبائر سوى الكذب. مكث في سجن نيسابور ثماني سنين، ومات بأرض بيت المقدس، سنة (٢٥٥هـ). سير أعلام النبلاء (١١ / ٥٢٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٩٠).

(٣) جمهور الأشاعرة على أن الإيمان هو التصديق القلبي، ومنهم من يقول التصديق القلبي وإقرار اللسان. انظر: كتاب الإيمان بين السلف والمتكلمين، لأحمد عطية الغامدي، (حقيقة الإيمان عند الأشاعرة)، لمؤلفه: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط الأولى، عام ١٤٣٢هـ / ٢٠٠٢م، (ص: ١٥١).

(٤) ذكر أبو حنيفة تعريف الإيمان فقال: "والإيمان هو الإقرار والتصديق وإيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص من جهة المؤمن بها ويزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق والمؤمنون مستوون في الإيمان والتوحيد متفاضلون في الأعمال" الفقه الأكبر (ص: ٥٥).

(٥) انظر: كتاب اعتقاد أئمة الحديث، لمؤلفه: (أبي بكر الجرجاني) أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني (ت: ٣٧١هـ)، المحقق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، الناشر: دار العاصمة، الرياض، ط: الأولى، عام ١٤١٢هـ، (ص: ٦٣)، وكتاب شعب الإيمان، لمؤلفه: (أبي بكر البيهقي) أحمد بن الحسين بن علي الخُسْرُوْجْردي الخراساني (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، إشراف: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند، الناشر: مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط: الأولى، عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، باب الدليل على أن الطاعات كلها إيمان (١ / ١٠٦)، والإيمان،

جمهور أهل السنة، في أنّ الإيمان الشرعي هو التصديق ويدخل فيه القول والعمل، ويزيد وينقص، والأدلة على ذلك كثيرة وصريحة والعقل والواقع يؤيد ذلك، فلا يمكن أن يكون إيمان الملائكة والأنبياء والصالحين كإيمان العصاة والفاسقين وجهلة المسلمين! بل العقل يقول أن إيمانهم متفاوت وكل بحسبه، ومن قال: متفاوتون بالأعمال وهم في الإيمان سواء، فغير صحيح؛ لأن الأعمال منبثقة من الإيمان وقوته، و تفاوت الأعمال بسبب تفاوت الإيمان، ومعروف لدى كل شخص أن إيمانه ليس على حالة واحدة بل يمر بمراحل ويتفاوت من وقت لآخر، والأدلة الشرعية كثيرة جدًا، قال الإمام القاسم بن سلام^(١) -رحمه الله-: "اعلم -رحمك الله- أن أهل العلم والعناية بالدين افترقوا في هذا الأمر فرقتين:

فقال إحداهما: الإيمان بالإخلاص لله بالقلوب، وشهادة الألسنة وعمل الجوارح. وقالت الفرقة الأخرى بل الإيمان بالقلوب والألسنة، فأما الأعمال فإنما هي تقوى وبر، وليست من الإيمان. وإنا نظرنا في اختلاف الطائفتين، فوجدنا الكتاب والسنة يصدقان الطائفة التي جعلت الإيمان بالنية والقول والعمل جميعا وينفيان ما قالت الأخرى"^(٢).

وقد ناقش هذه المسألة الإمام النووي^(٣)، نقاشًا كافيًا، وتبعه في ذلك ابن حجر العسقلاني^(١)، قال الإمام النووي: "وأن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا، قال وهذا

لابن تيمية، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، ط: الخامسة، عام ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، (ص: ١٣٧).

(١) الإمام، الحافظ، المجتهد، ذو الفنون، أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله، كان أبوه سلام مملوكا روميا لرجل هروزي، وقد قيل عنه: ثقة، حافظ، جبل، صاحب سنة، صنف التصانيف النافعة التي سارت بها الركبان، وُلد عام (١٥٧هـ) ومات سنة (٢٢٤هـ). سير أعلام النبلاء (١٠ / ٤٩٠).

(٢) الأيمان "ومعالمه، وسننه، واستكمالها، ودرجاته" لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، المحقق: الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط: الأولى، عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، (ص: ١٠).

(٣) محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، الإمام، العلامة، المحقق، المحدث، الفقيه، الأستاذ المشهور، من العلماء الغراب الزهاد الامرين بالمعروف، له مصنفات كثيرة جليلة من أبرزها المنهاج شرح صحيح مسلم ابن الحجاج، مُولده ووفاته في نوى بسورية، وإليها نسبته، وُلد عام (٦٣١هـ)،

تحقيق وافر بالتوفيق بين متفرقات نصوص الكتاب والسنة الواردة في الإيمان والإسلام التي طالما غلط فيها الخائضون وما حققناه من ذلك موافق لجماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم.. فإذا تقرر ما ذكرناه من مذاهب السلف وأئمة الخلف فهي متظاهرة متطابقة على كون الإيمان يزيد وينقص وهذا مذهب السلف والمحدثين وجماعة من المتكلمين، وأنكر أكثر المتكلمين زيادته ونقصانه وقالوا: متى قبل الزيادة كان شكاً وكفراً، قال المحققون من أصحابنا المتكلمين: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهي الأعمال ونقصانها، قالوا: وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف وبين أصل وضعه في اللغة وما عليه المتكلمون وهذا الذي قاله هؤلاء وإن كان ظاهراً حسناً، فالأظهر والله أعلم: أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعترتهم الشبه ولا يتزلزل إيمانهم بعارض...^(٢).

وهذا ما رجحه كثير من المفسرين، قال ابن جرير الطبري - رحمه الله - عند تفسيره

لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٣) ومعنى الإيمان عند

وتوفي سنة (٦٧٦هـ). انظر: كتاب طبقات الشافعية الكبرى، لمؤلفه: تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي(ت: ٧٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلوة، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الثانية، عام ١٤١٣هـ، (٣٩٥/٨)، والأعلام، للزركلي، (١٤٩/٨).

(١) أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد، شهاب الدين، أبو الفضل، العسقلاني، الشافعي، المعروف بابن حجر وهو لقب لبعض آبائه، الحافظ الكبير الشهير، أحد أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده ووفاته بالقاهرة، له عدة رحلات، وتصانيف كثيرة جليلة من أبرزها فتح الباري شرح صحيح البخاري، وُلد عام (٧٧٣هـ) وتوفي سنة (٨٥٢هـ). انظر: كتاب البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمؤلفه: محمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، (٨١/١)، والأعلام، للزركلي(١٧٨/١).

(٢) شرح النووي على مسلم، المسمى (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، لمؤلفه: النووي، ط: الثانية، عام ١٣٩٢م، (١/١٤٨)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، لمؤلفه: ابن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، عام ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات ابن باز، (١/٤٦).

(٣) البقرة: ٣

العرب: التصديق، فيُدعى المُصَدِّقُ بالشيء قولاً مؤمناً به، ويُدعى المُصَدِّقُ قوله بفعله، مؤمناً... وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل. والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. وإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بتأويل الآية، وأشبه بصفة القوم: أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً إذ كان جل ثناؤه لم يحصرهم من معنى الإيمان على معنى دون معنى، بل أجمل وصفهم به، من غير خصوص شيء من معانيه...»^(١).

وقال الخازن - رحمه الله - في تفسيره: " والإيمان في لسان الشرع عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وإذا فُسر بهذا فإنه يزيد وينقص وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم، وفائدة هذا الخلاف تظهر في مسألة وهي أن المصدق بقلبه إذا لم يجمع إلى تصديقه العمل بموجب الإيمان من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك من أركان الدين هل يُسمى مؤمناً أم لا ؟ فيه خلاف، والمُختار عند أهل السنة أنه لا يُسمى مؤمناً لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)^(٢). فنفي عنه اسم الإيمان أو كمال الإيمان وأنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه، وقالوا: متى قبل الزيادة والنقصان كان ذلك شكاً وكفرًا. وقال المحققون من متكلمي أهل السنة: إن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصانها وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر نصوص الكتاب والسنة التي جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه وبين أصله من اللغة، وقال بعض المحققين: إن نفس التصديق قد يزيد وينقص بكثرة النظر في الأدلة والبراهين وقلة إمعان النظر في ذلك ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى وأثبت من

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٣٥).

(٢) صحيح البخاري، باب إثم الزناة (٨/ ١٦٤) رقم الحديث (٦٨٠٩)، وصحيح مسلم، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله (١/ ٧٦)، رقم الحديث (٦٨١٠).

إيمان غيرهم؛ لأنهم لا تعترتهم شبهة في إيمانهم ولا تنزل، وأما غيرهم من آحاد الناس فليس كذلك، إذ لا يشك عاقل أن نفس تصديق أبو بكر رضي الله عنه لا يساويه تصديق غيره من آحاد الأمة، وقيل: إنما سُمي بالإقرار والعمل إيماناً لوجه المناسبة؛ لأنه من شرائعه، والدليل على أن الأعمال من الإيمان ما روي عن أبي هريرة^(١) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان) أخرجاه في الصحيحين^(٢) ...^(٣).

وقال ابن كثير في تفسيره: " وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤﴾ ... وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري^(٥).

وقد رجح الإمام الشوكاني ذلك في تفسيره^(٦)، بعد نقله لكلام الطبري وابن كثير. رحم الله علمائنا جميعاً وأجزل لهم المثوبة ونفعنا بعلومهم في الدارين. آمين.

(١) أبو هريرة الدوسي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم حديثاً عنه، وقد اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً، فقيل كان اسمه عبد شمس وقيل غيره، فلما أسلم سماه رسول الله: عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وقيل غير ذلك، وكناه بأبي هريرة، لهرة كانت معه يأخذها في كفه ويلعبها، توفي سنة (٥٧هـ)، وقيل: (٥٨هـ)، وقيل: (٥٩هـ) وهو ابن ثمان وسبعين سنة تقريباً. أسد الغابة، لابن الأثير (٦/٣١٣).

(٢) صحيح البخاري باب أمور الإيمان (١١/١) رقم الحديث (٩)، وصحيح مسلم واللفظ له، باب شعب الإيمان (١/٦٣)، رقم الحديث (٥٧).

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل، للهازم (١/٢٩).

(٤) التوبة: ١٢٤.

(٥) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٩).

(٦) فتح القدير، للشوكاني (١/٣٥).

المطلب الرابع

المقارنة في الوعد و الوعيد

الْوَعْدُ: يستعمل في الخير والشر، فيقال وعدته خيراً ووعدته شراً، ويُقال في الخير الوَعْدُ والْعِدَّةُ، وفي الشر الإيعادُ والْوَعِيدُ، والوعيد لا يكون إلا في الشر، وإخلاف الوعد عيب ونقص، وإخلاف الوعيد مع القدرة على انفاذه مدح وفضل؛ لأنه عفو وكرم^(١).

ونصوص الوعد هي التي ترغب في طاعة الله وفضله بذكر الثواب والبشرى بالمغفرة أو الجنة ونحو ذلك، ونصوص الوعيد هي التي فيها الترهيب مما فيه سخط الله بذكر العقوبة بالنار أو اللعن ونحو ذلك من التهديد والوعيد^(٢).

وقد اختلف الناس في تفسير نصوص الوعد والوعيد، فمنهم من غلب الوعد، وجعله حاكماً على الوعيد، حتى قال لا يضر مع الإيمان معصية، ومنهم من غلب الوعيد وكفر أهل المعاصي من أهل القبلة وحكم عليهم بالخلود في النار، وسلك أهل السنة مسلكاً حسناً وسطاً في الجمع بين الوعد والوعيد، وجمعوا بين الأدلة جميعاً وردوا المتشابهة إلى المحكم، وسيأتي بيان ذلك كله في هذا المطلب.

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري (٢/ ٥٥١). مختار الصحاح، للرازي (ص: ٣٤٢). مجمل اللغة

لابن فارس (ص: ٩٣١). تاج العروس، للزبيدي (٩/ ٣١١).

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، لمؤلفه: أبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)،

الناشر: دار الكتبي، ط: الأولى، عام ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، (٣/ ٢٧٦).

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في تفسير آيات الوعد والوعيد:

لقد اتفق المفسران في موافقة عقيدة أهل السنة في الوعد والوعيد، وبيننا ذلك بياناً واضحاً يزيل اللبس فجمعاً بين الأدلة، وأنكرا على المبتدعة، ولخصا المسألة بكلام بديع، والمفسران عند نصوص الوعيد التي يستدل بها الوعيدية ينبهان على ذلك ويردان عليهم، كما يردان على المُرَجَّة^(١) الذين غلبوا نصوص الوعد، والمفسران ذكرا الإسلام والإيمان والكفر والنفاق، وأنَّ من أظهر الإسلام وأقرَّ بالإيمان فهو المؤمن، ولو حصلت منه الكبائر، وهو في الآخرة تحت مشيئة الله، وفي الدنيا له حكم الإسلام. ويتوسع المفسران في بعض المواطن كحكم الزنديق، وترك النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين دون قتلهم مع علمه بهم^(٢).

وجوه الافتراق:

لا يوجد فرق حقيقي بين التفسيرين في تفسير آيات الوعد، إلا أن الباحث يرى أن ابن عطية كان تلخيصه للخلاف في آيات الوعد والوعيد وترجيحه لمذهب أهل السنة بكلام بديع وجيز أبلغ من تلخيص القرطبي وتوضيحه. والقرطبي يتميز بتوسعه واستشهاده بالأحاديث النبوية المتعلقة بالموضوع.

(١) فرقة من الفرقة المنتسبة إلى الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٩٣)، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ٢٠٦)

(٢) انظر: المحرر الوجيز (١/ ٨٢)، والجامع لأحكام القرطبي (١/ ١٩٤).

أمثلة تطبيقية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١)

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"والذي يعتقد أهل السنة أن ذلك نافذ على بعض العصاة، لئلا يقع الخبر بخلاف خبره، ساقط بالمشيئة عن بعضهم، وتلخيص الكلام في المسألة: أن الوعد في الخير، والوعيد في الشر، هذا عرفهما إذا أطلقا، وقد يستعمل الوعد في الشر مقيدًا به، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢) فقالت المعتزلة: آيات الوعد كلها في التائبين والطائعين، وآيات الوعيد في المشركين والعصاة بالكبائر، وقال بعضهم: وبالصغائر، وقالت المرجئة: آيات الوعد كلها فيمن اتصف بالإيمان الذي هو التصديق، كان من كان من عاصي أو طائع، وقلنا أهل السنة والجماعة: آيات الوعد في المؤمنين الطائعين ومن حازته المشيئة من العصاة، وآيات الوعيد في المشركين ومن حازه الإنفاذ من العصاة، والآية الحاكمة بما قلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) فإن قالت المعتزلة لمن يشاء يعني التائبين، رد عليهم بأن الفائدة في التفضيل كانت تنفسد، إذ الشرك أيضا يغفر للتائب، وهذا قاطع بحكم قوله لمن يشاء بأن تم مغفورا له وغير مغفور، واستقام المذهب السني^(٤).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

(١) النساء: ١٠

(٢) الحج: ٧٢

(٣) النساء: ٤٨

(٤) المحرر الوجيز (١٦/٢).

" الثالثة: وهذه آية من آيات الوعيد، ولا حجة فيها لمن يُكفّر بالذنوب. والذي يعتقد أنه السنة أن ذلك نافذ على بعض العصاة فيصلى ثم يحترق ويموت، بخلاف أهل النار لا يموتون ولا يحيون، فكأن هذا جمع بين الكتاب والسنة، لئلا يقع الخبر فيهما على خلاف مُخبره، ساقط بالمشيئة عن بعضهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١). وهكذا القول في كل ما يرد عليك من هذا المعنى. روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا قحماً، أذن بالشفاعة، فجاء بهم صُبائر^(٢) صُبائر، فَبُثُوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل. فقال: رجل من القوم، كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان بالبادية^(٣) (٣) «(٤).

مثال آخر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(٥).

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

(١) النساء: ٤٨

(٢) الصُبائر: هم الجماعات في تفرقة، واجدتها صِبارة، بفتح الضاد وكسرها والكسر أشهر. وأما الجمع فيكون بالفتح.

انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، للنووي (٣/ ٣٨)، والنهائية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ٧١).

(٣) صحيح مسلم، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (١/ ١٧٢)، رقم الحديث (٣٠٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٥٣).

(٥) النساء: ٤٨

" وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ الآية، هذه مسألة الوعد والوعيد، وتلخيص الكلام فيها أن يُقال: الناس أربعة أصناف، كافر مات على كفره، فهذا مُخَلَّدٌ في النار بإجماع، ومؤمن محسن لم يذنب قط ومات على ذلك، فهذا في الجنة محتوم عليه حسب الخبر من الله تعالى بإجماع، وتائب مات على توبته فهو عند أهل السنة وجمهور فقهاء الأمة لاحق بالمؤمن المحسن إلا أن قانون المتكلمين أنه في المشيئة، ومذنب مات قبل توبته، فهذا موضع الخلاف، فقالت المرجئة: هو في الجنة بإيمانه ولا تضره سيئاته، وبنوا هذه المقالة على أن جعلوا آيات الوعيد كلها مخصصة في الكفار، وآيات الوعد عامة في المؤمنين، تقيهم وعاصيهم. وقالت المعتزلة: إذا كان صاحب كبيرة فهو في النار ولا بد، وقالت الخوارج^(١): إذا كان صاحب كبيرة أو صغيرة فهو في النار مخذ ولا إيمان له؛ لأنهم يرون كل الذنوب كبائر، وبنوا هذه المقالة على أن جعلوا آيات الوعد كلها مخصصة في المؤمن المحسن الذي لم يعص قط، والمؤمن التائب، وجعلوا آيات الوعيد عامة في العصاة كفاراً أو مؤمنين، وقال أهل السنة والحق: آيات الوعد ظاهرة العموم، وآيات الوعيد ظاهرة العموم، ولا يصح نفوذ كلها لوجهه بسبب تعارضها، كقوله تعالى: ﴿ لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾^(٢)، وهذه الآية هي الحاكمة ببيان ما تعارض من آيات الوعد والوعيد وقوله: ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾^(٣) فلا بد أن نقول: إن آيات الوعد لفظها لفظ عموم، والمراد بها الخصوص في المؤمن المحسن، وفي التائب، وفي من سبق في علمه تعالى العفو عنه دون تعذيب من العصاة^(٤).

(١) الخوارج: هم الذين خرجوا على علي رضي الله عنه أثناء التحكيم بينه وبين معاوية رضي الله عنه، وكفروا بالذنوب، واستباحوا دماء المسلمين وكل من خرج على الإمام الحق يسمى خارجياً. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١١٤). وشرح العقيدة الواسطية للهراس، تحقيق: علوي السقاف، الناشر: دار الهجرة، الخبر، ط: الثالثة، ١٤١٥هـ (ص ١٩٠).

(٢) الليل: ١٥ - ١٦

(٣) الجن: ٢٣

(٤) المحرر الوجيز (٢/٧٢).

وَأَنَّ آيَاتِ الْوَعِيدِ لَفِظُهَا عَمُومٌ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْخُصُوصُ فِي الْكُفْرَةِ وَفِي مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْذِبُهُ مِنَ الْعِصَاةِ، وَتَحْكَمُ بِقَوْلِنَا: هَذِهِ الْآيَةُ النَّصُّ فِي مَوْضِعِ النِّزَاعِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فَإِنَّهَا جَلَّتِ الشُّكُّ وَرَدَّتْ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ، الْمَرْجِيَّةِ وَالْمَعْتَزِلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فَصَلِّ مَجْمَعٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ﴾ فَصَلِّ قَاطِعٌ بِالْمَعْتَزِلَةِ رَادٌّ عَلَى قَوْلِهِمْ رَدًّا لَا مَحِيدَ عَنْهُ، وَلَوْ وَقَفْنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ الْكَلَامِ لَصَحَّ قَوْلُ الْمَرْجِيَّةِ، فَجَاءَ قَوْلُهُ: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ رَادًّا عَلَيْهِمْ، مُوجِبًا أَنْ غُفِرَ مَا دُونَ الشُّرْكِ إِنَّمَا هُوَ لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، بِخِلَافِ مَا زَعَمُوهُ مِنْ أَنَّهُ مَغْفُورٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ...^(١).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(٢) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالشُّرْكَ! فَنَزَلَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وَهَذَا مِنَ الْمُحْكَمِ الْمَتَّقِ عَلَيْهِ الَّذِي لَا اخْتِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي قَدْ تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ: قَدْ أَبَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ كُلَّ صَاحِبِ كَبِيرَةٍ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ذَنْبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ عَلَيْهِ مَا لَمْ تَكُنْ كَبِيرَتُهُ شَرَكًا بِاللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ نُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٣) فَأَعْلَمَ أَنَّهُ يَشَاءُ أَنْ يَغْفِرَ الصَّغَائِرَ لِمَنْ اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ وَلَا يَغْفِرُهَا لِمَنْ أَتَى الْكَبَائِرَ...^(٤).

(١) المصدر السابق (٢٢/٢).

(٢) الزمر: ٥٣

(٣) النساء: ٣١

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢١٧/٥).

دراسة وتحليل:

ومن خلال الأمثلة السابقة يتبين أن المفسرين متفقان في تفسير آيات الوعد والوعيد، وموافقان لعقيدة أهل السنة ويردان على أهل البدعة ممن غلبوا الوعد أو الوعيد، وجمعا بين النصوص وردا المتشابه للمحكم، فجعلنا آيات الوعد عامة في كل صالح وتائب مات على الهدى والصلاح، كما أن آيات الوعيد عامة في كل كافر ومشرك، وأمّا من جمع بين الخير والشر وخطب بين الإيمان والكبائر، فإنّ آيات الوعد والوعيد تشملها، فأما الوعد فإن مصيره إلى الجنة، وأما الوعيد فإن شاء الله عذبه بذنوبه ثم يدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة دون عذاب، وإخلاف الوعيد كرم ومدح، وقد يكون للعاصي من الأعمال والخير ما يجعله مرحومًا مغفورًا له عند الله، وبهذا قال معظم المفسرين^(١). وقد أحسن ابن عطية بتلخيصه الوجيز المفيد لهذا الباب، كما أحسن القرطبي بذكر آيات وأحاديث تشهد للعقيدة الصحيحة في هذا الباب. وينبغي للمسلم الجمع بين الوعد والوعيد، والعيش بين الخوف والرجاء فلا يأمن مكر الله ولا يقنط من رحمته سبحانه وتعالى.

(١) انظر: جامع البيان، للطبري (٨/ ٤٥٠)، والكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي (٦/ ٢٢٥)، ومعالم التنزيل، للبيهقي (١/ ٦٧٩)، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٩٥)، والبحر المحيط، لأبي حيان (٣/ ٦٧٠)، والجواهر الحسان، للثعالبي (٢/ ١٧٧، ٢٤٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٠)، وفتح القدير، للشوكاني (١/ ٥٤٩)، وغيرهم.

اتفق المفسران في غرض تأليفهما للتفسير، ومن ذلك الرد على المخالفين للعقيدة الصحيحة والمنهج السليم في التفسير، والمفسران يلتزمان الموضوعية والدليل في الرد دون تعصب، والنزاهة والأدب في الرد مع وضوح العبارة والاستدلال، ولم يقتصر ردهما على أهل البدع بل كثيراً ما تجد في تفسيرهم رداً أو تنبيهاً أو ملاحظةً على الأقوال التي نقلها عن غيرهم، مما يدل على غزارة العلم وقوة الشخصية والتجرد.

وجوه الافتراق:

القرطبي أكثر توسعاً من ابن عطية في هذا الشأن وذكر فرقا لم يذكرها ابن عطية، واستنبط زوداً كثيرة في عدة مواضع لم يتطرق لها ابن عطية، وغالباً ما يكون رد ابن عطية مختصراً، ويكون القرطبي أكثر توسعاً واستشهاداً بالأدلة عند الرد على المخالفين، ومن توسع القرطبي أنه ذكر أصول الفرق الضالة، وأنها ست فرق وذكر لكل فرقة اثني عشر قسماً حتى أوصل الفرق الضالة إلى اثنتي وسبعين فرقة، يُعرّف كل فرقة تعريفاً مختصراً^(١).

أمثلة تطبيقية:

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢)

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

" قال القاضي أبو محمد: ... وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير في قوله ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ فالمعنى: كونوا في اعتصامكم مجتمعين. ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ يريد التفرق الذي لا يتأتى معه الائتلاف على الجهاد وحماية الدين وكلمة الله تعالى، وهذا هو الافتراق

(١) انظر: المصدر السابق (٤/٥١٩-٥٢١).

(٢) آل عمران: ١٠٣

بالفتن والافتراق في العقائد، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقهاء فليس يدخل في هذه الآية، بل ذلك هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلاف أمتي رحمة)^(١)، وقد اختلف الصحابة في الفروع أشد اختلاف، وهم يد واحدة على كل كافر...^(٢).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"فإن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة... وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني في دينكم كما افتردت اليهود والنصارى في أديانهم، عن ابن مسعود وغيره. ويجوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخواناً، فيكون ذلك منعاً لهم عن التقاطع والتدابير، ودل عليه ما بعده وهو قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(٣) وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع، فإن ذلك ليس اختلافاً، إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع، وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض

(١) هذا الحديث من الأحاديث المشهورة، ولكنه ضعيف السند، وغير موجود في متون الحديث المعتمدة، قال عنه السيوطي: (أخرجه نصر المقدسي في الحجة والبيهقي في الرسالة الأشعرية بغير سند وأورده الخليلي والقاضي حسين وإمام الحرمين وغيرهم ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا). الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، للسيوطي، المحقق: يوسف النبهاني، الناشر: دار الفكر، بيروت- لبنان، ط: الأولى، عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، (١/ ٥٤)، وذكره أيضاً السيوطي في كتابه تدريب الراوي، في أمثلة الأحاديث المشتهرة الضعيفة. انظر: تدريب الراوي للسيوطي، بتحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار طيبة، (٢/ ٦٢٥)، وقد أنكره الألباني سنداً ومعنى، وقال عنه: موضوع، وفي بعض المواضع قال: لا أصل له. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة للألباني، الناشر: دار المعارف، السعودية، الرياض، ط: الأولى، عام ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، (١/ ١٤١)، قلت: الحديث لم يصح سنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما تداوله بين أهل العلم والعامّة فكثير مشهور، وأما من حيث المعنى فله محملين: سيء وحسن، السيء: وهو ترك الراجح والنصوص الواضحة بلا عذر سوى الخلاف، والمحمل الحسن: ما ذكره ابن عطية والقرطبي وغيرهم من أن اختلاف الفقهاء والصحابة في مسائل الفروع والفقهاء من الرحمة والتوسيع على الأمة، وهذا صحيح، وهو المراد من الحديث. والله أعلم.

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥٣٥).

(٣) آل عمران: ١٠٣.

ودقائق معاني الشرع، وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متآلفون. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اختلاف أمتي رحمة)، وإنما منع الله اختلافاً هو سبب الفساد. روى الترمذي^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة). قال الترمذي: هذا حديث صحيح^(٢). وأخرجه أيضاً عن ابن عمر^(٣)، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتي أمه علانية لكان من أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي)^(٤).

وأخرجه أبو داود^(٥) في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان^(٦) عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن

(١) الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي، أبو عيسى، من أهل ترمذ (على نهر جيحون)، ومن أئمة علماء الحديث وحفاظه، تتلمذ للبخاري، وشاركه في بعض شيوخه، أدركه العمى، وكان يُضرب به المثل في الحفظ، له تصانيف نافعة من أبرزها الجامع المعروف بسنن الترمذي، وعلل الترمذي، وُلد عام (٢٠٩هـ) وتوفي بترمذ سنة (٢٧٩هـ). انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي، (٢/١٥٤)، والأعلام، للزركلي، (٦/٣٢٢).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة (٥/٢٥)، رقم الحديث (٢٦٤٠).

(٣) عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، أبو عبد الرحمن العدوي، المدني، الإمام، الفقيه، أحد الصحابة الأعلام المبرزين في العلم والعمل، نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، شهد الخندق وبيعة الرضوان وفتح مكة، ومولده ووفاته فيها، ومناقبه جمة، تُوفي سنة (٧٣هـ). أسد الغابة، لابن الأثير (٣/٣٣٦).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة (٥/٢٦)، رقم الحديث (٢٦٤١).

(٥) أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، الإمام، شيخ السنة، مقدم الحفاظ، محدث البصرة، من مصنفاته سنن أبي داود، ولد عام (٢٠٢هـ)، وتوفي بالبصرة سنة (٢٧٥هـ). سير أعلام النبلاء (١٣/٢٠٣)، والأعلام للزركلي (٣/١٢٢).

(٦) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وهنا يلتقي نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وُلد قبل البعثة بخمس سنين، ومات سنة ستين على الصحيح، أسلم هو وأبوه وأمه في عام الفتح، وقيل: أسلم قبل ذلك وكنم إيمانه، كان كاتباً حسيباً فظناً، اتصف بالعلم والحلم والفقه، جعله النبي صلى الله عليه

هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة وهي الجماعة، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب^(١) بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله^(٢). وفي سنن ابن ماجه عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات والله عنه راض. قال أنس: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل... ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾^(٣)... فقد ظهر لنا من أصول الفرق: الحرورية^(٤) والقدرية^(٥) والجهمية^(٦)

وسلم من كُتَّبه، ثم ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أميراً للشام بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان، ثم ولاه عثمان رضي الله عنه، ثم حصلت الفتنة بينه وبين علي رضي الله عنه ثم صارت له الخلافة بعد أن تنازل له الحسن رضي الله، وسُمي عام الجماعة، فمكث أميراً عشرين سنة وخليفة على المسلمين عشرين سنة، وسارت جنوده في البر والبحر. انظر: كتاب الإصابة في تمييز الصحابة، لمؤلفه ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ، (٦/ ١٢٠).

(١) الكلب بالتحريك: داء يعرض للإنسان من عض الكلب الكلب، فيصيبه شبه الجنون، فلا يعضُ أحداً إلا كلب، وتعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً. النهاية في غريب الحديث والأثر، لمؤلفه: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، بتحقيق: طاهر أحمد الزاوي، و محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، (٤/ ١٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة (٩٨/٤)، رقم الحديث (٤٥٩٧).

(٣) التوبة: ١١

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٢٧/١)، رقم الحديث (٧٠).

(٥) الحرورية: هم الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه أثناء التحكيم بينه وبين معاوية رضي الله عنه، وتجمعوا بحروراء (بلدة قرب الكوفة) فسموا بذلك نسبة لها. انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس (ص ١٩٠).

(٦) القدرية: هم نفاة القدر، يقولون بأن علم الله مستأنف أي لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، ويزعمون أن كل عبد خالق لفعله، وأن الكفر والمعاصي ليس من تقدير الله تعالى، وقال بعضهم: الخير من الله والشر من العباد، وفي الحديث أنهم مجوس هذه الأمة، لمشابهتهم المجوس الذين يزعمون أن للشر إله وللخير إله، وظهرت فتنتهم في آخر عهد الصحابة، وممن قال بقولهم المعتزلة. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، للنووي (١/ ١٥٤)، والتعريفات للجرجاني (ص: ١٧٤)، وشرح العقيدة الواسطية للهراس (ص: ٩٤).

مثال آخر: قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(١).

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"... وقال المهدي رخص للمسلمين أن يعطوا المشركين من قراباتهم من صدقة الفريضة بهذه الآية. قال القاضي أبو محمد: وهذا مردود عندي، والهدى الذي ليس على محمد صلى الله عليه وسلم هو خلق الإيمان في قلوبهم، وأما الهدى الذي هو الدعاء فهو عليه، وليس بمراد في هذه الآية، ثم أخبر تعالى أنه هو: يهدي من يشاء أي يرشده، وفي هذا رد على القدرية وطوائف المعتزلة.."^(٢).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"... وقال المهدي: رخص للمسلمين أن يعطوا المشركين من قراباتهم من صدقة الفريضة لهذه الآية. قال ابن عطية: وهذا مردود بالإجماع. والله أعلم... [ثم استورد القرطبي ورجح أن غير المسلم يجوز إعطائه من الصدقة والزكاة الغير مفروضة أما المفروضة فلا تجوز إلا للمسلم]، الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرشد من يشاء. وفي هذا رد على القدرية وطوائف المعتزلة، كما تقدم"^(٣).

ففي هذه الآية ردّ ابن عطية على المفسر المهدي قوله أن الزكاة تجوز على الذمي، وتابعه القرطبي حيث نقل كلام ابن عطية كما هو، إلا أنه استورد وناقش المسألة وذكر بعض الأدلة ورجح أن الزكاة الواجبة لا تجوز إلا على أهل الإسلام، وغير الواجبة لأبأس

(١) البقرة: ٢٧٢

(٢) المحرر الوجيز (١/٣٩٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٨٩).

أن يُعطى منها المحتاج من غير المسلمين. كما اتفق المفسران في أن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فيه ردٌّ على القدرية والمعتزلة الذين ينفون أن الله خالق الإيمان في قلوب العباد يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وقد ردَّ المفسران على القدرية والمعتزلة وعلى القول بأن العبيد يخلقون إيمانهم وأفعالهم وأن الهداية والضلال لهم لا إلى الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - في مواضع كثيرة منها في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (١).

قال ابن عطية رحمه الله: "... وفي هذا رد على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال. ولا خلاف أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ من قول الله تعالى" (٢).

وقال القرطبي رحمه الله:

" فالمعنى: قل يضل الله به كثيرا ويهدي به كثيرا، أي يوفق ويخذل، وعليه فيكون فيه رد على من تقدم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى" (٣).

مثال آخر: قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ

﴿٤﴾

قال ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

(١) البقرة: ٢٦

(٢) المحرر الوجيز (١/١٠١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/٢٣٤).

(٤) آل عمران: ٧

" قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ يعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل صاحب بدعة، والزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، والإشارة بالآية في ذلك الوقت كانت إلى نصارى نجران^(١) ... ، وإلى اليهود، ثم تنسحب على كل ذي بدعة أو كفر... وقال قتادة في تفسير قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج، فلا أدري من هم؟

وقالت عائشة^(٢): إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن فهم الذي عنى الله فاحذروهم...
" (٣)

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

" فيه تسع مسائل: الأولى: خرَّج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم)^(٤) وعن أبي غالب^(١) قال: كنت أمشي مع أبي أمامة^(٢) وهو على حمار له،

(١) نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة، قالوا: سمي بنجران بن زيدان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان لأنه كان أول من عمرها ونزلها. معجم البلدان، لياقوت الحموي (٥/ ٢٦٦).

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديقة بنت الصديق، البريئة المبرأة، أم المؤمنين، أشهر نساء النبي صلى الله عليه وسلم وأحبهم إليه، أمها أم رومان ابنة عامر الكنانية، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين وعمرها ست سنين، وقيل: سبع سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين بالمدينة، وكانها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم عبد الله، بابن أختها عبد الله بن الزبير، كانت من أفقه الناس وأعلمهم وأكثرهم رواية للحديث، ولما توفى النبي صلى الله عليه وسلم كان عمرها ثمان عشرة سنة، وتوفيت ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة (٥٧هـ)، ودفنت بالبقيع. أسد الغابة، لابن الأثير (٧/ ١٨٦).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ٤٣٦).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن...، رقم ٢٦٦٥، (٤/ ٢٠٥٣).

حتى إذا انتهى إلى درج مسجد دمشق فإذا رعوس منصوبة، فقال: ما هذه الرؤوس؟ قيل: هذه رعوس خوارج يجاء بهم من العراق فقال أبو أمامة: (كلاب النار كلاب النار! شر قتلى تحت ظل السماء، طوبى لمن قتلهم وقتلوه- يقولها ثلاثا-) ثم بكى. فقلت: ما يبكيك يا أبا أمامة؟ قال: رحمة لهم، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه، ثم قرأ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴿٣٠﴾ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ. ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴿٣١﴾﴾ فقلت: يا أبا أمامة، هم هؤلاء؟ قال نعم. قلت: أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: إني إذا لجريء إني إذا لجريء! بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع ولا خمس ولا ست ولا سبع، ووضع أصبعيه في أذنيه، قال: وإلا فصمتا قالها ثلاثا... (٤) «(٥)».

وفي المثال السابق اتفق المفسران في الرد على الخوارج وأنهم من أهل الأهواء، وفي قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه من القرآن، وتميز ابن عطية في كلامه المفيد المختصر بأن الزيغ هو الميل وهو مرض يشمل جميع أهل الأهواء من الكافرين و المنافقين والزنادقة والمبتدعة، الذين يتبعون المتشابهات ويتركون المحكمات، وامتاز القرطبي بتوسعه وذكر

(١) أبو غالب صاحب أبي أمامة الباهلي (الصحابي)، اشتهر بذلك، واختلف في اسمه فقيل: حَزْرُورٌ، وقيل غير ذلك، واختلف في ولائه ونسبه كذلك، كما اختلفوا في توثيقه. وانظر الطبقات الكبير، لابن سعد، بتحقيق: علي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: أولى، عام ٢٠٠١م، (٩/٢٣٦)، و تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٤/١٧٠)، وموسوعة أقوال أبي الحسن الدار قطني في رجال الحديث وعلمه، تأليف: مجموعة من المؤلفين، ط: الأولى، ٢٠٠١م، الناشر: عالم الكتب للنشر والتوزيع - بيروت، لبنان (٢/٧٥٥).

(٢) الصحابي الجليل أبو أمامة الباهلي، واسمه: صُدي بن عجلان، غلبت عليه كنيته، وسكن حمص من الشام، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر، وتوفي سنة إحدى وثمانين، وهو من آخر من مات من الصحابة في الشام. أسد الغابة، لابن الأثير (٣/١٥).

(٣) آل عمران: ١٠٥

(٤) السنن الكبرى للبيهقي، باب الخلاف في قتال أهل البغي (٨/٣٢٥)، رقم الحديث (١٦٧٨٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/٣٨٦).

الأحاديث الموضحة والكاشفة للمبتدعة وعلى رأسهم الخوارج. مثال آخر: قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية، فرد الله تعالى عليهم وكذبهم، وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفية والإسلام... والمخاطب في هذه الآية اليهود والنصارى، أي أنتم أيها الناحلوهم اليهودية والنصرانية، ذلك لا ينفعكم؛ لأن كل نفس لها ما كسبت من خير وشر، فخيرهم لا ينفعكم إن كسبتم شرا، وفي هذه الآية رد على الجبرية القائلين لا اكتساب للعبد، ولا تسئلون عما كانوا يعملون فتنحلوهم ديناً" (٢).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

" والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم ما لم يوص به بنيه، وأنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله عليهم قولهم وكذبهم، وقال لهم على جهة التوبيخ: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدعون عن علم، أي لم تشهدوا، بل أنتم تفترون!... ﴿ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ السَّمِيعُ .، يريد من خير وشر. وفي هذا دليل على أن العبد يُضاف إليه أعمال وأكساب، وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك، إن كان خيرا فبفضله وإن كان شرا فبعده، وهذا مذهب أهل السنة، والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة. فالعبد مكتسب لأفعاله، على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل، يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة

(١) البقرة: ١٣٤

(٢) المحرر الوجيز (١/٢١٤).

مثلاً، وذلك التمكن هو مناط التكليف. وقالت الجبرية بنفي اكتساب العبد، وإنه كالنبات الذي تصرفه الرياح. وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين، وإن العبد يخلق أفعاله^(١).

وفي المثال السابق يتفق المفسران في ترسيخ عقيدة الإسلام، وأن الأنبياء جميعاً دينهم الإسلام والتوحيد، وليس النصرانية أو اليهودية، كما يرسخان عقيدة أهل السنة في أن للعبد كسب وفعل تحت قدرة الله ومشيئته، ويحاسبه الله على ذلك، ويردان على الجبرية الذين يقولون أن العبد مجبور على أفعاله، ويتوسع القرطبي في توضيح عقيدة أهل السنة وبيان المخالفين الذين وقعوا في طرفي نقيض فالجبرية تنفي كسب العبد واختياره، والقدرية والخارج تجعل العبد هو الذي يخلق أفعاله ويكسبها، وينفيان عن الله علم ذلك وتقديره، وكلا الطرفين مخالف للحق.

والقرطبي أكثر توسعاً واستنباطاً في الرد على المخالفين، وله ردود في مواضع عديدة لم يتطرق لها ابن عطية، وهذا واضح من خلال ما سبق ونؤكد هنا بهذه الأمثلة:

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسير سورة الفاتحة:

"﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾... التاسعة: قال علماؤنا: وفيها رد على القدرية وغيرهم ممن يقول: إن أفعالهم مقدورة لهم. وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتح بذلك، كما ذكرنا. فمعنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، أي بالله. ومعنى (بالله) أي بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه...^(٢).

(١) الجامع لاحكام القرآن (٢/٥٤٥).

(٢) المصدر السابق (١/١٠٣).

وقال - رحمه الله - عند قوله تعالى: ﴿ آمَدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ① ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١﴾ " الحادية والثلاثون: وفي هذه الآية رد على القدرية والمعتزلة و الإمامية^(٢)؛ لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه، طاعة كانت أو معصية؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه، وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم، فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال في كل صلاة، وكذلك تضرعهم إليه في دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾. فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألا يُضِلَّهُمْ، وكذلك يدعون فيقولون: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ③ ﴾ الآية^(٤).

(١) الفاتحة: ٦ - ٧

(٢) الإمامية: هم الذين يزعمون أن إمام المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي رضي الله عنه، وأنه منصوب عليه، والصحابة غيروا وبدلوا، ولذلك فهم يقدرحون في معظم الصحابة، ويجعلون من قضية الإمامة ركن في صحة الإيمان و يقيمون على ذلك الولاء والبراء، و وينصون في مذهبهم على اثني عشر إماما، وهم شيعة غلاة، ويُطلق عليهم الإمامية، والإثناعشرية، والرافضة. وقد سبق التعريف بهم عند التعريف بالرافضة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٦١)، والموسوعة الميسرة (١/٥١).

(٣) آل عمران: ٨

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/١٥٠)

المبحث الثاني

دراسة تحليلية مقارنة في علوم القرآن

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: المقارنة بين منهج ابن عطية والقرطبي

المطلب الثاني: المقارنة في التفسير بالمأثور

المطلب الثالث: المقارنة في التفسير بالقراءات

المطلب الرابع: المقارنة في التفسير بلغة العرب

المطلب الخامس: المقارنة في ذكر القصص والإسرائيليات

المطلب السادس: المقارنة في ذكر أسباب ومكان النزول

المطلب السابع: المقارنة في ذكر الناسخ والمنسوخ

المطلب الثامن: موقف القرطبي من تفسير وأقوال ابن عطية

المطلب الأول

المقارنة بين منهج ابن عطية و منهج القرطبي

ذكر الإمامان المفسران الجليلان ابن عطية والقرطبي مقدمة رائعة في مطلع تفسيريتهما، تضمنت البيان والبلاغة، والموعظة المؤثرة المذكورة بحق القرآن وفضل علم التفسير والتذكير بالآخرة، وذكر كل منهما في مقدمته البديعة غرضه وشرطه ومنهجه في التفسير، والمتأمل في ذلك يجد تشابهاً كبيراً فيما رسماه لأنفسهما من شرط ومنهج، ولهذا جاء الكتابان متشابهان في كثير من الأمور، وقد أشار بعض أهل العلم إلى تشابه طريقة المُفسرين ومنهجهما، فقال ابن خلدون-رحمه الله-: " فلما رجع النَّاسُ إلى التَّحْقِيقِ والتَّمْحِيسِ وجاء أبو محمَّد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصَّحَّةِ منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى. وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق"^(١).

ولعل سبب ذلك التشابه هو تقارب المُفسرين في المكان والزمان فكلاهما من الأندلس - ولادةً ونشأةً وطلباً للعلم- وكان ابن عطية في القرن السادس والقرطبي بعده مباشرةً في القرن السابع الهجري، وكلاهما من أعيان المالكية، ومن فضلاء أهل السنة، ومن أصول عربية، انتقل أجدادهم من المشرق إلى الأندلس مع الفاتحين المسلمين، فلما تشابهت أصولهم ومشاربهم تشابهت مصنفاتهم وثمراتهم.

(١) تاريخ ابن خلدون /١ /٥٥٥.

وجوه الاتفاق بين منهج المفسرين وطريقة تفسيريهما:

- المُفسران افتتحا تفسيريهما بمقدمة بديعة تناسب موضوع القرآن والتفسير، ثم بينا أهمية علم التفسير^(١).

- اتفق غرض المؤلفين في التصنيف فكلاهما أراد أن يخرج كتابا جامعا وجيزا نافعا ابتغاء وجه الله وثوابه، قال ابن عطية: (وقصدتُ فيه أن يكون جامعًا وجيزًا محررًا... وأنا أسأل الله جلت قدرته، أن يجعل ذلك كله لوجهه، وأن يبارك فيه وينفع به)^(٢)، وقال الإمام القرطبي: (... بأن أكتب تعليقًا وجيزًا... وعملته تذكرة لنفسي، وذخيرة ليوم رمسي، وعملاً صالحًا بعد موتي)^(٣).

- اتفق منهج وشروط المؤلفين في ترك القصص إلا ما كان لازماً لبيان معنى الآية، وذكر أقوال العلماء منسوبة إليهم، والتفسير وفق لغة العرب والاهتمام بالإعراب والشواهد النحوية والشعرية، وإيراد القراءات شاذها والمتواتر، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وتتبع مفردات الألفاظ وذكر معانيها واشتقاقها، وذكر الأحكام الشرعية وأسباب النزول. فالتفسيران جامعان لنواحي التفسير، وهما من التفسير بالمأثور. قال ابن عطية -رحمه الله- في مقدمة تفسيره: "... لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به، وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح -رضوان الله عليهم- كتاب الله من مقاصده العربية السليمة من إحداهن أهل القول بالرموز، وأهل القول بعلم الباطن، وغيرهم، فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين، نهت عليه، وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة، وقصدت تتبع الألفاظ...

(١) انظر: مقدمة الكتابين: المحرر الوجيز (٩/١-١١)، والجامع لأحكام القرآن (١١/١-١٣).

(٢) المحرر الوجيز (١٠/١).

(٣) تفسير القرطبي (١٢/١).

، وقصدت إيراد جميع القراءات، مستعملها وشاذها، واعتمدت تبيين المعاني وجميع
محتملات الألفاظ...»^(١).

وذكر الإمام القرطبي في مقدمته كلاماً قريباً من ذلك فقال -رحمه الله-:
"... بأن أكتب تعليماً وجيزاً، يتضمن نكتاً من التفسير واللغات، والإعراب
والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من
الأحكام ونزول الآيات؛ جامعاً بين معانيهما، ومبيناً ما أشكل منهما بأقوال
السلف، ومن تبعهم من الخلف... وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى
قائلها،.. وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد
منه ولا غنى عنه للتبيين،.. مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول
والتفسير الغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير
والتأويل"^(٢).

- افتتح المفسران تفسيريتهما بأبواب متعددة في فضل القرآن ومسائل متعلقة بعلوم القرآن
والتفسير -بعد ذكر مقدمة الكتاب وقبل الشروع في الفاتحة- ففي تفسير ابن عطية عشرة
أبواب^(٣) استفتح بها تفسيره، وفي تفسير القرطبي تسعة عشر باباً^(٤). وكل هذه الأبواب لا
يستغني عنها طالب العلم، لاسيما في مجال التفسير، ولا بد أن تكون حاضرة في ذهنه؛
لأنها بمثابة التأصيل والتمهيد لعلم التفسير.

وجوه الافتراق بين منهج المفسرين وطريقة تفسيريتهما:

- اشترط الإمام القرطبي على نفسه نسبة الأحاديث إلى مصنفها فقال رحمه الله:
"وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مصنفها، فإنه يُقال:
من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله. وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير

(١) المحرر الوجيز (١٠/١ - ١١)

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/١٢-١٣).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١/١٣-٤١).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/١٣ - ٨٨).

مُبهما، لا يُعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبره له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرج من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام^(١)، بينما لم يشترط ابن عطية نسبة الأحاديث إلى مصنفها، واكتفى بنسبة أقوال أهل العلم إلى قائلها^(٢)، والباحث في التفسيرين يجد أن الإمام القرطبي كثيراً ما يلتزم بشرطه فهو ينسب الأحاديث إلى مصنفها، وإن كان أحياناً لا يفعل ذلك، بينما ابن عطية فالغالب عليه إيراد الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دون ذكر مصادرها أو أسانيدها، بل كثيراً ما يروي الحديث بصيغة التمريض، كأن يقول (روي) ولهذا كان تفسير القرطبي بالنسبة لنقل الأحاديث أحسن من تفسير ابن عطية. وسيأتي بيان ذلك وضرب الأمثلة عليه في المطلب التالي عند المقارنة بين بالتفسير بالمأثور.

- اشترط الإمام القرطبي على نفسه بأن يُعرض عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، وأن يهتم عوضاً عن ذلك بالأحكام الفقهية، بتبين آيات الأحكام بمسائل تسفر عن معانيها وترشد الطالب إلى مقتضاها، قال الإمام القرطبي-رحمه الله-: "وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين واعتضت من ذلك تبين آي الأحكام، بمسائل تُسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها..."^(٣) والباحث في تفسير القرطبي يجد القرطبي يتوسع في الأحكام الفقهية ويستطرد ويذكر المذاهب الفقهية ويناقشها، فهو كتاب فقهي بامتياز، ولهذا جاء تفسير القرطبي ضعف تفسير ابن عطية، بسبب التوسع الفقهي الذي فيه، أما ابن عطية فلم يتشرط على نفسه ذلك، وإن كان يذكر الحكم الفقهي

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ١٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣).

الذي اشتملت عليه الآية لكنه لا يتوسع ولا يستطرد في المسائل الفقهية كما فعل القرطبي. وقد يكون هذا أبرز الفروقات بين التفسيرين.

- يمتاز تفسير القرطبي بترتيبه البديع فقد قسمه القرطبي إلى أبواب ومسائل تضمنت الأحكام الفقهية، والقراءات واللغة والتفسير قال الإمام القرطبي:

"... فضمنت كل آية تضمن حُكما أو حكمن فما زاد، مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم، فإن لم تتضمن حُكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب"^(١)، ولم يفعل ذلك ابن عطية، بل كان يفسر بحسب رتبة الألفاظ في الآية دون تقسيم تفسيره إلى أبواب أو مسائل، والباحث في تفسير القرطبي يجد أن القرطبي تميز على كثير من المفسرين بتقسيمه البديع، وإدراكه الواسع، ففي الآيات التي يفسرها يفترض عدة مسائل ويعطي كل مسألة حقها من البحث، ويستوفي تفسير تلك الآية ويحيط بجميع جوانبها ويستطرد من خلال تلك المسائل التي بحثها، وطريقته أشبه بالطرق الأكاديمية والبحوث العلمية، وإن كان قد سبقها، ولم يتقيد بقوانينها، فكان تفسيره على غاية من الإبداع والترتيب والاستيعاب، وانظر على سبيل المثال تفسير الفاتحة عند القرطبي^(٢)، قسمها إلى أربعة أبواب: الباب الأول: في فضائلها وأسمائها. وتحتة سبع مسائل.

والباب الثاني: في نزولها وأحكامها. وفيه عشرون مسألة.

والباب الثالث: في التأمين. وفيه ثمان مسائل.

والباب الرابع: فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين. وفيه ست وثلاثون مسألة.

(١) المصدر السابق (١٣/١).

(٢) المصدر السابق (١١٣/١-١٥٤).

وهكذا في بقية تفسيره غالباً ما يقسم المقطع الذي يتناول تفسيره إلى عدة مسائل تتضمن كل ماله علاقة بالتفسير من لغة وقراءة وأحكام فقهية وغير ذلك، وكل مسألة تعتبر بحثاً علمياً مُصغراً.

- القرطبي أكثر استيعاباً واستحضاراً في تفسيره وإذا ذكر شيئاً يذكره في موطن آخر أشار إليه، ومن أمثلة ذلك: ما أورده في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ فِي فِي فِي﴾ فقال رحمه الله:

" فائدة: روى ابن عباس قال: كنا مع عمر بن الخطاب^(٢) في سفرة بين المدينة والشام ومعنا كعب الأحبار^(٣)، قال: فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد، وفرق الناس. قال: فقال لي كعب: إنه من قال حين يسمع الرعد: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، عوفي مما يكون في ذلك السحاب والبرد والصواعق. قال: فقلتها أنا وكعب، فلما أصبحنا واجتمع الناس قلت لعمر: يا أمير المؤمنين، كأننا كنا في غير ما كان فيه الناس. قال: وما ذاك؟ قال: فحدثته حديث كعب. قال: سبحان الله! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم! في رواية فإذا بردة قد

(١) البقرة: ١٩

(٢) عُمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي بن رياح بن عبد الله بن قُرَظِ بْنِ رَزَّاحِ بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي، أبو حفص، ثاني الخلفاء الراشدين، ومن المُلهَمين في الأمة، وافقه الوحي مراراً، لم يختلف الصحابة أنه أفضلهم بعد أبي بكر الصديق، كان إسلامه فتحاً، وهجرته نصراً، وإمارته رحمة، وكان أشد الناس على الكفار، ومن أعلم الصحابة وأزهدهم في الدنيا، وهو أول من لُقِبَ بأُمير المؤمنين، واستمرت خلافته أكثر من عشرة أعوام، كان فيها العدل والفتوحات، عاش ثلاث وستين عاماً، وتُوفي شهيداً في آخر سنة (٢٣هـ). انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (٤/ ١٣٧).

(٣) هو: كعب بن ماتع الحميري، اليماني، العلامة، الحبر، الذي كان يهودياً، فأسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه وكان من أوعية العلم وقدم المدينة من اليمن في أيام أمير المؤمنين عمر وجالس الصحابة فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية، ويأخذ السنن عنهم، روى عنه: أبو هريرة، ومعاوية، وابن عباس، وذلك من قبيل رواية الصحابي عن التابعي، وهو نادر عزيز، تُوفي بحمص وهو ذاهب للغزو، في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨٩).

أصابته أنف عمر فأثرت به. وستأتي هذه الرواية في سورة الرعد إن شاء الله^(١)، ومثال آخر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ مَعَ مَنْ تَشَاءُ﴾ فقال رحمه الله: "ونحو من السكنى العمرى، إلا أن الخلاف في العمرى أقوى منه في السكنى. وسيأتي الكلام في العمرى في (هود) إن شاء الله تعالى"^(٢). وهكذا في كثير من المواضع يحيل على ما سيأتي فيه مزيد بيان وذكر مما يدل على قوة استحضاره وتمكنه.

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٢١١).

(٢) البقرة: ٣٥

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/٢٧٩).

المطلب الثاني

المقارنة في التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور: عبارة تتألف من ركنين وهما: (التفسير) و(المأثور).
والتفسير في اللغة: مأخوذ من (ف س ر)، و الفَسْرُ: هو الإبانة وكشف المغطى أو كشف المعنى المعقول، يُقال: فَسَّرَ الشيءَ يَفْسِرُهُ وَيَفْسِرُهُ وَفَسَّرَهُ: أَبَانَهُ، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المُشكَل^(١).

وأما المأثور: فمأخوذ من الأثر وهو بقية الشيء. وقال بعضهم: الأثر ما بقي من رسم الشيء. ويُطلق على نقل الحديث عن القوم وروايته، ومأثورٌ أي يُخْبِرُ الناسُ بِهِ بعضهم بَعْضًا، أي يَنْقُلُهُ خَلْفَ عَن سَلَفٍ^(٢).

والتفسير بالمأثور عند علماء التفسير وعلوم القرآن: هو التفسير بالرواية، وهو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بيانًا لمراد الله تعالى من كتابه، فالتفسير بالمأثور يشمل تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة النبوية، وتفسير القرآن بكلام الصحابة والتابعين، ويدخل في هذا القسم ما نُقل من الإسرائيليات، ومن معاني الألفاظ الغريبة عند أهل اللغة، لأنَّ المأثور ما ينقله خلف عن سلف^(٣).

وجوه الاتفاق في التفسير بالمأثور بين التفسيرين:

(١) انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٣ / ٣٢٣).

(٢) المصدر السابق (١٠ / ١٢-١٦).

(٣) انظر: كتاب تأويلات أهل السنة، لمؤلفه: أبي منصور الماتريدي محمد بن محمد بن محمود (ت: ٣٣٣هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، عام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، (١ / ٢٥٦)، دَرْجُ الدُّررِ في تفسير الآي والسُّور، لمؤلفه: أبي بكر الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، محقق القسم الأول: طلعت صلاح الفرحان ومحقق القسم الثاني: محمد أديب شكور أمير، الناشر: دار الفكر، عمّان، الأردن، ط: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، (٢ / ١٧)، ومناهل العرفان في علوم القرآن، لمؤلفه: محمد عبد العظيم الزرقاني (ت: ١٣٦٧هـ)، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط: الثالثة، (٢ / ١٢).

أمثلة تطبيقية من التفسيرين:

أولاً: أمثلة من تفسير ابن عطية:

- مثال يبين طريقة ابن عطية في تفسيره بالمأثور ونقله للآيات والأحاديث،

وأثار العلماء وأقوالهم:

جاء في تفسير ابن عطية عند تفسيره لمطلع سورة الفاتحة: "(القول في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم): رُوِيَ عن جعفر بن محمد الصادق-رضي الله عنه- أنه قال: (البسمة تيجان السور). ورُوِيَ أن رجلاً قال بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم: تعس الشيطان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقل ذلك، فإنه يتعاضم عنده، ولكن قل: بسم الله الرحمن الرحيم، فإنه يصغر حتى يصير أقل من ذباب)^(١) وقال علي بن الحسين^(٢) رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوُا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾^(٣)، قال: معناه إذا قلت: بسم الله الرحمن الرحيم. ورُوِيَ عن جابر بن عبد الله^(٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (كيف تفتتح الصلاة يا جابر؟ قلت: بالحمد لله رب العالمين. قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم)^(٥). ورُوِيَ أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الثانية، عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، (٣٤ / ١٩٩)، رقم الحديث (٢٠٥٩٢). وقال محققو المسند في حاشيته: صحيح.

(٢) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، المدني، الملقب بزین العابدين لكثرة عبادته وصلاحه، وأمه: أم ولد، بنت ملك الفرس يَزْدَجَرْد، وكان مع أبيه الحسين يوم كربلاء وعمره ثلاث وعشرين سنة وكان يومئذ موعوكاً فلم يقاتل ولم يتعرضوا له، ثم نُقل إلى المدينة وكان ذا هيبه وصلاح وفقه ووقار، كثير العبادة والصدقة، وُلِدَ عام (٣٨هـ)، وتُوفِيَ سنة (٩٤هـ) في المدينة وقُبر في البقيع، ولا عقب للحسين إلا من قبل ولده هذا زين العابدين. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤ / ٣٨٦).

(٣) الإسراء: ٤٦.

(٤) الصحابي الجليل جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب الأنصاري، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صبي وكان من المكثرين في الحديث، تُوفِيَ سنة (٧٤هـ) وقيل: سنة (٧٧هـ)، وكان عمره تقريباً أربعاً وتسعين سنة. أسد الغابة، لابن الأثير (١ / ٤٩٢).

(٥) سنن الدار قطني، بتحقيق: شعيب الأرنؤوط وغيره، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط: الأولى، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة والجمهور بها واختلاف الروايات في ذلك، رقم ١١٥٧، (٢ / ٦٦).

وسلم قال: (أتاني جبريل فعلمني الصلاة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم يجهر بها)^(١) قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذان الحديثان يقتضيان أنها آية من الحمد، ويرد ذلك حديث أبي بن كعب^(٢) الصحيح إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (هل لك ألا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها، قال: فجعلت أبطئ في المشي رجاء ذلك، فقال لي: كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟ قال: فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى أتيت على آخرها)^(٣) ويرده الحديث الصحيح بقوله عز وجل: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، يقول العبد الحمد لله رب العالمين)^(٤) ويرده أنه لم يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أبي بكر^(٥)، ولا عن عمر، ولا عثمان^(٦)، رضي الله عنهم أنهم قرأوا في صلاتهم: بسم الله الرحمن الرحيم^(١). ويرده عدد

(١) لم أجده في كتب الحديث. وقال عنه المحقق للمحرر الوجيز هاني الحاج: "ضعفه ابن كثير في تفسيره". انظر: المحرر الوجيز (٤٣/١).

(٢) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي، وكان من كُتَّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن علماء الصحابة وأقرامهم على الإطلاق، اختلف في وفاته فقيل: مات سنة (١٩هـ)، وقيل: سنة (٢٠هـ)، وقيل: سنة (٢٢هـ)، وقيل: إنه مات في خلافة عثمان سنة (٣٢هـ)، والأكثر أنه مات في خلافة عمر. انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (١/١٦٨).

(٣) موطأ مالك، كتاب الصلاة، ما جاء في أم القرآن، رقم ٢٧٥، (٢/١١٢).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم ٣٩٥، (١/٢٩٦).

(٥) أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، واسمه: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وفي الهجرة، شهد معه المواقع كلها، وأجمع الصحابة على أنه أفضلهم وأحقهم بالخلافة، ودامت خلافته سنتين وأربعة أشهر، كان فيها حفظ الدين ومقاتلة المرتدين، وكانت ولادته بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، وعاش ثلاث وستين عاماً، وتوفي سنة (١٣هـ). انظر: أسد الغابة، لابن الأثير (٣/٣١٠).

(٦) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي يجتمع هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف، دعاه أبو بكر إلى الإسلام فأسلم، وكان يقول: إني لأربع أربعة في الإسلام، زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنتيه رقية فلما توفيت زوجه بابنته أم كلثوم رضي الله عنهم، وكان أشد الناس حياءً وأكثرهم إنفاقاً في سبيل الله، كانت له البيعة بالخلافة يوم السبت غرة المحرم سنة أربع وعشرين للهجرة، بعد دفن عمر بن الخطاب، بثلاثة أيام، ومكث في الخلافة نحو اثنا عشر عاماً، وقُتل مظلوماً شهيداً سنة (٣٥هـ) في منتصف شهر ذي الحجة. انظر: أسد الغابة، لابن الأثير، (٣/٥٧٨).

آيات السورة لأن الإجماع أنها سبع آيات إلا ما رُوي عن حسين الجعفي^(٢) أنها ست آيات، وهذا شاذ لا يعول عليه وكذلك روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) آية، فهي على عده ثماني آيات، وهذا أيضا شاذ. وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(٣) هو الفصل في ذلك. والشافعي^(٤) - رحمه الله - يعد (بسم الله الرحمن الرحيم) آية من الحمد... ، ومالك وأبو حنيفة وجمهور الفقهاء، والقراء لا يعدون البسمة آية. والذي يحتمله عندي حديث جابر، وأبي هريرة - إذا صحّا - (أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى قراءة جابر وحكايته أمر الصلاة قراءة في غير صلاة على جهة التعلم فأمره بالبسمة لهذا لا؛ لأنها آية، وكذلك في حديث أبي هريرة رآها قراءة تعليم، ولم يفعل ذلك مع أبي؛ لأنها قصد تخصيص السورة ووسمها من الفضل بما لها، فلم يدخل معها ما ليس منها، وليس هذا القصد في حديث جابر وأبي هريرة، والله أعلم"^(٥).

(١) الحديث أصله في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ولفظ البخاري "أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر، وعمر رضي الله عنهما كانوا يفتتحون الصلاة ب الحمد لله رب العالمين". صحيح البخاري (١/١٤٩).

(٢) حسين الجعفي هو ابن علي بن الوليد أبو عبد الله ويقال أبو محمد الكوفي المقرئ ، قال أحمد ما رأيت أفضل من حسين الجعفي... ، وقيل عنه: كان راهب أهل الكوفة وكان رأسا في القرآن ولد سنة (١١٩هـ) ومات سنة ثلاث أو أربع ومائتين هجرية. طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ١٥٠).

(٣) الحجر: ٨٧.

(٤) الإمام الشافعي: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف، القرشي، وكنيته أبو عبد الله، وُلد عام (١٥٠هـ) في غزة بفلسطين، ونشأ يتيم الأب، حفظ القرآن وعمره سبع سنين ورحل إلى المدينة فأخذ عن الإمام مالك وغيره، وأجازته العلماء بالإفتاء ولم يتجاوز الخامس عشر من عمره، ورحل الى العراق فنصف بها كتبه القديمة، وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل وغيره، ثم استقر في آخر حياته في مصر وصنف كتبه الجديدة، تُوفي بها سنة (٢٠٤هـ). انظر: كتاب منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، لمؤلفه: أبي زكريا يحيى بن إبراهيم بن أحمد بن محمد الأزدي السلماسي (ت: ٥٥٠هـ)، تحقيق: محمود بن عبد الرحمن قدح، الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط: الأولى، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، (ص: ١٩٨)، وسير أعلام النبلاء (١٠ / ٥).

(٥) المحرر الوجيز (١/٤٣).

- مثال تطبيقي آخر من تفسير ابن عطية: "... وُرُوِي أن الله تعالى خلق خلقاً وأمرهم بالسجود لآدم فعصوا فأحرقهم بالنار، ثم خلق آخرين وأمرهم بذلك فعصوا فأحرقهم، ثم خلق الملائكة فأمرهم بذلك فسجدوا. قال القاضي أبو محمد - رحمه الله -: والإسناد في مثل هذا غير وثيق"^(١).

ومن الأمثلة يتبين أن ابن عطية يعتمد في تفسيره على المأثور، فهو يُفسر القرآن بالقرآن، ويذكر الأحاديث والأثار إلا أنه لا يهتم بإسنادها وذكر مصادرها، ويرويها كثيراً بصيغة التمرّيز (رُوي)، وينسب أقوال العلماء إليهم غالباً، وابن عطية ليس مجرد ناقل للنصوص والأثار، بل هو فقيه محقق، وناقد بصير، يناقش الأثار والأقوال بحسب الحاجة، ويوجهها بحسب القواعد العلمية.

ثانياً أمثلة تطبيقية من تفسير الإمام القرطبي:

- مثال يبين طريقة القرطبي في تفسيره بالمأثور واهتمامه بنقل الأثار وعزوها:

في سورة الفاتحة، الباب الثالث في التأمين، المسألة الرابعة، قال رحمه الله:
"الرابعة: معنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب لنا، وُضع موضع الدعاء. وقال قوم: هو اسم من أسماء الله، رُوي عن جعفر بن محمد ومجاهد^(٢) وهلال^(٣) بن يساف ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح، قاله ابن العربي. وقيل معنى

(١) المصدر السابق (١١٦/١).

(٢) مجاهد بن جبر، الإمام، شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، الأسود، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، من أبرز علماء التابعين في التفسير أخذ معظم علمه من ابن عباس، تُوفي بعد المائة للهجرة. وانظر سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤/٤٤٩).

(٣) هلال بن يساف، ويقال إساف، الأشجعي مولاهم، أبو الحسن الكوفي، تابعي أدرك مجموعة من الصحابة منهم علي بن طالب، قال عنه أهل العلم ثقة، واستشهد به البخاري في صحيحه. وانظر كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لمؤلفه: جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن القضاعي، الكلبي، الحلبي، الدمشقي، المزي (ت: ٧٤٢هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، (٣٠/٣٥٥).

بذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين^(١)^(٢)، وقوله أيضاً: "وفي الحديث: (الكيس من دان نفسه)^(٣) أي حاسب"^(٤).

فهذه أحاديث أوردها القرطبي في تفسيره دون ذكر مصدرها!

والذي يظهر للباحث أن القرطبي لم يذكر مصادر هذه الأحاديث؛ لأنها ليست من صميم تفسيره وإنما جاء بها من باب الاستطراد وزيادة التوضيح كما هو حاصل في الأمثلة السابقة، فمثلاً حديث (من شغل بذكرى..) جاء به استطراداً في فضل الحمد والذكر وأنه يجمع لصاحبه الخير كله، وقد أورده في أول تفسيره معزواً إلى مصدره^(٥). وأما حديث: (الكيس من دان نفسه) فنذكره بغير سند ولم يعزه إلى مصدره؛ لأنه أورده كشاهد لغوي عند تفسير (مالك يوم الدين) فنذكر من معاني (الدين): الحساب. واستشهد بالحديث: (الكيس من دان نفسه)، وقد أورد القرطبي هذا الحديث في تفسيره في موضع آخر^(٦) وذكر راويه من الصحابة دون ذكر مصدره!

وقد يكون السبب في عدم ذكر مصادر بعض الأحاديث السهو والنسيان، أو أنه قصد الالتزام بشرطه غالباً وليس في كل حديث يورده. والله أعلم.

(١) شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي أحمد بن الحسين (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، فصل في إدامة ذكر الله عز وجل، رقم ٥٦٧، (٢/ ٩٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٧)، وأورده القرطبي في معرض تفسير قوله تعالى: (الحمد لله).

(٣) الحديث ثابت في سنن أبي داود وابن ماجه وعند أحمد واخرجه الترمذي من حديث شداد بن أوس، وقال عنه حديث حسن. سنن الترمذي، رقم ٢٤٥٩، (٤/ ٦٣٨).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٤٥)، وأورده القرطبي في معرض تفسيره لقوله تعالى (مالك يوم الدين) في سورة الفاتحة.

(٥) أورده القرطبي في باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه... فقال رحمه الله "وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب: فأول ذلك ما خرجه الترمذي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الرب تبارك وتعالى: من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته ما أعطي السائلين". الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٤٤).

(٦) أورد الحديث في تفسيره لسورة الجاثية عند قوله تعالى: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)، فقال رحمه الله: "وقال شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله". الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٧).

وعلى العموم فالقرطبي التزم بشرطه في عزو الأحاديث إلى مصنفها بالغالب وليس على الدوام، وكان في تفسيره أكثر اهتمامًا بالحديث من ابن عطية.

المطلب الثالث

المقارنة بين التفسيرين بالقراءات

تعريف القراءات:

القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقل^(١). وقيل: القراءات جمع قراءة وهي في اللغة مصدر سماعي لقراء، وفي الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها^(٢).

والقراءات على ضربين متواتر وشاذ، فكل قراءة وافقت العربية مطلقاً، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً، وتواتر نقلها، فهذه قراءة متواترة مقطوع بها، وإذا اختلف أحد الشروط الثلاثة فهي قراءة شاذة، والقراءة الشاذة لا تعتبر قرآناً ولا يجوز الصلاة بها، وإن صح سندها فلها حكم حديث الأحاد، وإذا لم يصح سندها فليست بشيء^(٣).

ولقد استقر علم القراءات على أربع عشرة قراءة، منها سبع متواترة مشتهرة معروفة بالقراءات السبع، ثم ثلاث قراءات تنتمي العشر وهي متواترة أيضاً، لكنها أقل شهرة وانتشاراً من القراءات السبع، ثم أربع شاذة.

(١) منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لمؤلفه: ابن الجزري، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، عام ١٤٢٠هـ -

١٩٩٩م، (ص: ٩).

(٢) مناهل العرفان للزرقاني (١/ ٣٣٦).

(٣) منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري (ص: ١٨).

واختلاف القراءات ليس اختلاف تضاد وتعارض وليس مجالاً للتدخل البشري، كما حصل للكتب السماوية السابقة التي حُرِّفت، وإنما هو اختلاف في الشكل والهيئات والأداء في بعض الألفاظ مما يزيد القرآن وضوحاً ومعنى، وثبت ثبوتاً أكيداً في الشرع^(١).

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في التفسير بالقراءات:

اتفق شرط ابن عطية والقرطبي في نقل القراءات، فنقلا القراءات المتواترة والشاذة وتوسعا في ذلك، والمفسران يوجهان القراءات، ويستشهدان بكلام العرب وشعرهم، وينقلان القراءات عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من القراء، والمفسران لم يكونا مجرد ناقلين فحسب، بل لهما تعليقات وتحقيقات في القراءات وغيرها من أبواب التفسير، والكتابان يُعدان من مصادر القراءات المهمة.

وجوه الافتراق بين التفسيرين في التفسير بالقراءات:

ليس هناك فرق حقيقي بين التفسيرين في نقل القراءات والتفسير بها، وإن كان القرطبي امتاز بشكل عام في ترتيب تفسيره والتوسع فيه أكثر من ابن عطية، ففي القراءات تجده في بعض المواطن يذكر القراءات الواردة بترتيب أحسن من ابن عطية، وأحياناً يتوسع في توجيه القراءات لُغويًا أكثر من ابن عطية^(٢).

أمثلة تطبيقية:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

(١) القراءات السبع هي المنسوبة إلى الأئمة السبعة: نافع وعاصم وحزمة وعبد الله بن عامر وعبد الله بن كثير وأبو عمرو بن العلاء وعلي الكسائي، والقراءات العشر هي هذه السبع وزيادة قراءات هؤلاء الثلاثة: أبي جعفر ويعقوب وخلف، والقراءات الأربع الشاذة المتممة لأربع عشرة قراءة هي قراءة الحسن البصري وابن مُحيصن ويحيى اليزيدي والشنوبذي. انظر: مناهل العرفان، للزرقاني (١/ ٣٣٩).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٥١، ٦١)، و الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٧، ١٥٠).

(٣) الفاتحة: ٢

فعل. ويُقال: (الحمْدُ لله) بالرفع مبتدأ وخبر. وسبيل الخبر أن يفيد، فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدتُ الله حمداً، إلا أن الذي يرفع (الحمد) يُخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله، والذي ينصب (الحمد) يُخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه إنما يتكلم بهذا تعرضاً لعفو الله ومغفرته وتعظيماً له وتمجيذاً، فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفي الحديث: (من شغل بذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين)^(١). وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه وثناءه عليها ليعلم ذلك عباده، فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري: الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله، وعلى هذا يجيء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه... وهذا كثير. ورُوي عن ابن أبي عبلة: (الحمْدُ لله) بضم الدال واللام على إتباع الثاني الأول، وليتجانس اللفظ، وطلب التجانس في كلامهم كثير... ورُوي عن الحسن بن أبي الحسن وزيد بن علي: (الحمْدُ لله) بكسر الدال على إتباع الأول الثاني^(٢).

والقرطبي يُرتب غالباً، فمثلاً يقول: "وفي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ﴿٣﴾ عشر لغات قرئ بعامتها..."^(٤) ثم يفصلها، بينما ابن عطية يذكرها في تفسيره مبثوثة دون أن يُبين كم فيها لغات^(٥).
و بهذا يتضح أن المفسرين يتوسعان في نقل القراءات المتواترة والشاذة منسوبة إلى من سبقهما من السلف، مع ذكر توجيهها ومعناها غالباً، والقرطبي أكثر توسعاً وأحسن ترتيباً.

(١) الحديث أخرجه البيهقي وغيره وقد سبق تخريجه انظر ص: ١٥٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/١٣٧).

(٣) الفاتحة: ٧

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/١٥٠).

(٥) المحرر الوجيز (١/٦١)

المطلب الرابع

المقارنة في التفسير بلغة العرب

لقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٤﴾ . ولهذا لا يُمكن فهم القرآن الكريم وتفسيره بغير لغة العرب الفصيحة التي نزل بها، ومن حاول ذلك وقع في الخلل والخطل، وقد كان المفسر لا يشرع في التفسير حتى يكون عالماً باللغة العربية، وقد كان المفسران ابن عطية والقرطبي من العلماء البارعين في اللغة العربية، ومن تأمل تفسيرهما عرف ذلك، والتفسيران (المحرر الوجيز والجامع لأحكام القرآن) مشحونان باللغة العربية من إعراب واشتقاق وشواهد نحوية وأبيات شعرية، مما له علاقة في تفسير الآيات. فقد كان المفسران يحتكمان للغة كثيراً.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في التفسير بلغة العرب:

اشترط المفسران على نفسيهما التفسير وفق اللغة العربية، قال ابن عطية -رحمه الله- في مقدمة كتابه: "وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح- رضوان الله عليهم- كتاب الله من مقاصده العربية السليمة... وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم، أو نحو، أو لغة... وقصدت تتبع الألفاظ... واعتمدت تبين المعاني وجميع احتمالات الألفاظ..."^(٢)، وذكر الإمام القرطبي في شرطه نحو ذلك فقال: "بأن أكتب تعليماً وجيزاً، يتضمن نكثاً من التفسير واللغات، والإعراب... ، مسائل نبين فيها ما

(١) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥

(٢) المحرر الوجيز (١٠/١ - ١١).

تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب...^(١)، وقد التزما المؤلفان ذلك فلا تكاد تمر مسألة في تفسيريهما إلا ويحتكمان إلى اللغة العربية ويستشهدان بها، فهما يحتكمان إلى اللغة العربية ويذكران الإعراب واشتقاق بعض الكلمات وتفسير المفردات الغريبة، ويستشهدان بكلام العرب شعراً ونثراً في مواطن كثيرة.

وجوه الافتراق بين التفسيرين بالتفسير بلغة العرب:

لا يكاد يُوجد افتراقاً بين التفسيرين، إلا أنّ القرطبي كعادته أكثر توسعاً من ابن عطية في بعض المواضع، ومن ذلك توجيهه القراءات لغوياً ففي بعض المواضع نجد أنه يتوسع أكثر من ابن عطية، وقد ذكرنا ذلك في المطلب السابق (المقارنة بين التفسيرين بالقراءات)، كما أن القرطبي أحياناً يتحدث عن أصل الكلمة واشتقاقها أكثر من ابن عطية، ويتوسع في الشواهد الشعرية.

أمثلة تطبيقية:

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"(اسكن) معناه لازم الإقامة ولفظه لفظ الأمر ومعناه الإذن، و (أنت) تأكيد للضمير الذي في (اسكن)، و(زوجك) عطف عليه والزوج امرأة الرجل وهذا أشهر من زوجة وقد تقدم، و(الجنة) البستان عليه حظيرة... و(الرغد) العيش الدَّارُ الهَنِيُّ الذي لا عناء فيه، ومنه قول امرئ القيس^(٣):

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٢-١٣).

(٢) البقرة: ٣٥

(٣) امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يمني الأصل، مولده بنجد، اشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه، وكان أبوه ملك بني أسد وغطفان، وأمّه أخت المهلهل الشاعر، ومنه تعلم الشعر، مولده قبل الهجرة ب (١٣٠ سنة) ووفاته قبل الهجرة ب(٨٠ سنة) تقريباً بأنقرة من بلاد الروم بسبب قروح أصابت جسمه، ولذا من ألقابه (ذو القروح). انظر: كتاب الشعر والشعراء، لمؤلفه أبي محمد عبد الله بن مسلم بن

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا *** يَا مَنُ الْأَخْدَاتِ فِي عَيْشِ رَغْدٍ^(١)

و(رغدا) منصوب على الصفة لمصدر محذوف وقيل هو نصب على المصدر في موضع الحال، و(حيث) مبنية على الضم ومن العرب من يبينها على الفتح ومن العرب من يعربها حسب موضعها بالرفع والنصب والخفض... ومن العرب من يقول حوث... وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ معناه لا تقرباها بأكل، لأن الإباحة فيه وقعت. قال بعض الحذاق: إن الله لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظة تقتضي الأكل وما يدعو إليه وهو القرب. قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه وهذا مثال بين في سد الذرائع... «(٢)».

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره للآية:

"... فيه ثلاث عشرة مسألة: الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ ﴾...

﴿ اسْكُنْ ﴾، أي لازم الإقامة واتخذها مسكناً، وهو محل السكون. وسكن إليه يسكن سكوناً. والسكن: النار، قال الشاعر:
قَدْ قُومَتْ بِسَكْنٍ وَأَدْهَانٍ^(٣).
والسكن: كل ما سكن إليه. والسكين معروف، سُمي به؛ لأنه يسكن حركة المذبوح، ومنه المسكين لقلة تصرفه وحركته.

قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، الناشر: دار الحديث، القاهرة، عام ١٤٢٣هـ، (١/١٠٧)، والأعلام للزركلي (٢/ ١١). وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار). مسند أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم ٧١٢٧، (٢٧/١٢).

(١) البت ذكره الطبري في تفسيره. انظر: جامع البيان، للطبري (١/٥١٥).

(٢) المحرر الوجيز (١/١١٧).

(٣) السكن بالتحريك: النار، قال الشاعر: يصف قناة تقفها بالنار والدهن: أقامها بسكن وأدهان. وهذا شطر بيت استشهد به على ذلك ولم يذكر قائله. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/٢١٣).

الثانية: في قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج؛ لأن السكنى لا تكون ملك، ولهذا قال بعض العارفين: السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع، فدخلهما في الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامة...

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَرَوْجُكَ﴾ (أنت) تأكيد للمضمر الذي في الفعل، ومثله ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾. ولا يجوز اسكن وزوجك، ولا اذهب وربك، إلا في ضرورة الشعر، كما قال (١):

قُلْتُ إِذْ أَقْبَلْتُ وَزُهْرٌ تَهَادَى *** كِنِعَاجِ الْمَلَا تَعَسَّفَنَ رَمَلًا (٢)

ف (زهر) معطوف على المضمر في (أقبلت) ولم يؤكد ذلك المضمر. ويجوز في غير القرآن على بُعد: قم وزيد.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَرَوْجُكَ﴾ لغة القرآن (زوج) بغير هاء، وقد جاء في صحيح مسلم: (زوجة)... عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فجاء فقال: (يا فلان هذه زوجتي فلانة)، فقال يا رسول الله، من كنت أظن به فلم أكن أظن بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم) (٣). وزوج آدم عليه السلام هي حواء عليها السلام... السادسة: قوله تعالى: (وكلا منها رغدا حيث شئتما)... و(الرغد): العيش الدار الهني الذي لا عناء فيه، قال (٤):

(١) القائل: عمر ابن أبي ربيعة. انظر: كتاب: اللع في العربية، لمؤلفه: أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت:

٣٩٢هـ)، تحقيق: فائز فارس، الناشر: دار الكتب الثقافية، الكويت، (ص: ٩٦).

(٢) قال ابن جني: " العطف على الضمير: فان كَانَ الْمُضْمَرُ مَرْفُوعًا مُتَّصِلًا لَمْ تَعُطِفْ عَلَيْهِ حَتَّى تُؤَكِّدَهُ تَقُولُ قُمْ أَنْتَ وَزَيْدٌ وَلَوْ قُلْتَ قُمْ وَزَيْدٌ مِنْ غَيْرِ تَوْكِيدٍ لَمْ يَحْسَنْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (اسكن أنت وزوجك الجنة)، وَرَبِّمَا جَاءَ فِي الشَّعْرِ غَيْرَ مُؤَكَّدٍ قَالَ عُمَرُ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ:

قُلْتَ إِذْ أَقْبَلْتَ وَزُهْرٌ تَهَادَى... كِنِعَاجِ الْمَلَا تَعَسَّفَنَ رَمَلًا. اللع في العربية، لابن جني، (ص: ٩٦).

(٣) صحيح مسلم، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، رقم ٢١٧٤، (٤/١٧١٢).

(٤) القائل: امرؤ القيس كما ورد في تفسير الطبري (١/٥١٥)، وتفسير ابن عطية (١/١١٧).

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا *** يَاْمُنُ الْأَخْدَاتَ فِي عَيْشِ رَغْدٍ (١)

ويُقال: رَغْدٌ عيشهم ورغِدٌ (بضم الغين وكسرهما). وأرغد القوم: أخصبوا وصاروا في رغد من العيش. وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف، وحيثٌ وحيثٌ وحيثٌ، وحوثٌ.. كلها لغات، ذكرها النحاس^(٢) وغيره^(٣).

ومن نظر في تفسيري ابن عطية والقرطبي، تبين له أنهما من أئمة اللغة العربية، وتفسيرهما مشحون بكلام العرب، فلا يكاد يخلوا موضع من تفسيرهما إلا ويحتكمان فيه إلى اللغة، فالتفسيران مليئان بالشواهد النحوية والبلاغية، والإعراب ومعاني الألفاظ ودلالاتها، واشتقاق الكلمات وأصولها، مع توسع الإمام القرطبي أكثر من ابن عطية في بعض المواضع.

(١) سبق الكلام على البيت وأن القائل هو امرؤ القيس.

(٢) قال النحاس: "حيث شئتما (حيث) مبنية على الضم؛ لأنها خالفت أخواتها من الظروف في أنها لا تضاف فأشبهت قبل وبعد إذا أفردتا فضمت. وحكى سيبويه: أن من العرب من يفتحها على كل حال. قال الكسائي: الضم لغة قيس وكنانة والفتح لغة بني تميم. قال الكسائي: وبنو أسد يخفضونها في موضع الخفض وينصبونها في موضع النصب. قال: (سنسندرجهم من حيث لا يعلمون) ويضم ويفتح ويقال: حوث". انظر: إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت: ٣٣٨هـ)، تعليق: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢١هـ، (١/ ٤٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٧٩/١)

المطلب الخامس

المقارنة في القصص والإسرائيليات

الإسرائيليات هي ما نُقل إلينا في التفسير والحديث من قصص وحوادث وأساطير مصدرها أهل الكتاب ممن أسلم وخالط الصحابة والتابعين^(١)، وقد أجاز الشرع نقل الحديث عن بني إسرائيل، قال عليه الصلاة والسلام: (بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار)^(٢)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾^(٣) الآية)^(٤)، وقد اختلف حال المفسرين في نقل الإسرائيليات والقصص، فمنهم المُكثر ومنهم المُقل، ومنهم من ينتقي ويتحرى ومنهم من ينقلها دون تحر وتنبيه، وأمّا المفسران ابن عطية والقرطبي، فقد اشترطا ترك القصص إلا ما لا ينفك معنى الآية إلا به، فهما من المقلين في نقل القصص والإسرائيليات، مع التنبيه عليها غالباً، وأمّا عن حُكم تلك الإسرائيليات والقصص فهي من باب الاستئناس والمعرفة ولا يُبنى عليه حُكم، وما وافق الشرع فهو مقبول وما خالفه فهو مردود^(٥).

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في ذكر الإسرائيليات والقصص:

-
- (١) ومدار معظم الإسرائيليات أربعة أشخاص: هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج. انظر: مباحث في علوم القرآن، لِمناح القطان، الإسرائيليات (ص: ٣٦٦).
- (٢) صحيح البخاري، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٣٤٦١، (٤/ ١٧٠).
- (٣) البقرة: ١٣٦
- (٤) صحيح البخاري، باب (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا)، رقم ٤٤٨٥، (٦/ ٢٠).
- (٥) انظر: كتاب الإسرائيليات في التفسير والحديث، لمؤلفه: محمد حسين الذهبي، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الرابعة، عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (ص: ١٣).

اتفق المفسران ابن عطية والقرطبي في شرطهما بترك القصص إلا ما كان لازماً لبيان معنى الآية، قال القاضي ابن عطية -رحمه الله- في مقدمة تفسيره موضعاً لمنهجه وخطته: "لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به"^(١)، وقال الإمام القرطبي -رحمه الله-: "وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين"^(٢)، وعلى هذا فالمفسران تركا وأعرضا عن كثير من القصص والإسرائيليات، ومما يتفق فيه المفسران الانتقاء من القصص ما يقرب إلى الصحيح مما يناسب ألفاظ الآيات وروح الشريعة وحسن الإسناد، وما كان ضعيفاً وقليل الفائدة فيعرضان عنه أو ينبهان عنه وما كان مخالفاً للشريعة فإنهما ينقدانه.

وجوه الافتراق بين التفسيرين في ذكر الإسرائيليات والقصص:

لا يوجد فرق حقيقي بين التفسيرين، إلا أن القرطبي أكثر استدلالاً في الرد على القصص المخالفة، كما فعل في بعض المواضع^(٣).

أمثلة تطبيقية:

قصة رفع الطور فوق بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ

خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤)

قال ابن عطية -رحمه الله- في تفسيره:

(١) انظر: المحرر الوجيز (١٠/١ - ١١).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/١٢-١٣).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١/١٨٣)، و الجامع لأحكام القرآن (٢/٤٧٠).

(٤) البقرة: ٦٣

"وقصص هذه الآية أن موسى -عليه السلام- لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله تعالى بالألواح فيها التوراة، قال لهم: خذوها والتزموها، فقالوا: لا إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك، فصنعوا، ثم أحيوا، فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا، فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين^(١)، طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم، وأضرم نارا بين أيديهم، فأحاط بهم غضبه، وقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم البحر وأحرقتم النار، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق... قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله: والذي لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمان في قلوبهم؛ لأنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة، وقد اختصرت ما سرد في قصص هذه الآية، وقصدتُ أصحها الذي تقتضيه ألفاظ الآية، وخلط بعض الناس صعقة هذه القصة بصعقة السبعين^(٢).

قال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

"القول في سبب رفع الطور: [اقتصر القرطبي بالقصة التي أوردها ابن عطية من رفع الجبل وأخذ الميثاق، واستشهد بابن عطية^(٣)]."

مثال آخر: قصة هاروت وماروت، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلَكٍ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ مِّن شَيْءٍ وَلَا يَتْلُونَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلَكٍ سُلَيْمَانَ ۚ﴾

(١) فلسطين: بالكسر ثم الفتح، وسكون السين، وطاء مهملة، وآخره نون وهي آخر كور الشام من ناحية مصر، قصبته البيت المقدس، ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونبلس وأريحا وعمان ويافا وبيت جبرين، وأكثرها جبال والسهل فيها قليل، وقيل: إنها سُميت بفلسطين بن سام بن إرم بن سام بن نوح، عليه السلام، وقيل غير ذلك. معجم البلدان (٤/ ٢٧٤)

(٢) المحرر الوجيز (١/ ١٥١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٩٥).

نقل المفسران في هاروت وماروت أقوالاً: فقيل: أنهما ملكان -بكسر اللام من الملك- واستدلوا بقراءة وردت بالكسر، واختلفوا في تعيين الملكين فقيل: هما داوود وسليمان -عليهما السلام-، وقيل: هما عِلْجان^(٢) ملكا بابل^(٣)، والقول الثاني: أنهما ملكان -بفتح اللام من الملائكة- أنزلهما الله من السماء اختباراً لهما وفتنة للناس وذكر القصة الآتية، وعلقا عليها بعدم الصحة:

قال القاضي ابن عطية -رحمه الله- في تفسيره:

"وروى من قال إنهما ملكان أن الملائكة مقتت حُكَّام بني إسرائيل وزعمت أنها لو كانت بمثابتهم من البعد عن الله لأطاعت حق الطاعة، فقال الله لهم: اختاروا ملكين يحكمان بين الناس، فاختاروا هاروت وماروت، فكانا يحكمان، فاختصمت إليهما امرأة ففتنا بها فراودها، فأبت حتى يشربا الخمر ويقتلا، ففعلا، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلمها إياه، فتكلمت به فخرجت، فمُسخت كوكباً فهي الزهرة، وكان ابن عمر يلعبها. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف وبعيد على ابن عمر رضي الله عنهما، وروي أن الزهرة نزلت إليهما في صورة امرأة من فارس فجرى لهما ما ذكر، فأطلع الله عز وجل الملائكة على ما كان من هاروت وماروت، فتعجبوا، وبقيت في الأرض؛ لأنهما خيرا بين عذاب الآخرة وعذاب الدنيا فاختارا عذاب الدنيا... قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القصص يزيد في بعض الروايات وينقص في بعض، ولا يقطع منه بشيء، فلذلك اختصرته"^(٤).

قال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

(١) البقرة: ١٠٢
(٢) العلاج: يطلق على عدة أشياء منها الرجل العجمي، والكافر، وحمار الوحش، والرجل الشديد الغليظ، وغير ذلك، وهو من المعالجة، وجمعه: أعلاج وعلوج. انظر: مجمل اللغة، لابن فارس (ص: ٦٢٥)، ولسان العرب، لابن منظور (٣٢٦ / ٢).
(٣) بابل: اسم ناحية منها الكوفة والحلة، ينسب إليها السحر والخمر. معجم البلدان (١ / ٣٠٩).
(٤) المحرر الوجيز ١ / ١٨٣.

"وقد روي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدي والكلبي ما معناه: أنه لما كثر الفساد من أولاد آدم عليه السلام - وذلك في زمن إدريس عليه السلام - عيرتهم الملائكة، فقال الله تعالى: أما إنكم لو كنتم مكانهم، وركبت فيكم ما ركبت فيهم لعلتم مثل أعمالهم، فقالوا: سبحانك! ما كان ينبغي لنا ذلك، قال: فاختروا ملكين من خياركم، فاختروا هاروت وماروت، فأنزلهما إلى الأرض فركب فيهما الشهوة، فما مر بهما شهر حتى فتنا بامرأة... اختصمت إليهما، وراودها عن نفسها فأبت إلا أن يدخلها في دينها ويشرب الخمر ويقتل النفس التي حرم الله، فأجابها وشرب الخمر وألما بها، فرأهما رجل فقتلاه، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلمها فتكلمت به فخرجت فمُسخت كوكبًا... قلنا: هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره، لا يصح منه شيء، فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه، وسفراؤه إلى رسله... [وسرد القرطبي الأدلة في عصمة الملائكة وطاعتهم، وقرر تجويز اختبار الله للملائكة وفتنتهم، ولكن لا يدرك ذلك إلا بالسمع الصحيح الصريح]"^(١).

مثال: في التعقيب والملاحظة على الروايات التي لا تعتمد على دليل صحيح وقد تكون من الإسرائيليات وأخبار القصاص، قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:
"والبسملة تسعة عشر حرفا. فقال بعض الناس: إن رواية بلغتهم أن ملائكة النار الذين قال الله فيهم ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾^(٢) إنما ترتب عددهم على حروف بسم الله الرحمن الرحيم، لكل حرف ملك، وهم يقولون في كل أفعالهم: بسم الله الرحمن الرحيم. فمن هنالك هي قوتهم، وباسم الله استضلعوا.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهذه من مَلَحِ التفسير، وليست من متين العلم..."^(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/٤٧٠).

(٢) المدثر: ٣٠

(٣) المحرر الوجيز (١/٤٤).

ونقل القرطبي في تفسيره قول ابن عطية بنصه مُستحسنًا له^(١).
والملاحظ من خلال الأمثلة السابقة، وغيرها، أنّ ابن عطية والقرطبي سلكا مسلكًا واحدًا
في اجتناب القصص إلا عند الحاجة لتبين المعنى، ومع هذا فهما ينتقيان من القصص
ويختصران وينبهان على الضعيف ومالا ينبغي، وهذا هو المنهج العام للمفسرين.

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩٧/١).

المطلب السادس

المقارنة في ذكر أسباب ومكان النزول

القرآن الكريم قسمان: قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق، وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان، وقسم نزل مُرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة وهذا ما يسميه العلماء سبب النزول، ومثال ذلك: حادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى بتوضيح تلك الحادثة أو بجواب ذلك السؤال، فيسميه العلماء سبب نزول الآية، وقد اهتم العلماء من السلف والخلف بهذا العلم ابتداءً من عهد الصحابة رضوان الله عليهم ثم التابعين كممارسة عملية، وذلك؛ لأنه يُساعد في فهم الآيات وترجيح بعض المعاني على بعض، ثم أفرده جماعة من أهل العلم بالتأليف كالواحدي في كتاب سماه أسباب النزول^(١)، والسيوطي الذي وضع فيه كتاباً حافلاً مُحرراً سماه لُباب النقول في أسباب النزول^(٢). ويدخل تحت علم (أسباب النزول) مكان وزمن النزول، وهذا العلم يُفيد في فهم المعاني والأحكام الشرعية، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وفقه الدعوة والسيرة، وقد اهتم العلماء بهذا العلم وتوسعوا كثيراً، وذكروا تقسيمات وأنواع عديدة في تفصيل زمن ومكان نزول الآيات، أشهرها تقسيم القرآن إلى مكّي ومدني، وأحسن ما قيل في المكّي والمدني والتفريق بينهما أنّ ما نزل قبل الهجرة فهو مكّي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني^(٣).

(١) والكتاب مطبوع عدة طبعات، منها طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١١هـ، في مجلد واحد، بتحقيق: كمال بسيوني زغلول.

(٢) والكتاب مطبوع عدة طبعات منها طبعة: دار إحياء العلوم - بيروت، في مجلد واحد.

(٣) فضائل القرآن لابن كثير، الناشر: مكتبة ابن تيمية، ط: الأولى، عام ١٤١٦هـ، (ص: ٣٧)، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/ ١٨٧)، ومناهل العرفان، للزرقاني (١/ ٨٩).

والمفسران ابن عطية والقرطبي ممن اهتم بهذا العلم، وذكرنا أسباب النزول والمكي والمدني وبعض التفاصيل المتعلقة بهذا العلم سواء في مطلع السور أو عند تفسير الآيات التي لها أسباب وحوادث نزلت بشأنها.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في ذكر أسباب ومكان النزول:

التفسيران متشابهان، فهما يذكران أماكن النزول ببيان المكي والمدني حيث وُجدَ ذلك، وغالبًا ما يذكران ذلك في مطلع السور، كما يذكران أسباب نزول السور والآيات حيث وُجد، وإذا ورد خلاف في أسباب النزول يذكران الأقوال ويرجحان غالبًا.

وجوه الافتراق بين التفسيرين بذكر أسباب ومكان النزول:

لا يكاد يوجد فرقاً حقيقياً بين التفسيرين في الاهتمام بذكر أسباب ومكان نزول السور والآيات، وما ذكره ابن عطية فإن القرطبي لم يغفله، بل أحياناً يزيد عليه ويفيد فيه، كما أن القرطبي يذكر المصادر التي نقل منها أكثر من ابن عطية^(١).

أمثلة تطبيقية:

(سورة الفاتحة):

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"... قال ابن عباس، وموسى بن جعفر^(٢) عن أبيه، وعلي بن الحسين، وقتادة، وأبو

العالية، ومحمد بن يحيى بن حبان^(١): إنها مكية، ويؤيد هذا أن في سورة الحجر ﴿وَلَقَدْ

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤٩/١، ٦٧، ٤٩٠)، والجامع لأحكام القرآن (١/ ١١٩، ١٥٣، ٤٩٠).

(٢) موسى الكاظم أبو الحسن، ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر، (سابع الأئمة الاثني عشر، عند الإمامية)، كان من سادات بني هاشم، ومن أعبد أهل زمانه، وأحد كبار علماء المسلمين الأجواد، وُلد في الأبواء (قرب المدينة) وسكن المدينة، فأقدمه المهدي العباسي إلى بغداد خوفاً من أن يبايعه الناس، ثم رده إلى المدينة، وبلغ الرشيد أن الناس يبايعون للكاظم فيها، فحبسه في البصرة ثم في بغداد إلى أن تُوفي فيها سجيناً، وقيل: قُتل، وكان مولده عام ١٢٨هـ، ووفاته سنة (١٨٣هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (٦/ ٢٧٠)، والأعلام، للزركلي (٧/ ٣٢١).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"الثانية: اختلفوا أهي مكة أم مدنية؟ فقال ابن عباس وقتادة وأبو العالية الرِّيَاحِيّ واسمه رُفَيْعٌ وغيرهم: هي مكة. وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري وغيرهم: هي مدنية. ويُقال: نزل نصفها بمكة، ونصفها بالمدينة. حكاها أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي في تفسيره^(٢). والأول أصح لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(٣)، والحجر مكة بإجماع. ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة. وما حُفِظَ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير (الحمد لله رب العالمين)، يدل على هذا قوله عليه السلام: (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب)^(٤)... ، اختلاف الناس في أول ما نزل من القرآن فقيل: المدثر، وقيل: اقرأ، وقيل: الفاتحة،... وقد بينا أن نزولها (الفاتحة) كان بمكة نزل بها جبريل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٥) وهذا يقتضي جميع القرآن فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ونزل الملك بثوابها بالمدينة. والله أعلم.

وقد قيل: إنها مكة مدنية نزل بها جبريل مرتين حكاها الثعلبي. وما ذكرناه أولى. فإنه جمع بين القرآن والسنة والله الحمد والمنة^(٦).

مثال آخر نزول سورة البقرة.

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

(١) المحرر الوجيز (٤٩/١).

(٢) قال السمرقندي في تفسيره الفاتحة: "ويقال نصفها نزل بمكة ونصفها نزل بالمدينة". فروى ذلك بصيغة التمريض بغير دليل ولا عزو، وذكر قبله أقوالاً أخرى. انظر: بحر العلوم، للسمرقندي (١/١٥).

(٣) الحجر: ٨٧

(٤) الحديث أصله في الصحيحين ونصه (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) أخرجه البخاري من حديث عبادة بن الصامت، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت ، رقم ٧٥٦، (١/١٥١).

(٥) الشعراء: ١٩٣

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/١١٩).

"هذه السورة مدنية، نزلت في مُدَد شتّى، وفيها آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١) ﴿٢﴾.

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"تفسير سورة البقرة، بحول الله وكرمه، لأربّ سواه: وأول مبدوء به الكلام في نزولها وفضلها وما جاء فيها، وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك، فنقول: سورة البقرة مدنية، نزلت في مُدَد شتّى. وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فإنه آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى، وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن" (٣).

مثال في أسباب نزول الآيات:

قال تعالى: ﴿إِن مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤).

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"وذكر ابن عباس وقتادة وعكرمة والسدي وغيرهم قالوا سبب نزول قوله تعالى: (إن مثل عيسى) الآية، أن وفد نصارى نجران جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم في أمر عيسى وقالوا بلغنا أنك تشتم صاحبنا وتقول هو عبد. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وما يضر ذلك عيسى؟! أجل هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فقالوا: فهل رأيت

(١) البقرة: ٢٨١

(٢) المحرر الوجيز (٦٧/١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٥٣/١).

(٤) آل عمران: ٥٩

أن صدر سورة آل عمران إلى نيف وثمانين آية نزلت في وفد نجران، وكلامهما في ذلك لا يكاد يختلف وكأنهما نقلًا للكلام من مصدر واحد أو أن القرطبي نقل الكلام من ابن عطية بنصه وزاد قليلاً. وهذا نص الإمام القرطبي:

"الخامسة: صدر هذه السورة نزل بسبب وفد نجران...، وكانوا نصارى وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في ستين راكبا،... ثم أقاموا بها أياما يناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى ويزعمون أنه ابن الله، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة، ورسول صلى الله عليه وسلم يرد عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبصرون، ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة، حسب ما هو مذكور في سيرة ابن إسحاق^(١) وغيره"^(٢).

ومن خلال الأمثلة السابقة وغيرها يتضح أن المُفسرين اهتموا بذكر المكي والمدني وأسباب نزول السور والآيات.

(١) محمد بن إسحاق بن يسار، وكنيته: أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، القرشي، المطلبي بالولاء - كان جده يسار من سبي عين التمر، من أهل المدينة، حافظ أخباري، أول مؤرخ عربي، له كتاب السيرة النبوية، ومن بعده عيال عليه لاسيما في المغازي، أثنى عليه معظم العلماء، وأمسك عنه آخرون واتهموه بالتشيع والقدر. وُلد عام (٨٠هـ) وتوفي سنة (١٥١هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٣٣/٧)، والأعلام، للزركلي (٢٨/٦هـ).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣٨١/٤)، والمحرم الوجيز (٤٢٩/١). والكلام الذي نقله القرطبي موجود بالمعنى في سيرة ابن هشام، بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة، (١٦٥/٢).

المطلب السابع

المقارنة في ذكر الناسخ والمنسوخ

علم الناسخ والمنسوخ علم هام في الشريعة، ولا يمكن أن يستغني عنه المفسر أو عالم الشريعة، والجهل بعلم الناسخ والمنسوخ جهل بالشريعة، والمتصدر للتفسير والإفتاء إذا لم يعرف الناسخ من المنسوخ، فقد هلك وأهلك.

وقد ورد في الأثر أن علياً -رضي الله عنه- مرَّ بقاص، فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: هلكت وأهلكت. ومر بآخر، قال: ما كنيته؟ قال: أبو يحيى. قال: بل أنت أبو عرفوني^(١).

وفي هذا دلالة واضحة على أهمية هذا العلم، واهتمام علماء السلف والخلف به، وأن من الواجب على من تصدر للحديث عن القرآن وأحكام الشرع أن يعرف الناسخ والمنسوخ، ومن جهل ذلك فقد أهلك نفسه بالقول على الله بغير حق وأهلك غيره بإضلالهم والتلبيس عليهم، لأن من جهل الناسخ والمنسوخ سيخطئ في أحكام الشرع ويضرب الأدلة بعضها ببعض، ويخالف سبيل المؤمنين وينتهك إجماعهم، سالماً الشذوذ مخالفاً بذلك العلماء الراسخين مُتهماً لهم بالقصور، لقصر علمه وفَرط جهله، ومع ذلك يظن أنه على الصراط المستقيم؛ لأنه وجد آية أو حديثاً موافقاً لظنه!

وكم من متصدر اليوم هذا حاله! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد ذكر ابن عطية والقرطبي كلاماً شافياً في تعريف الناسخ والمنسوخ وذكرنا أبرز قواعده وأحكامه، والآيات المنسوخة والناسخة.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في ذكر الناسخ والمنسوخ:

(١) مصنف عبد الرزاق الصنعاني، لمؤلفه: أبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، (ت: ٢١١هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، ط: الثانية، عام ١٤٠٣هـ، (٣/٢٢٠).

المفسران ابن عطية والقرطبي يذكران الناسخ والمنسوخ، وما ورد من الاختلاف في ذلك،
ويناقشان ويرجحان غالباً.

وجوه الافتراق بين التفسيرين في ذكر الناسخ والمنسوخ:

لا يكاد يوجد فرق إلا أن القرطبي أكثر توسعاً واستطراداً، لاسيما في المسائل الفقهية
وذلك؛ لأنه كتاب فقهي، كما أنه أكثر دقة في نقل الآثار من ابن عطية وأحسن في ترتيبه
للأقوال والمسائل.

أمثلة تطبيقية:

ذكر المفسران كلاماً نفيساً مختصراً في تلخيص أحكام الناسخ والمنسوخ وقواعده عند
تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ ﴾^(١) وسنذكر هنا أبرز تلك الأحكام والقواعد:

تعريف النسخ والناسخ عند المفسرين:

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"وقوله تعالى ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ الآية، النسخ في كلام العرب على وجهين:
أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر، والثاني الإزالة، فأما الأول فلا مدخل له في هذه
الآية... وأما الثاني الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية، وهو منقسم في اللغة على
ضربين: أحدهما يثبت الناسخ بعد المنسوخ كقولهم نسخت الشمس الظل، والآخر لا يثبت
كقولهم نسخت الريح الأثر^(٢). وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين. والناسخ
حقيقة هو الله تعالى. ويُسمى الخطابُ الشرعي ناسخاً إذ به يقع النسخ. وحد الناسخ عند

(١) البقرة: ١٠٦

(٢) انظر: كتاب: تهذيب اللغة، للأزهري (٧/ ٨٤)، والمحرر الوجيز (١/ ١٨٨).

حذاق أهل السنة: الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه^(١)»^(٢).

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

" الثالثة: النسخ في كلام العرب على وجهين: أحدهما- النقل، كنقل كتاب من آخر. وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً، أعني من اللوح المحفوظ وإنزاله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وهذا لا مدخل له في هذه الآية... الثاني: الإبطال والإزالة، وهو المقصود هنا، وهو منقسم في اللغة على ضربين: أحدهما: إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه، ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾... قال ابن فارس^(٣): النسخ نسخ الكتاب، والنسخ أن تزيل أمراً كان من قبل يُعمل به ثم تنسخه بحادث غيره، كالأية تنزل بأمر ثم ينسخ بأخرى. وكل شيء خلف شيئاً فقد انتسخه، يقال: انتسخت الشمس الظل، والشيب الشباب... ، الثاني: إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه، كقولهم: نسخت الريح الأثر، ومن هذا المعنى قوله تعالى ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾^(٤) أي يزيله فلا يُتلى ولا يثبت في المصحف بدله... ، الخامسة: اعلم أن الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخاً

(١) وقال نحوه ابن قدامة المقدسي في تعريف النسخ اصطلاحاً: (وحدّه: رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم، بخطاب متراخ عنه). انظر: روضة الناظر وجنة المناظر، لمؤلفه: أبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، (ت ٦٢٠هـ)، الناشر: مؤسسة الريان ، ط: الثانية، عام ١٤٢٣هـ، (١/ ٢١٩).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ١٨٨).

(٣) ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، كان إماماً في علوم شتى، وخصوصاً اللغة، أصله من قزوين، وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها سنة (٣٩٥هـ)، وإليها نسبتها، من تصانيفه: (مقاييس اللغة). انظر: كتاب معجم الأدياء، لمؤلفه: أبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، (١/ ٤١١).

(٤) الحج: ٥٢

غيره... .وليس هذا من باب البداء بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة، وحُكم إلى حُكم، لضرب من المصلحة، إظهارًا لحكمته وكمال مملكته. ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية، وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن عالما بمآل الأمور، وأما العالم بذلك فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح، كالطبيب المراعي أحوال العليل، فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته، لا إله إلا هو، فخطابه يتبدل، وعلمه وإرادته لا تتغير، فإن ذلك محال في جهة الله تعالى. وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئاً واحداً، ولذلك لم يجوزوه فضلوا... السابعة: المنسوخ عند أئمتنا أهل السنة هو الحكم الثابت نفسه لا مثله، كما تقوله المعتزلة بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدم زائل...^(١).

النسخ في الأحكام وليس في الأخبار:

قال القاضي ابن عطية -رحمه الله- في تفسيره:

"والنسخ لا يجوز في الإخبار، وإنما هو مختص بالأوامر والنواهي"^(٢).

قال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

"الثامنة: اختلف علماؤنا في الأخبار هل يدخلها النسخ، فالجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى. وقيل: إن الخبر إذا تضمن حكماً شرعياً جاز نسخه"^(٣).

النسخ في زمن النبوة، ولا نسخ في الإجماع والقياس:

قال القاضي ابن عطية -رحمه الله- في تفسيره:

"ولا يصح نسخ نصٍ بقياس إذ من شروط القياس أن لا يخالف نصاً، وهذا كله في مدة النبي صلى الله عليه وسلم، وأما بعد موته واستقرار الشرع فأجمعت الأمة أنه لا نسخ.

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/٤٨٠).

(٢) المحرر الوجيز (١/١٨٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/٤٨٢).

ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ؛ لأنه إنما ينعقد بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصاً فنعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن" (١).

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

" وهذا كله في مدة النبي صلى الله عليه وسلم، وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمة أنه لا نسخ، ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به، إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي، فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصاً فيعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن، وأن ذلك النص المخالف متروك العمل به، وأن مقتضاه نُسَخَ وبقي سنة يُقرأ ويروى... فتأمل هذا فإنه نفيس، ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة، ومثله صدقة النجوى" (٢).

صور النسخ:

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

" وصور النسخ تختلف فقد يُنسخ الأثقل إلى الأخف كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنتين (٣)، وقد يُنسخ الأخف إلى الأثقل كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان، وقد يُنسخ المثل بمثله ثقلاً وخفة كالقبلة (٤)، وقد يُنسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى (٥). والنسخ التام أن تنسخ التلاوة والحكم، وذلك كثير، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله

(١) المحرر الوجيز (١/١٨٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/٤٨٤).

(٣) إشارة إلى ما ذكره الله في سورة الأنفال: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا

مَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا

مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ الأنفال: ٦٥-٦٦

(٤) القبلة كانت إلى بيت المقدس في الشام ثم حُولت إلى البيت الحرام في مكة.

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَى صَدَقَةٍ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ

عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ المجادلة: ١٢

عنه: كُنَّا نَقْرَأُ: لا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإِنَّهُ كَفَرٌ^(١)، وقد تُنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم^(٢)، وقد يُنسخ الحكم دون التلاوة كصدقة النجوى...

ويُنسخُ القرآنُ بالقرآنِ والسنةُ بالسنة، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي، ويُنسخُ خَبْرُ الواحدِ بخبرِ الواحدِ، وهذا كله متفق عليه. وحذاق الأئمة على أن القرآن يُنسخ بالسنة وذلك موجود في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا وصية لوارث)^(٣) وهو ظاهر مسائل مالك - رحمه الله - وأبي ذلك الشافعي - رحمه الله - والحجة عليه من قوله إسقاطه الجدل في حد الزنى عن الثيب الذي يُرجم فإنه لا مُسقط لذلك إلا السنة فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك حذاق الأئمة على أن السنة تُنسخ بالقرآن وذلك موجود في القبله فإن الصلاة إلى الشام لم تكن قط في كتاب الله وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي صلى الله عليه وسلم لقريش. والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً واختلفوا هل وقع شرعاً^(٥).

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

(١) قلت: الذي يظهر أن هذا نُسخ تِلاوةٍ وبقي حُكماً، وهو ثابت في السنة قولاً وحُكماً، والمقصود به كفر النعمة. أي كفر دون كفر، لا الخروج من الملة، ففي الصحيحين، من حديث أبي ذر، قوله عليه الصلاة والسلام: (ليس من رجل ادعى لغير أبيه - وهو يعلمه - إلا كفر، ومن ادعى قومًا ليس له فيهم، فليتبوأ مقعده من النار). صحيح البخاري، رقم ٣٥٠٨، (٤ / ١٨٠).

(٢) عن زر بن حبيش قال: قال أبي بن كعب: (كأين تقرأون سورة الأحزاب؟) قال: قلت: بضعا وثمانين آية قال: (لقد كنا نقرأها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو سورة البقرة أو هي أكثر، ولقد كنا نقرأ فيها آية الرجم: الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم). مصنف عبد الرزاق الصنعاني، باب رجم الثيب في الزنى، رقم ١٦٩١، (٣ / ٣٦٥)، وفي رواية أخرى عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: (كم تقرأون سورة الأحزاب؟ قال: بضعا وسبعين آية. قال لقد قرأتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البقرة أو أكثر منها، وإن فيها آية الرجم). مسند أحمد، رقم ٢١٢٠٦، (٣٥ / ١٣٤).

(٣) سنن الترمذي، باب ما جاء لا وصية لوارث، رقم ٢١٢٠ (٣ / ٥٠٤)، وسنن ابن ماجه، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧١٢، (٢ / ٩٠٥).

(٤) الممتحنة: ١٠.

(٥) المحرر الوجيز (١ / ١٨٨).

" الحادية عشرة: قال علماؤنا رحمهم الله تعالى: جائز نسخ الأثقل إلى الأخف، كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنتين. ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل، كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان، على ما يأتي بيانه في آية الصيام. ويُنسخُ المثل بمثله ثقلاً وخفة، كالقابلة. ويُنسخُ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى. ويُنسخُ القرآن بالقرآن. والسنة بالعبارة، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي. ويُنسخُ خبر الواحد بخبر الواحد. وحذاق الأئمة على أن القرآن يُنسخُ بالسنة، وذلك موجود في قوله عليه السلام: (لا وصية لوارث)^(١). وهو ظاهر مسائل مالك. وأبى ذلك الشافعي... والأول أصح، بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده... وأيضاً فإن الجلد ساقط في حد الزنى عن الثيب الذي يُرجم، ولا مُسقط لذلك إلا السنة فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا بين. والحذاق أيضاً على أن السنة تُنسخُ بالقرآن وذلك موجود في القبلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى. وفي قوله تعالى: وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي صلى الله عليه وسلم لقريش. والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً، واختلقوا هل وقع شرعاً... ، وأبى ذلك قوم^(٢).

فهذه معلومات وقواعد هامة في الناسخ والمنسوخ اتفق المفسران في ذكرها وقررا فيها مذهب الجمهور من أهل السنة والمفسرين^(٣).

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤٨٣).

(٣) انظر: البرهان في أصول الفقه، لمؤلفه: أبي المعالي الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، الملقب بإمام الحرمين (ت: ٤٧٨هـ)، المحقق: صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط: الأولى، عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، (٢/ ٢٤٦)، وروضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة المقدسي، (١/ ٢١٩)، وجامع البيان، للطبري (٢/ ٤٧١)، و بحر العلوم، لسمرقندي (١/ ٨٢)، والكشف والبيان، للثعلبي (١/ ٢٥٣)، وتفسير السمعاني (١/ ١٢١)، ومعلم التنزيل، للبخاري (١/ ١٥٣)، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٩٣)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٧٥)، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ١٤٣)، وفتح القدير، للشوكاني (١/ ١٤٧).

مثال آخر: قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ

وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"فاختلف الناس في معنى الآية فقال الزهري سألت زيد بن أسلم^(٢) عن قوله تعالى: ﴿

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين لا يُكره

أحدًا في الدين، فأبى المشركون إلا أن يقاتلوهم، فاستأذن الله في قتالهم فأذن له. قال

الطبري والآية منسوخة في هذا القول. قال القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية - رضي

الله عنه - ويلزم على هذا أن الآية مكية وأنها من آيات المودعة التي نسختها آية

السيف^(٣). وقال قتادة والضحاك بن مزاحم^(٤) هذه الآية مُحْكَمَةٌ خاصة في أهل الكتاب

الذين يبذلون الجزية ويؤدونها عن يد صغيرة، قالوا: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يُقَاتِلَ العربَ أهل الأوثان، لا يقبل منهم إلا لا إله إلا الله أو السيف ثم أمر فيمن سواهم

أن يقبل الجزية ونزلت فيهم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾. قال القاضي أبو محمد: وعلى مذهب

مالك في أن الجزية تُقبل من كل كافر سوى قريش أي نوع كان فتجيء الآية خاصة فيمن

أعطى الجزية من الناس كلهم لا يقف ذلك على أهل الكتاب كما قال قتادة والضحاك.

(١) البقرة: ٢٥٦

(٢) زيد بن أسلم، أبو عبد الله العدوي العمري، كان أبوه أسلم مولى لعمر بن الخطاب وملازمًا له ومن أهل الفقه والعلم،

وكذلك كان ولده زيد بن أسلم إمامًا عالمًا حجة، وكان له حلقة في المسجد النبوي، وله تفسير يروي عنه ابنه عبد

الرحمن، توفي سنة (١٣٦هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (٥ / ٣١٦).

(٣) آية السيف: ﴿فَأَقْضُوا الْفِتْنَةَ يَا مُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ التوبة: ٥. انظر: الناسخ

والمسنوخ، لمؤلفه: أبي جعفر النحاس أحمد بن محمد المرادي (ت: ٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام محمد، الناشر:

مكتبة الفلاح، الكويت، ط: الأولى، عام ١٤٠٨هـ، (ص: ١٢٢).

(٤) الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد، وقيل: أبو القاسم، صاحب (التفسير)، كان من أوعية العلم، وليس بالموجود

لحديثه، وهو صدوق في نفسه، وفاته سنة (١٠٢هـ) وقيل (١٠٥هـ) وقيل (١٠٦هـ). سير أعلام النبلاء (٤ /

٥٩٨).

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير^(١): إنما نزلت هذه الآية في قوم من الأوس والخزرج كانت المرأة تكون مقلاتاً لا يعيش لها ولد فكانت تجعل على نفسها إن جاءت بولد أن تهوده فكان في بني النضير جماعة على هذا النحو، فلما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير، قالت الأنصار: كيف نصنع بأبنائنا؟ إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه وأما إذ جاء الله بالإسلام فنكرهم عليه. فنزلت: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية، وقال بهذا القول عامر الشعبي^(٢) ومجاهد إلا أنه قال كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع. وقال السُّدِّي نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حُصين^(٣) كان له ابنان فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت فلما أرادوا الرجوع أتاهم ابنا أبي حُصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكيا أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردهما، فنزلت ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب. وقال: أبعدهما الله هما أول من كفر. ثم أنه نسخ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة...^(٤).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"الثانية: اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أقوال: الأول: قيل إنها منسوخة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم

(١) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي مولاهم، الكوفي، أحد الأعلام، أبو محمد، وقيل أبو عبد الله، حبشي الأصل، إمام، حافظ، مقرئ، مفسر، تابعي كان أعلمهم على الإطلاق، شهيد، قتله الحجاج الثقفي وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه، مولده عام (٤٥هـ)، ووفاته (٩٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤/ ٣٢١).

(٢) عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كِبَار، وذو كِبَار: قيل من أقبال اليمن، أبو عمرو الهمداني، ثم الشعبي، الإمام، علامة العصر، فقيه ورواية، شاعر، من التابعين، يُضرب المثل بحفظه. وُلِدَ ونشأ ومات فجأة بالكوفة. مولده عام

(١٩هـ)، ووفاته سنة (١٠٣هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤/ ٢٩٤).

(٣) أبو الحصين صحابي أنصاري. أسد الغابة، لابن الأثير (٦/ ٧١).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٣٦٥).

إلا بالإسلام، قاله سليمان بن موسى^(١) قال: نسختها ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾^(٢) ورؤي هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين. الثاني: ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يُكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية، والذين يُكرهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام فهم الذين نزل فيهم ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ﴾، هذا قول الشعبي وقتادة والحسن والضحاك، والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: اسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمدًا بالحق. قالت: أنا عجوز كبيرة والموت إلي قريب. فقال عمر: اللهم اشهد، وتلا ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. الثالث: ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال: نزلت هذه في الأنصار، كانت تكون المرأة مقلاتًا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا! فأنزل الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. قال أبو داود: والمقلاتُ التي لا يعيش لها ولد^(٣). وفي رواية: إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنُكِرَهُمْ عليه. فنزلت ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ من شاء التحق بهم، ومن شاء دخل في الإسلام. وهذا قول سعيد بن جبير والشعبي ومجاهد إلا أنه قال: كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع. قال النحاس: قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسناده، وأن مثله لا يؤخذ بالرأي. الرابع: قال السدي: نزلت الآية في رجل من الأنصار يُقال له أبو حصين كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا

(١) سليمان بن موسى الدمشقي الأشدق، مولى آل معاوية بن أبي سفيان، الإمام الكبير، مفتي دمشق، ثقة شهدوا له بالفقه والعلم والحديث لكنه في الحديث ليس بالقوي، توفي (١١٥هـ). سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣٣).

(٢) التوبة: ٧٣.

(٣) سنن أبي داود، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، باب في الأسير يكره على الإسلام، رقم ٢٦٨٢، (٣/ ٥٨).

الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكيا أمرهما، ورجب في أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردّهما، فنزلت الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب، وقال: أبعدهما الله هما أول من كفر... ثم إنه نسخ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة... وقيل معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مُجبِرًا مكرهًا، وهو القول الخامس. وقول سادس: وهو أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا إذا كانوا كبارًا، وإن كانوا مجوسًا صغارًا أو كبارًا أو وثنيين فإنهم يُجبرون على الإسلام، لأنّ من سباهم لا ينتفع بهم مع كونهم وثنيين، ألا ترى أنه لا تؤكل ذبائحهم ولا توطأ نساؤهم، ويدينون بأكل الميتة، والنجاسات وغيرها، ويستقذروهم المالك لهم ويتعذر عليه الانتفاع بهم من جهة الملك فجاز له الإيجاب. ونحو هذا روى ابن القاسم^(١) عن مالك. وأما أشهب^(٢) فإنه قال: هم على دين من سباهم، فإذا امتنعوا أُجبروا على الإسلام، والصغار لا دين لهم فلذلك أُجبروا على الدخول في دين الإسلام لئلا يذهبوا إلى دين باطل... «^(٣)».

مثال آخر: قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ^٤ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ

(١) عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقيّ المصري، أبو عبد الله، ويعرف بابن القاسم: فقيه، جمع بين الزهد والعلم. وتفقه بالإمام مالك وغيره. صنف المدونة وهي من أجل كتب المالكية، وُلد بمصر عام (١٣٢هـ) وتوفي بها سنة (١٩١هـ). الديباج المذهب (ص: ١٤٦)، والأعلام للزركلي (٣/ ٣٢٣).

(٢) أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم، أبو عمرو القيسي، العامري، المصري، الفقيه، الإمام، العلامة، مفتي مصر، يُقال: اسمه مسكين، وأشهب: لقب له، سمع من مالك بن أنس، والليث بن سعد، وغيرهم، مولده عام (١٤٥هـ)، ووفاته سنة (٢٠٤هـ). سير أعلام النبلاء (٩/ ٥٠٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٣٨).

أَجُورُهُمْ فَرِيضَةٌ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا



قال ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فقال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: المعنى فإذا استمتعتم بالزوجة ووقع الوطء ولو مرة فقد وجب إعطاء الأجر وهو المهر كله ولفظة (فما) تُعطي أن: بيسير الوطء يجب إيتاء الأجر، وروى عن ابن عباس أيضا ومجاهد والسدي وغيرهم أن الآية في نكاح المتعة وقرأ ابن عباس وأبي بن كعب وسعيد بن جبير: (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن) وقال ابن عباس لأبي نضرة^(٢) هكذا أنزلها الله عز وجل. وروى الحكم بن عتيبة^(٣): أن علياً رضي الله عنه قال: (لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي)^(٤). وقد كانت المتعة في صدر الإسلام ثم نهى عنها النبي صلى الله عليه

(١) النساء: ٢٤

(٢) أبو نضرة العبدي المنذر بن مالك بن قُطعة، العوفي، البصري، والعوقة: بطن من عبد القيس، كان من كبار العلماء بالبصرة، إمام، محدث، ثقة، قال ابن سعد: ثقة، كثير الحديث، وليس كل أحد يحتج به. مات: سنة ثمان ومائة، أو سنة سبع، وأوصى أن يصلي عليه الحسن، فصلى عليه. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤/ ٥٢٩).

(٣) الحكم بن عتيبة الكندي: أبو محمد الكندي مولاها، الكوفي، الإمام الكبير، عالم أهل الكوفة، فقيه، وكنيته: أبو عمرو، ويُقال: أبو عبد الله، ثقة، وربما دلس. مولده عام (٥٠هـ) ووفاته سنة (١١٣هـ). سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٠٨)، مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، لمؤلفه: ابن حبان، أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، بتحقيق: مرزوق على ابراهيم، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة، ط: الأولى، عام ١٤١١هـ، (١/ ١٧٧).

(٤) لم أجد هذا الحديث عن علي رضي الله عنه، في مصنفات الحديث، بل الثابت عن علي أنه يروى حرمة المتعة ونسخها، والإنكار على من أباحها. وأما هذا الحديث فالذي يظهر أن ابن عطية نقله من تفسير الطبري، فقد ورد فيه: "قال الحكم: وقال علي رضي الله عنه: لولا أن عمر رضي الله عنه نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي". تفسير الطبري (٨/ ١٧٨). والذي يبدوا أن روايته عن علي - رضي الله عنه - وهم، والصواب روايته عن ابن عباس كما ورد في بعض مصنفات الحديث: "عن ابن عباس قال: ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها هذه الأمة، ولولا نهى عمر بن الخطاب عنها ما زنى إلا شقي". انظر: شرح معاني الآثار، لمؤلفه: أبي جعفر الطحاوي - أحمد محمد، بتحقيق: حمد زهري النجار، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، عام ١٣٩٩م، (٣/ ٢٦).

بعضهم بأن يختصي، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنكاح المتعة، وبسبب الحاجة إليه تكرر إباحته فإذا انتهت الحاجة، نُهي عنها، ولهذا أُبيحت ونسخت عدة مرات حتى حُرِّم تحريمًا أبديًا ولهذا جاء في بعض الآثار أنها أُبيحت للمضطر في بداية الإسلام ثم أحكم الله الدين والشرائع فُنسخت وحُرِّمت^(١).

٣- دليل نسخ نكاح المتعة وأنه حرام: نكاح المتعة منسوخ بأدلة الكتاب

والسنة فأما من الكتاب آيات الطلاق والعدة والميراث، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ حَقِظُونَ ۗ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۗ﴾^(٢) وليست المتعة نكاحاً؛ لأنه لا طلاق فيها ولا ميراث، ولو كانت زوجة لوجب لها الميراث، ولا هي ملك يمين، ومن أدلة النسخ أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَيَتِيكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ ۗ﴾^(٣) فهذه الآية ترشد للنكاح الشرعي ولو بالإماء للمضطر وبالشروط التي ذكرها الله، مما يدل على نسخ نكاح المتعة.

وهكذا منهج القرآن العام ينسف نكاح المتعة الذي ليس له حظ ولا نصيب في كتاب الله، وأما السنة فقد صرحت بحرمته ونسخه إلى قيام الساعة، ومن الآثار في ذلك: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فنزل بثنية الوداع فرأى نساء يبكين، فقال: ما هذا؟، قيل: نساء تمتع بهن أزواجهن ثم فارقوهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حرم أو هدم المتعة النكاح والطلاق والعدة والميراث"^(٤).

(١) انظر: سنن البيهقي الكبرى، باب نكاح المتعة، (٣٢٥/٧).

(٢) المؤمنون: ٥ - ٦

(٣) النساء: ٢٥

(٤) السنن الكبرى للبيهقي، باب نكاح المتعة، رقم ١٤١٧٨، (٣٣٧/٧).

أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية^(١).

وقد اتفق العلماء على تحريم المتعة فصار كالإجماع وما نُقل عن ابن عباس من الرخصة للمضطر إليها بطول العزبة، فقد رجع عنه^(٢).
ونَهْيُ عُمَرُ -رضي الله عنه- كان إشهارًا لحرمتها ونسخها لا تحريمًا مستقلًا، كما هو واضح من الأدلة السابقة. والله أعلم وهو الموفق للصواب.

(١) السنن الصغير للبيهقي، بتحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار النشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي -

باكستان، الطبعة: الأولى، عام ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، باب نكاح المتعة، رقم ٢٤٩٠، (٣/ ٥٧).

(٢) السنن الصغير للبيهقي، باب نكاح المتعة، رقم ٢٤٩١، (٣/ ٥٧)، وشرح السنة. المؤلف: أبو محمد الحسين بن

مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر:

المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط: الثانية، عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، (٩/ ١٠٠).

المطلب الثامن

موقف القرطبي من تفسير وأقوال ابن عطية

لقد اهتم الإمام القرطبي بتفسير ابن عطية اهتمامًا بالغًا وجعله من أبرز مصادره، وقد أكثر في كتابه بالاستشهاد بقول ابن عطية وصرح بذلك في كثير من المواضع، ولا تكاد تجد موضع في تفسير القرطبي إلا وله علاقة شبه بتفسير ابن عطية، سواءً صرح بذلك أو لم يُصرح، إلا أن القرطبي أحسن ترتيبًا وتوسعًا، مما يدل أن القرطبي اعتمد على تفسير ابن عطية اعتمادًا أساسيًا، ورضيَّ بابن عطية وبتفسيره قدوةً له، وخير دليل على ذلك تفسيره المشحون بقوله: وقال ابن عطية.

كما أن خطة ومنهج الإمام القرطبي في تفسيره وافقت خطة القاضي ابن عطية، ومنهجهم العام يكاد يكون واحدًا، لولا أن القرطبي اشترط على نفسه عزو الأحاديث واستبدال القصص بأحكام القرآن.

قال ابن خلدون -رحمه الله-: "فلما رجع الناس إلى التحقيق والتّحقيق والتّحقيق وجاء أبو محمّد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التّفسيرات كلّها وتحزّى ما هو أقرب إلى الصّحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى، وتبعه القرطبيّ في تلك الطّريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق"^(١). وخلاصة القول: أن القرطبي نقل من ابن عطية كثيرًا وصرح بذلك، وأحيانًا نجد كلامًا في تفسير القرطبي بنص كلام ابن عطية أو بمعناها ولكن غير منسوب لابن عطية، وأحيانًا يكون نص القرطبي كنص ابن عطية إلا أن نص القرطبي أدق لاسيما فيما يتعلق بالحديث والآثار، كما أن القرطبي أحسن ترتيبًا بشكل عام، وفي أحيان قليلة نجد القرطبي يصرح بقول ابن عطية ويتعقبه بتصويب^(٢).

أمثلة تطبيقية:

أمثلة لاستشهاد القرطبي بابن عطية:

(١) تاريخ ابن خلدون (١ / ٥٥٥).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١ / ٣٣، ٤٢، ٣٧١).

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه، وثواب من قرأ القرآن معرباً
قال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

"قال ابن عطية: إعراب القرآن أصل في الشريعة؛ لأن بذلك تقوم معانيه التي هي
الشرع"^(١).

وفي باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، والجرأة على ذلك، ومراتب
المفسرين.

قال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

"... وقال ابن عطية: ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله عز وجل
فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول،
وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه،
ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس
قائلاً بمجرد رأيه"^(٢).

مثال يُبَيِّن أن القرطبي قد ينقل قول ابن عطية مُتَعَقِباً له بتصويب.

قال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

"... الرابعة- قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَوَىٰ﴾^(٣) اختُلف في السلوى فقليل هو السُّمَانَى^(٤)
بعينه قاله الضحاك. قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين وقد غلط الهذلي^(٥)
فقال:

وقاسمها بالله جَهْدًا لِأَنْتُمْ * * * أَلَدُّ مِنَ السَّلَوَىٰ إِذَا مَا نَشُورُهَا^(١)

(١) المصدر السابق (١/ ٣٣).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٢).

(٣) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ﴾ البقرة: ٥٧

(٤) السُّمَانَى: طائرٌ. مختار الصحاح، لزين الدين الرازي (ص: ١٥٥)، لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٢٠).

(٥) الهذلي خالد بن زهير، انظر ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق: محمد محمود الشنقيطي، الناشر: الدار القومية للطباعة
والنشر، مصر، القاهرة، عام النشر: ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م، (١/ ١٥٨).

ظن السلوى العسل^(٢). قال القرطبي: ما ادعاه من الإجماع لا يصح وقد قال المؤرج^(٣)
أحد علماء اللغة والتفسير: إنه العسل واستدل ببيت الهذلي وذكر أنه كذلك بلغة كنانة
سُمي به؛ لأنه يُسلى.. وأنشد:

لَوْ أَشْرَبُ السُّلْوَانَ مَا سَلَيْتُ *** مَا بِي غِنَى عَنكَ وَإِنْ غَنَيْتَ^(٤)

وقال الجوهري: والسلوى العسل وذكر بيت الهذلي... ولم يذكر غلطاً^(٥)»^(٦).

ومن خلال ما سبق يتبين أن القرطبي ينقل من ابن عطية كثيراً ويستشهد به، ويتعقبه
أحياناً بتصويب.

(١) نَشُورُهَا: نَأْخِذُهَا. وَالشُّورُ: أَخَذُ العَسَلِ مِنْ مَوْضِعِهَا، وَالبَيْتُ لِخَالِدِ بْنِ زَهْرٍ الهَذَلِيِّ. انظر: ديوان الهذليين (١/ ١٥٨).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ١٤١).

(٣) مَوْجَّحٌ أَبُو فَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الحَارِثِ السَّدُوسِيِّ النُّحَويِّ البَصْرِيِّ، أَخَذَ العَرَبِيَّةَ عَنِ الخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ وَرَوَى الحَدِيثَ عَنِ شُعْبَةَ بْنِ الحَجَّاجِ وَأَبِي عَمْرٍو بْنِ العَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ، لَهُ تصانيف حسنة منها غريب القرآن. تُوفِّي سنة (١٩٥هـ). طبقات المفسرين للأدنه وي (ص: ٢١).

(٤) البيت لرؤبة. [من الرجز]. انظر: التذكرة الحمدونية، المؤلف: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (ت: ٥٦٢هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٧هـ، (٧/ ٣٣٩)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري (٦/ ٢٣٨١).

(٥) اختلف أهل اللغة في اطلاق السلوى على العسل، وقد خطأ الزجاج خالد بن زهير الهذلي فقال: أخطأ خالد إنما السلوى الطير. وخالف ذلك بعض أئمة اللغة كالجوهري والفارسي وقالوا بأن السلوى يُطلق على العسل، قال الفارسي: إنما سُمي العسل سلوى؛ لأنه يسليك بحلاوته وتأتيه عن غيره مما يلحقك فيه مؤونة الطبخ وغيره من أنواع الصناعة، يرد بذلك على الزجاج. انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري (٦/ ٢٣٨١)، وتاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٢٩٦).

(٦) الجامع لأحكام (١/ ٣٧١).

الفصل الثاني

المقارنة في العبادات والمعاملات

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المقارنة في العبادات

المبحث الثاني: المقارنة في المعاملات

المبحث الأول

المقارنة في العبادات

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: المقارنة في الصلاة

المطلب الثاني: المقارنة في الزكاة

المطلب الثالث: المقارنة في الصوم

المطلب الرابع: المقارنة في الحج

المطلب الأول

المقارنة في الصلاة

الصلاة في أصل اللغة: الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾^(١)، وفي الحديث: (إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليُجب فإن كان مُفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليُصَلِّ)^(٢) أي يدعُ لهم، و(الصلاة) اسم و مصدر، والصلاة لفظ مشترك لعدة معاني كالدعاء والرحمة والعبادة ومكان الصلاة، والصلاة من الله على عباده: رحمته بهم ورفعته لدرجاتهم، والصلاة من الملائكة والعباد: الدعاء والاستغفار^(٣).

والصلاة في الشرع: عبارة عن أركان مخصوصة، وأذكار معلومة، بشرائط محصورة في أوقات مقدرة^(٤) وقيل: الصلاة في اصطلاح الفقهاء: أقوال وأفعال مفتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم، بشرائط مخصوصة^(٥).

ولا يخفى أهمية الصلاة في الإسلام فهي ثاني أركانها وأهمها بعد التوحيد وعموده الذي لا يقوم إلا بها. وقد ذُكرت الصلاة في كتاب الله كثيراً، وبصيغ عديدة، وقد اهتم المفسران ابن عطية والقرطبي بتفسير آيات الصلاة، لاسيما القرطبي الذي سعى في تفسيره لجمع الأحكام الشرعية المتعلقة بالصلاة.

(١) قال تعالى: ﴿حُدِّمْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ التوبة: ١٠٣

(٢) صحيح مسلم، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة، رقم ١٤٣١، (٢/ ١٠٥٢).

(٣) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري (٦/ ٢٤٠٢). ومجمل اللغة لابن فارس (ص: ٥٣٨). وشمس

العلوم لنشوان الحميري (٦/ ٣٨١٤-٣٨١٥). والمفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٢هـ، (ص: ٤٩٠).

(٤) التعريفات، للجرجاني (ص: ١٣٤).

(٥) الفقه على المذاهب الأربعة، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري (ت: ١٣٦٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الثانية، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، (١/ ١٦٠).

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في تفسير آيات الصلاة:

التفسيران يهتمان بتفسير آيات الصلاة وتعظيمها، ومتفقان في التفسير العام لآيات الصلاة ومن ذلك اتفاقهم في تعريف الصلاة وإقامتها وتعريف الركوع، والمفسران يكثران من الاستشهاد بكلام العرب وشعرهم وبيعض الأدلة الشرعية في الموضوع، والمفسران يذكران الأحكام الشرعية والفقهية المتعلقة بالصلاة، إلا أن القرطبي يتوسع ويتتبع الأحكام الشرعية المتعلقة بالصلاة من قريب ومن بعيد وأمّا ابن عطية فيذكر الأحكام الشرعية المتعلقة بألفاظ الآيات، كما في آيات صلاة الخوف^(١)، والمفسران يذكران خلافاً العلماء والمذاهب الفقهية وعلى رأسها المذهب المالكي، والمفسران مُجتهدان ورِعَان، ومحققان نزيهان، يذكران الخلاف دون تعصب، ويرجحان بحسب الدليل، وأحياناً يذكران المسألة الفقهية وأقوال أهل العلم دون ترجيح أو تعقيب، وغالبًا ما يختمان المسألة بقولهم (والله أعلم)، وهما متفقان في جملة أحكام الصلاة^(٢).

وجوه الافتراق بين التفسيرين في تفسير آيات الصلاة:

هناك فرق حقيقي جوهري بين تفسير ابن عطية وتفسير القرطبي، وذلك في تناول الأحكام الفقهية والشرعية، والتي منها الصلاة، وسبب هذا الاختلاف، اختلاف شرطِ المُفسرين - رحمهما الله - فابن عطية قال في شرطه: "... وسردتُ التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حُكم أو نحو أو لغة أو معنى أو قراءة... " ^(٣) فاشتراط على نفسه الإيجاز والتفسير بحسب رتبة ألفاظ الآيات فإن كان حُكمًا فقهيًا ذكره وناقشه بإيجاز، وأمّا القرطبي فقال في شرطه: "وأضربُ عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين، واعتصمتُ من ذلك تبيين آيِّ الأحكام،..."

(١) المحرر الوجيز (١١٦/٢).

(٢) انظر المحرر الوجيز (٦٥/١، ٧٢، ١٢٧ - ١٢٨)، والجامع لأحكام القرآن (١/ ١٢١-١٢٨، ١٦٤-١٧٥، ٣١٨-٣٣٥).

(٣) المحرر الوجيز (١٠/١).

باسم الدعاء. وقال قوم: هي مأخوذة من الصَّلَا وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العُجْب فيكتنفه، ومنه أخذ المُصَلِّي في سَبَقِ الخيل؛ لأنه يأتي مع صَلَوِي السابق، فاشتُقَّت الصلاة منه، إما؛ لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بِالمُصَلِّي من الخيل، وإما لأن الراكع والساجد صَلَّوَاه. قال القاضي أبو محمد: والقول إنها من الدعاء أحسن^(١).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ ﴾ ... وإقامة الصلاة أدائها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، على ما يأتي بيانه. يُقال: قام الشيء أي دام وثبت، وليس من القيام على الرجل، وإنما هو من قولك: قام الحق أي ظهر وثبت... [وذكر لهذا المعنى شواهد] وقيل: ﴿ يقيمون ﴾ يديمون، وأقامه أي أدامه، وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع^(٢). الخامسة: إقامة الصلاة معروفة، وهي سنة عند الجمهور، وأنه لا إعادة على تركها. وعند الأوزاعي^(٣) وعطاء ومجاهد وابن أبي ليلى^(٤) هي واجبة وعلى من تركها الإعادة، وبه قال أهل الظاهر، ورُوي عن مالك، واختاره ابن العربي... ، قال ابن عبد البر قوله صلى الله عليه

(١) المحرر الوجيز (١/٧٢).

(٢) موطأ مالك ، وقوت الصلاة، رقم ٩، (٢/٩).

(٣) الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو بن يحمّد، أبو عمرو الأوزاعي، شيخ الإسلام، وعالم أهل الشام، كان إمامًا، خيرًا، فاضلاً، مأمونًا، كثير العلم والحديث والفقه، حجة، من قبيلة الأوزاع، وهي بطن من همدان، وُلد في حياة الصحابة عام (٨٨هـ)، وتُوفي سنة (١٥٧هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (٧/١٠٧).

(٤) ابن أبي ليلى محمد بن عبد الرحمن الأنصاري، أبو عبد الرحمن، العلامة، الإمام، مفتي الكوفة، وقاضياها، وكان نظيرا للإمام أبي حنيفة في الفقه، وكان فقيهاً صاحب سنة، لكنه ضعيف الحديث، ساء حفظه بسبب انشغاله بالقضاء، وكان قارئاً للقرآن، عالماً به. وُلد: سنة نيف وسبعين هجرية، وتُوفي سنة (١٨٤هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي (٦/٣١٠).

وسلم: (وتحريمها التكبير)^(١) دليل على أنه لم يدخل في الصلاة من لم يُحْرِم، فما كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شيء فيُسَلَّم للإجماع كالطهارة والقِبلة والوقت ونحو ذلك. وقال بعض علمائنا: مَنْ تركها عمدًا أعاد الصلاة، وليس ذلك لوجوبها إذ لو كان ذلك لاستوى سهوها وعمدها، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن، والله أعلم. السادسة: واختلف العلماء فيمن سمع الإقامة هل يسرع أولاً؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام: (إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا) رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم^(٢)، وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا نُوبَ بالصلاة فلا يَسَعُ إليها أحدكم ولكن ليمشي وعليه السكينة والوقار، صل ما أدركت واقض ما سبقك)^(٣). وهذا نص، ومن جهة المعنى أنه إذا أسرع انبهر^(٤) فشوش عليه دخوله في الصلاة وقراءتها وخشوعها. وذهب جماعة من السلف منهم ابن عمر وابن مسعود على اختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع... ورُوي عن مالك نحوه، وقال: لا بأس لمن كان على فَرَسٍ أن يحركَ الفرس، وتأوله بعضهم على الفرق بين الماشي والراكب؛ لأن الراكب لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر الماشي. قلتُ: واستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حال أولى^(٥) فيمشي كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار؛ لأنه في صلاة ومُحال أن يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبره، فكما أن الداخل في

(١) الحديث (مفتاح الصلاة الوضوء، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم). مسند الشافعي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤٠٠هـ، (ص: ٣٤)، وأخرجه الترمذي في سننه وقال: هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب وأحسن. باب ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور، رقم ٣، (١/ ٥٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن اتيانها سعيًا، رقم ٦٠٢، (١/ ٤٢٠).

(٣) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن اتيانها سعيًا، رقم ٦٠٢، (١/ ٤٢١).

(٤) البُهُرُ: تَتَابَعُ النَّفْسِ مِنَ الْإِعْيَاءِ، وَانْبَهَرَ: أَي تَتَابَعُ نَفْسُهُ. وَيُقَالُ بُهَرَ الرَّجُلُ إِذَا عَدَا حَتَّى غَلَبَهُ الْبُهُرُ وَهُوَ الرَّبْوُ. لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٨٢).

(٥) قلتُ: وفي هذا دلالة لما كان عليه القرطبي من النزاهة وتقديمه للدليل وعدم التعصب.

الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك المشي، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه... وهذه السنن تبين معنى قوله تعالى: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(١) وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل، هكذا فسره مالك. وهو الصواب في ذلك والله أعلم. السابعة: واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام: (وما فاتكم فأتوا) وقوله: (واقض ما سبقك) هل هما بمعنى واحد أو لا ؟ فقيل: هما بمعنى واحد وأن القضاء قد يُطلق ويراد به التمام، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾^(٢) وقال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَٰتُمْ مَنَسِكَكُمُ ﴾^(٣). وقيل: معناهما مُختلف وهو الصحيح، ويترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أول صلاته أو آخرها؟ فذهب إلى الأول جماعة من أصحاب مالك منهم ابن القاسم ولكنه يقضي ما فاتته بالحمد وسورة، فيكون بانياً في الأفعال قاضياً في الأقوال. قال ابن عبد البر: وهو المشهور من المذهب... [ثم ذكر القول الثاني ونسبه لمجموعة كبيرة من العلماء كالشافعي والطبري وأحمد بن حنبل ومالك وغيرهم، ثم ناقش المسألة ومال إلى القول الثاني] الثامنة: الإقامة تمنع من ابتداء صلاة نافلة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أُقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة) خرج مسلم^(٤) وغيره، فأما إذا شرع في نافلة فلا يقطعها، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا بُطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾^(٥) وخاصة إذا صلى ركعة منها. وقيل: يقطعها لعموم الحديث في ذلك. والله أعلم. التاسعة: واختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتي الفجر ثم أقيمت الصلاة،... [ذكر القرطبي أقوال أهل العلم واختلافهم ثم ذكر الراجح بأنه يدخل

(١) الجمعة: ٩

(٢) الجمعة: ١٠

(٣) البقرة: ٢٠٠

(٤) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب كراهة الشروع في نافلة بعد شروع المؤذن، رقم ٧١٠،

(٥) (٤٩٣/١).

(٥) محمد: ٣٣

في الفريضة ولا يشرع في غيرها]... وقال الشافعي: من دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا في المسجد. وكذلك قال الطبري وبه قال أحمد بن حنبل وحُكي عن مالك، وهو الصحيح في ذلك، لقوله عليه السلام. (إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة)... [ثم ذكر سبب الخلاف وأدلته]. العاشرة: الصلاة أصلها في اللغة الدعاء، مأخوذة من صَلَّى يُصَلِّي إذا دعا... [ثم توسع القرطبي في ذكر الشواهد لهذا المعنى] وقال قوم: هي مأخوذة من الصَّلا وهو عِرْق في وسط الظهر ويفترق عند العَجْب فيكتنفه، ومنه أخذ المُصَلِّي في سبق الخيل؛ لأنه يأتي في الحَبْبة ورأسه عند صَلْوَى السابق، فاشتقت الصلاة منه، إما؛ لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمُصَلِّي من الخيل، وإما لأن الراكع تتثنى صَلَّوَاه... [ثم ذكر شواهد لهذا القول، وقد شابه في تعريف الصلاة ما ذكره ابن عطية. ثم ذكر القرطبي أن لفظ الصلاة مشترك لعدة معاني منها: الدعاء، والرحمة، والعبادة، والنافلة، والتسبيح، والقراءة... وذكر شواهد لذلك] وقد قيل: إن الصلاة اسم عَلَمٌ وُضِعَ لهذه العبادة، فإن الله تعالى لم يخل زمانًا من شرع، ولم يخل شرع من صلاة... قلت: فعلى هذا القول لا اشتقاق لها، وعلى قول الجمهور وهي: الحادية عشرة: اختلف الأصوليون هل هي مُبْقَاة على أصلها اللغوي الوضعي الابتدائي، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، أو هل تلك الزيادة من الشرع تصيرها موضوعة كالوضع الابتدائي من قبل الشرع. هنا اختلافهم والأول أصح؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية، والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين، ولكن للعرب تحكم في الأسماء، كالدابة وضعت لكل ما يدب، ثم خصصها العرف بالبهائم فكذلك لعرف الشرع تحكم في الأسماء، والله أعلم. الثانية عشرة: واختلف في المراد بالصلاة هنا، فقيل: الفرائض. وقيل: الفرائض والنوافل معا، وهو الصحيح؛ لأن اللفظ عام، والمُنْتَقِي يأتي بهما. الثالثة عشرة: الصلاة سبب للرزق، قال الله تعالى: ﴿ وَأَمْرٌ

ثم ذكر شاهداً شعرياً [ويُستعار أيضاً في الانحطاط في المنزلة] وذكر شاهداً شعرياً وبه أنهى ابن عطية تفسيره لهذه الآية. ^(١).

تفسير الإمام القرطبي - رحمه الله - للآية:

ذكر الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَزْكُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أربع وثلاثين مسألة، توسع القرطبي في معظمها وفارق ابن عطية في جمع أحكام الصلاة، والاستطراد الفقهي الذي يميز تفسيره عن بقية التفاسير، وسيذكر الباحث هنا رؤوس بعض تلك المسائل وخلصتها لتوضيح طريقة القرطبي ومنهجه، دون التعمق والتفصيل الذي سرده القرطبي خشية الإطالة والخروج عن مقصد البحث:

"المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمرٌ معناه الوجوب، ولا خلاف فيه، وقد تقدم القول في معنى إقامة الصلاة واشتقاقها وفي جملة من أحكامها، والحمد لله... . ثم ذكر القرطبي المسألة الثانية والثالثة والرابعة في الزكاة وأحكامها، ثم ذكر المسألة الخامسة والسادسة في معنى الركوع وذكر ما ذكره ابن عطية من معان وأقوال وشواهد مع توسع طفيف، ثم المسألة السابعة: ذكر فيها صفة الركوع الشرعي مع الدليل من السنة. ثم المسألة الثامنة: ذكر فيها أن الركوع والسجود فرض وذكر الأدلة من الكتاب والسنة، وذكر صفة السجود الشرعي مع الدليل من السنة. ثم التاسعة: ذكر اختلاف أهل العلم فيمن سجد على جبهته دون أنفه والعكس وناقش المسألة ورجح وجوب السجود على الجبهة والأنف. ثم المسألة العاشرة: ذكر كراهية السجود على كور العمامة، وإن كان شيئاً خفيفاً فلا بأس، والأفضل مباشرة جبهته الأرض، ويمسح مكان سجوده قبل الصلاة فإن دخل في الصلاة فلا يمسح إلا مسحة واحدة إذا وجد ما يؤذيه، وله أن يبسط رداء أو نحوه ليسجد عليه خشية الحر وغيره. المسألة الحادية عشرة: رد على القائلين بأن مجرد

(١) المحرر الوجيز (١/١٢٧-١٢٨).

الركوع والسجود يُجزئ لصحة الصلاة وذكر اشتراط الطمأنينة، والاعتدال في جميع أفعال الصلاة ودليل ذلك. الثانية عشرة: ذكر صلاة الجماعة واختلاف أهل العلم في حكمها، وأن قول الجمهور أنها من السنن المؤكدة ويجب على من أدمن التخلف عنها بغير عذر العقوبة، وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضاً على الكفاية ورجح القرطبي ذلك، وأن القوم إذا اتفقوا على تركها فُوتلوا، وإذا أُقيمت فيهم الجماعة، صحت صلاة المنفرد وفاتته الفضيلة. الثالثة عشرة: ذكر خلاف أهل العلم في الأجر المنسوب للجماعة في الصلاة هل هو خاص بجماعة المسجد أو متعلق بالجماعة حيث كانت، ورجح أن الأجر متعلق بالجماعة حيث كانت، وللمسجد أجر خاص به ومزيد فضل من الخطأ وغيره. الرابعة عشرة: ذكر خلاف أهل العلم هل تفضل جماعةً جماعة بالكثرة وبفضيلة الإمام. ولم يُرجح^(١).

وهكذا استمر الإمام القرطبي في سرد مسائل الأحكام الشرعية المتعلقة بالصلاة حتى انتهى إلى المسألة الرابعة والثلاثين فذكر التشهد الأخير وحكمه وصيغته وخلاف أهل العلم ثم قال: " فهذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمنها قوله جل وعز: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الرَّكْعَيْنِ﴾، وسيأتي القول في القيام في الصلاة عند قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. ويأتي هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة ويأتي في (آل عمران) حكم صلاة المريض غير الإمام ويأتي في (النساء) في صلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل، ويأتي في سورة (مريم) حكم الإمام يصلي أرفع من المأموم... إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد وهذا كله بيان لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وقد تقدم في أول السورة جملة من أحكامها والحمد لله على ذلك"^(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٣٥).

(٢) البقرة: ٢٣٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٣٥).

دراسة وتحليل:

ومن خلال التأمل في الأمثلة السابقة وغيرها نلاحظ أنّ التفسيرين من حيث التفسير العام للآيات متقاربان، وما ذكره ابن عطية وتوسع فيه فإنّ القرطبي يذكره ويزيد عليه بعض الإضافات أحياناً، فمثلاً عند تفسيرهما لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾

ذكر ابن عطية معنيين لإقامة الصلاة: الأول يظهرونها والثاني يثبتونها^(١).

وذكر القرطبي، معنيين: الأول إقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها والثاني المداومة عليها^(٢). وهذا الكلام لمن تأمله متقارب، ولكن تعبير القرطبي أوضح وأصرح وهو كقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- في تفسيره: "واقامتها: أداؤها بحدودها وفروضها والواجب فيها على ما فرضت عليه"^(٣)، وكذلك عند تعريفهما للصلاة اتفقا أنها أصل الصلاة في اللغة: الدعاء الدعاء، وعلى هذا جمهور المفسرين^(٤)، وتوسع المفسران في ذكر المعاني اللغوية الأخرى للصلاة، واستشهدوا بكلام العرب وشعرهم، فذكر ابن عطية أنها قد تكون أيضاً من الصلّا وهو عرق في وسط الظهر^(٥). ومثل ذلك فعل القرطبي إلا أنه أضاف أنها قد تكون مأخوذة من اللزوم، ومنه الصلي بالنار إذا لزمها، أو من صليت العود بالنار، وتوسع القرطبي فذكر أن لفظ الصلاة لفظ مشترك وقد يأتي للدعاء وللرحمة وللتسبيح وللنافلة ولسبحة الضحى

(١) المحرر الوجيز (٧٢/١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦٤/١).

(٣) جامع البيان، للطبري (٢٤٢/١).

(٤) جامع البيان، للطبري (٢٤٢/١)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للشعلبي (١٤٥/١)، الهداية الى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب (١٣٢/١)، التفسير البسيط، للواحي (٧٣/٢)، تفسير السمعاني (٤٣/١)، معالم التنزيل، للبيهقي (٨٥/١)، وزاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٢٨/١)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (٣٨/١)، ولباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (٢٥/١)، وتفسير ابن كثير (١٦٩/١)، و الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للشعالبي (٢٣٠/١).

(٥) المحرر الوجيز (٧٢/١).

إذا كان قارئاً واستدل بما ثبت في صحيح البخاري^(١) في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من إمامة عمرو بن سلمة^(٢) لقومه وهو ابن سبع سنين؛ لأنه أكثرهم قُرأناً^(٣).
والأمثلة كثيرة في نزاهة المفسرين، وفضلهما وعدم تعصبهما. فرحمهما الله رحمة واسعة، ونفعنا بعلمهما في الدارين، آمين.

(١) صحيح البخاري، رقم ٤٣٠٢، (٥ / ١٥٠).

(٢) عمرو بن سلمة الجرمي، أبو بريد، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وكان يؤم قومه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أكثرهم حفظاً للقرآن. أسد الغابة، لابن الأثير (٤ / ٢٢٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١ / ٣٢٥).

المطلب الثاني

المقارنة في الزكاة

لفظ الزكاة يرجع معناه إلى أصلين: الأول: النماء وهو الزيادة والبركة في الشيء، والثاني: الطهارة و الصلاح، فزكاة المال بركة له وهي رجاء لزيادته، وهي طهارة من الذنوب والشح والحسد والضغائن، وتزكية النفس تنمية الخير فيها وتطهيرها من الشر، وتزكية الشهود ذكرهم بالخير ونفي الشر والتهمة عنهم^(١).

والزكاة المقصودة في هذا المطلب هي العبادة ببذل المال في مصارفه الشرعية بشروط معروفة في الشرع، وقد قيل في تعريفها: "الزكاة في اللغة: الزيادة، وفي الشرع: عبارة عن إيجاب طائفة من المال في مال مخصوص لمالكٍ مخصوص"^(٢).

وأهمية الزكاة لا تخفى فهي قرينة الصلاة في كتاب الله، وركن من أركان الإسلام وفريضة من فرائض الله شرعها في أموال الأغنياء لمواساة المحتاجين وإقامة الدين فهي عمود الاقتصاد الإسلامي، والعدالة الاجتماعية، والضمان الاجتماعي، وهي سبب لطهارة النفس وصلاح المجتمع، وقد تكرر نكر الزكاة في كتاب الله كثيرًا، واهتم المفسران ابن عطية والقرطبي بتفسير آيات الزكاة وأحكامها.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في تفسير آيات الزكاة:

يتفق المفسران من حيث الاهتمام بآيات الزكاة، مع توسع القرطبي أكثر من ابن عطية لاسيما في سرد الأحكام الفقهية والأحاديث النبوية، ومما اتفق فيه المفسران تعريف الزكاة

(١) العين، للخليل الفراهيدي (٥/ ٣٩٤). مجمل اللغة، لابن فارس (ص: ٤٣٧). غريب القرآن، للأصفهاني (ص: ٢١٣). الفقه على المذاهب الأربعة، كتاب الزكاة، لعبد الرحمن الجزيري (١/ ٥٣٦). طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، لمؤلفه: عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، أبو حفص، نجم الدين النسفي (ت: ٥٣٧هـ)، الناشر: المطبعة العامرة، مكتبة المثنى ببغداد، تاريخ النشر: ١٣١١هـ، (ص: ١٦).

(٢) التعريفات، للجرجاني (ص: ١١٤).

وأن أصلها من النماء والزيادة وقيل من التطهير، وتوسع القرطبي أكثر من ابن عطية بذكر قول آخر كما سيأتي في وجوه الافتراق، واتفق المفسران أن المقصود بالزكاة في قوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ هي المفروضة، ومما اتفقا فيه سرد أقوال العلماء في معنى ينفقون وماهي النفقة المرادة في الآية، مع توسع القرطبي أكثر في سرد الأقوال وحجتها، ورجح المفسران أن المقصود بالإنفاق في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾ عموم النفقة سواء الزكاة الواجبة أو التطوع أو النفقة على من يعول أو غير ذلك من الأقوال التي ذكرها العلماء، قال ابن عطية - رحمه الله -: "والآية تعم الجميع. وهذه الأقوال تمثيل لا خلاف"^(١)، وقال القرطبي - رحمه الله -: "وقيل: هو عام وهو الصحيح؛ لأنه خرج مخرج المدح في الإنفاق مما رزقوا، وذلك لا يكون إلا من الحلال، أي يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وغيرها..."^(٢)، وفي هذا دلالة واضحة على فقه المفسرين وعلمهما وفضلهما، وتشابه منهجها في التفسير فهما يهتمان بالتعاريف والشواهد اللغوية ونقل أقوال أهل العلم وحسن التعامل مع الأقوال المختلفة في قواعد رصينة.

وجوه الافتراق بين التفسيرين في تفسير آيات الزكاة:

توسع القرطبي أكثر من ابن عطية، وذكر تعريف الإنفاق والرزق لغةً وأصل اشتقاقهما، ولم يفعل ذلك ابن عطية مع اهتمامه بمعاني الألفاظ واشتقاقها، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يُفْقُونَ﴾ ذكر القرطبي أقوال أهل العلم وحجتهم وأحاديث نبوية، بينما سرد ابن عطية أقوالهم دون ذكر حجتهم، وذكر القرطبي أقوالاً لم يذكرها ابن عطية، كقوله: ﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾ أي مما علمناهم يُعَلِّمون^(٣).

(١) المحرر الوجيز (٧٢/١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٧٧/١).

(٣) المصدر السابق (١٧٦/١).

وعند تعريف الزكاة وأصلها ذكر القرطبي نحو ما ذكره ابن عطية بأن الزكاة مأخوذة من النماء وقيل من التطهير، وزاد قولاً ثالثاً لم يذكره ابن عطية، فقال: "وقيل: أصلها من الشاء الجميل.."^(١)، والقرطبي يتوسع كعادته عند ذكر اللفظ القرآني لأول مرة ويسرد الأحكام الشرعية التي تنطوي تحت ذلك اللفظ، وقد ذكر عند لفظ الزكاة بأنها في كتاب الله مُجْمَلَةٌ، وبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته، وسرد القرطبي جملة من الأحاديث النبوية الخاصة بأحكام الزكاة، وذكر أنه سيذكر مزيداً من الأحكام في أماكن أخرى مثل سورة الأنعام والتوبة، وذلك كله وفاءً بشرطه ومنهجه في جمع الأحكام الشرعية المتعلقة بالآيات، بينما ابن عطية وقف عند لفظ الزكاة وفسر معناه دون التعرض لأحكام الزكاة، وفاءً بشرطه ومنهجه في تفسير الآيات بحسب رتبة اللفظ كان حُكْمًا أو غيره^(٢).

أمثلة تطبيقية:

مدح الله عباده المتقين بالإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٣)

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾... والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً، بخلاف قول المعتزلة إن الحرام ليس برزق، و﴿يُنْفِقُونَ﴾ معناه هنا يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وما ندبهم إليه من غير ذلك. قال ابن عباس: يُنْفِقُونَ يؤتون الزكاة احتساباً لها. قال غيره: الآية في النفقة في الجهاد. قال الضحاك: هي نفقة كانوا يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر يسرهم. قال ابن مسعود وابن عباس أيضاً: هي

(١) المصدر السابق (٣١٧/١).

(٢) انظر: منهج المفسرين وشرطهما، المحرر الوجيز (١٠/١، ١٢٧)، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١، ٣١٧).

(٣) البقرة: ٣

سقت السماء والعيون أو كان عَثْرِيًّا^(١) العشر وما سُقي بالنضح^(٢) (نصف العشر)^(٣)، وسيأتي بيان هذا الباب في الأنعام إن شاء الله تعالى. ويأتي في براءة زكاة العين والماشية وبيان المال الذي لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(٤)، وأما زكاة الفطر فليس لها في الكتاب نص عليها إلا ما تأوله مالك هنا وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾^(٥). والمفسرون يذكرون الكلام عليها في سورة الأعلى، ورأيت الكلام عليها في هذه السورة عند كلامنا على آي الصيام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر في رمضان الحديث. وسيأتي فأضافها إلى رمضان^(٦).

دراسة وتحليل:

المفسران يهتمان بتفسير آيات الزكاة، وابن عطية فسرها بحسب تعلقها بألفاظ القرآن، وتوسع فذكر بعض أقوال أهل العلم في النفقات والزكاة وذكر تعريف الزكاة في لغة العرب وربطه بالمعنى الشرعي ولم يستطرد في ذكر الأحكام والأحاديث النبوية المتعلقة بالزكاة كما فعل القرطبي، وأما القرطبي فقد ذكر ما ذكره ابن عطية وزاد عليه بعض الفوائد، ولهذا فالتفسيران بالعموم متشابهان إلا أن القرطبي في الغالب يزيد أقوالاً ومسائل لا

(١) عَثْرِيًّا: بفتح العين والثاء وتشديد الياء، وهو الذي يشرب بعروقه من غير سقي، واشتقاقه من العاثر وهي الساقية أو الحفرة التي يجري فيها الماء لأن الماشي يعثر فيها. فتح الباري، لابن حجر (٣/ ٣٤٩).

(٢) ما سُقي بالنضح: أي ما سُقي كالنقل بالدلاء والإبل، والنواضح: الإبل التي يُسقى عليها، ويدخل في حكمها البقر وكل ما حُمِل عليه لأجل سُقيا الأرض، والمقصود ما كان يُسقى بكلفة وجهد فزكاته تكون بإخراج نصف العشر، وما كان يُسقى بغير مؤنة، فزكاته بإخراج العشر. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ٦٩)، وفتح الباري، لابن حجر (١/ ١٩٥).

(٣) صحيح البخاري، باب العشر فيما يُسقى من ماء السماء، رقم ١٤٨٣، (٢/ ١٢٦).

(٤) التوبة: ١٠٣

(٥) الأعلى: ١٤

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣١٧-٣١٨).

يذكرها ابن عطية ويتوسع أكثر منه، وأما في جانب الأحكام الشرعية فتفسير القرطبي يُفارق تفسير ابن عطية وجملة التفسير فهو كتاب فقهي يعني بتتبع الأحكام الشرعية وربطها بالآيات المناسبة لها، ولهذا سرد القرطبي مجموعة من الأحاديث التي تبين أحكام الزكاة بخلاف ابن عطية، والمفسران يُفسران بحسب قواعد رصينة ومنهج قويم، فمثلاً عند سردهما لأقوال أهل العلم في تعيين النفقة المرادة بقوله تعالى: ﴿يُفْقُونَ﴾ اتفق المفسران أن المراد عموم النفقة مما أوجبه الله أو ندب إليه، وأن أقوال أهل العلم في تعيين النفقة من باب التمثيل لا التضاد، وفي هذا قاعدة هامة وتأصيل مهم في أن معظم اختلاف أقوال المفسرين ليس من باب التضاد ولكنه من باب التمثيل والتقريب قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فصل: (في اختلاف السلف في التفسير اختلاف تنوع): الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد" (١)، والقاعدة: حذف المتعلق يفيد العموم، مالم يكن هناك ما يخصه أو يقصره على معنى معين (٢)، ولهذا فترجيح ابن عطية والقرطبي في أن الآية تفيد العموم قول سديد مبني على قواعد رصينة، وممن رجح ذلك من المفسرين ابن جرير الطبري (٣)، والواحدي (٤)، وابن جزي (٥)، والثعالبي (٦).

وتوسع القرطبي واستطرد وأشار إلى قاعدة هامة في التفسير وهي أن السنة مُبينة لما أُجمل في القرآن، فالزكاة وردت في كتاب الله مجملة، ومفصلة في السنة، وهذه القاعدة

(١) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، عام ١٤٩٠هـ-١٩٨٠م، (ص: ١١).

(٢) انظر: مختصر في قواعد التفسير، لمؤلفه: خالد بن عثمان السبت، الناشر: دار ابن القيم- دار ابن عفان، ط: الأولى، عام ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، (ص: ٢٢).

(٣) جامع البيان، للطبري (١/ ٢٤٤).

(٤) الوجيز، للواحدى (ص: ٩٠).

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٧٠).

(٦) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (١/ ١٨٤).

أصل من أصول الدين والتفسير، ولهذا فأولى طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة ثم بكلام الصحابة والسلف^(١)، ولهذا سرد القرطبي مجموعة من أحاديث أحكام الزكاة، ووعده بالتفصيل والزيادة في مواضع أخرى من تفسيره هي أكثر علاقة ومناسبة. ولم يفعل ذلك ابن عطية، واكتفى بتفسير معنى الزكاة دون ذكر الأحكام أو الأحاديث المتعلقة بالزكاة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٢) اختلف قول المفسرين^(٣)، واتفق المفسران أن الأمر للوجوب والزكاة هي المفروضة، وفي هذا موافقة لجمهور أهل العلم بأن الأمر يقتضي الوجوب إلا أن يصرفه صارف^(٤)، ولفظ الزكاة المقصود به الزكاة الشرعية المفروضة لاسيما إذا قرئ بالصلاة، وعلى هذا جمهور المفسرين^(٥)، وفي هذا إشارة إلى قاعدة تفسيرية هامة أن الأصل في خطاب الله تعالى تقديم الاصطلاح الشرعي على غيره مالم يدل الدليل أن المراد غيره.

وعند تعريف الزكاة ذكر ابن عطية أن لها أصليين: الأول أنها مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد، والأصل الثاني أنها من التطهير^(٦) وربط المعنيين بمعنى الزكاة الشرعي ومثل ذلك فعل القرطبي إلا أنه أضاف قولاً ثالثاً فقال: "وقيل: أصلها الثناء الجميل، ومنه زكى

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فصل (تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة، وأقوال الصحابة): فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بُسط في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له". مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٣٩).

(٢) قال الشوكاني: "وقد اختلف أهل العلم في المراد بالزكاة هنا، فقيل: المراد المفروضة لاقترانها بالصلاة، وقيل صدقة الفطر، والظاهر أن المراد ما هو أعم من ذلك". فتح القدير، للشوكاني (١/ ٩٠).

(٣) روضة الناظر وجنة المناظر مسألة: الأمر المجرد يدل على الوجوب (١/ ٥٥٢).

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري (١/ ٥٧٣)، بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٤٨)، والكشف والبيان، للثعلبي (١/ ١٨٨)، والنكت والعيون، للمواردي (٦/ ١٣٤)، والوجيز للواحدى (ص: ١٠٢)، وتفسير السمعاني (٦/ ٨٦)، ومعالم التنزيل، للبيهقي (١/ ١١٠)، ولباب التأويل، للخازن (١/ ٤١)، والبحر المحيط، لأبي حيان (١/ ٢٩٢)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٠).

(٥) المحرر الوجيز (١/ ١٢٧).

القاضي الشاهد^(١). والباحث يرى أن هذا ليس خلافاً بين المفسرين وإنما هو من باب التوسع، وأن الزكاة كما أخبر ابن عطية مأخوذة من أصلين: (الزيادة والظهارة)، كما أشار إلى ذلك شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره فقال: "القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾^(٢): قد دللنا فيما مضى قبل، على أن معنى التزكية: التطهير، وأن معنى الزكاة: النماء والزيادة، فمعنى قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ في هذا الموضع: ويطهرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان، وينميهم ويكثرهم بطاعة الله"^(٣)، وعلى هذا فجميع المعاني في الزكاة والتزكية ترجع إلى هذين الأصلين (النماء والظهارة)، ولهذا لا تعارض بين قولي ابن عطية والقرطبي في تعريف الزكاة.

ومن الملاحظ أيضاً من خلال الأمثلة التطبيقية وغيرها، أن القرطبي نقل ما ذكره ابن عطية في معنى الإنفاق وزاد أقوالاً من باب الفائدة كقوله: "وقال بعض المتقدمين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي مما علمناهم يُعلمون"^(٤) وهذا من باب التمثيل لا الخلاف وفي نقل هذه الأقوال فائدة كبيرة لتنبية القارئ فيما قد يغفل عنه مما يدخل تحت معنى اللفظ، ولهذا اتفق المفسران بعد نقلهما للأقوال أنها من باب التمثيل والآية للعموم^(٥)، فالمتقي يُنفق مما رزقه الله كان مالاً أو علماً أو غيره، وسواء كانت تلك النفقة الواجبة أو المندوب إليها.

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣١٧/١)

(٢) البقرة: ١٢٩

(٣) تفسير الطبري (٨٨ / ٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٧٥/١).

(٥) المحرر الوجيز (٧٢/١). والجامع لأحكام القرآن (١٧٧ / ١).

وأما تعرض القرطبي لأحكام الزكاة وأحاديثها بخلاف ابن عطية، فقد ذكرنا سابقاً أن هذا الخلاف نتيجة لما اشترطه كل منهما على نفسه، فالقرطبي شرط على نفسه جمع الأحكام الشرعية ولم يشترط ذلك ابن عطية^(١). فرحمهما الله رحمة واسعة.

(١) المحرر الوجيز (١٠/١). والجامع لأحكام القرآن (١٣/١).

المطلب الثالث

المقارنة في الصوم

الصوم في اللغة: الإمساك عن الشيء، والترك له، كان كلامًا أو طعامًا أو غيره^(١). والصوم في الشرع: الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، مع النية^(٢). وهو المقصود في هذا المطلب، والصوم من أركان الإسلام ومن العبادات الجليلة، وقد ورد في فضله الشيء الكثير، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (إن في الجنة بابًا يُقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يُقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد)^(٣)، وفي الحديث القدسي: (يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي، وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها)^(٤)، وفي الصوم فوائد ومنافع متعددة منها أنه ترويض للنفس على الصبر والتقوى، ومنها أنه حاجز من الآثام و النار، ومنها الشعور بحال الفقراء والمساكين والمحرومين، ومنها معرفة النعم وقيمتها، ومنها أنه من الشعائر التي تجمع الأمة الإسلامية، وفي الصوم فوائد صحية جمة، وقد فرض الله هذه العبادة في كتابه وبين لنا أنها من الشرائع الأصلية التي فُرضت على من قبلنا، وأنها سببًا للتقوى، وقد اهتم المفسران ابن عطية والقرطبي بتفسير آيات الصيام وأحكامه.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في تفسير آيات الصيام:

اهتم التفسيران بآيات الصيام، وتوسعا في ذلك، فذكرتا تعريف الصيام لغة واصطلاحًا مع ذكر الشواهد، وتطرقا لمعنى شهر رمضان، وذكرتا القراءات ووجهها في الألفاظ التي

(١) تهذيب اللغة، للهروي (١٢ / ١٨٢)، والتعريفات، للجرجاني (ص: ١٣٦).

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة، لعبد الرحمن الجزيري (١ / ٤٩٢)، وفقه السنة، لمؤلفه: سيد سابق (ت: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط: الثالثة، عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، (١ / ٤٣١).

(٣) صحيح البخاري، باب الريان للصائمين، رقم ١٨٩٦، (٣ / ٢٥)

(٤) صحيح البخاري، باب فضل الصوم، رقم ١٨٩٤، (٣ / ٢٤).

لقد فسر ابن عطية هذه الآيات في عشر صفحات، وفسرها القرطبي في أكثر من خمس وعشرين صفحة، ولهذا سنكتفي بذكر بعض المواضع من هذه الصفحات لدراستها وتحليلها وتوضيح وجوه الاتفاق والافتراق فيها.

تعريف الصيام وحكمه:

قال القاضي ابن عطية -رحمه الله- في تفسيره:

"و﴿كُنِبَ﴾: معناه فُرض. والصيام في اللغة: الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال... [وذكر عدة شواهد]، والصيام في الشرع: إمساك عن الطعام والشراب مقترنة به قرائن من مراعاة أوقات وغير ذلك"^(١).

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره:

" كُتِبَ عليهم الصيام وألزمهم إياه وأوجبه عليهم، ولا خلاف فيه... ومعناه في اللغة: الإمساك، وترك التنقل من حال إلى حال... [وذكر شواهد]، والصوم في الشرع: الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتمامه وكماله باجتناب المحظورات وعدم الوقوع في المحرمات، لقوله عليه السلام: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)^(٢)"^(٣).

دراسة وتحليل:

اتفق المفسران في حكم صيام رمضان وهو الوجوب، وزاد القرطبي أنه لا خلاف في ذلك وذكر دليلا من السنة، كما اتفق المفسران في معنى الصيام لغة: وهو الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال. وذكرنا لذلك مجموعة من الشواهد، واختلف تعريفهما للصيام في

(١) المحرر الوجيز (١/٢٥٥).

(٢) صحيح البخاري، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم ١٩٠٣ (٣/٢٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/٦٥٧-٦٥٨).

الشرع، فتعريف ابن عطية كان مختصراً غير تام، حيث قال: إمساك عن الطعام والشراب مقترنة به قرائن من مراعاة أوقات وغير ذلك" (١) فلم يذكر الإمساك إلا من الطعام والشراب، ولم يذكر النية وقدر الصوم، وأمّا القرطبي فقد جاء تعريفه جامع مانع حيث قال: "الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتمامه وكماله باجتناب المحظورات وعدم الوقوع في المحرمات" (٢) فكان تعريفه أشمل وأوضح، وفيه فائدة جليلة أن الصيام على مرتبتين مرتبة إجزاء وتكون بترك المفطرات الشرعية، ومرتبة تمام وكمال وتكون بترك جميع الآثام والمحرمات. وقد اختلفت عبارة المفسرين في تعريف الصيام شرعاً، وقد جاء تعريف القرطبي هذا من أحسن التعاريف، وبنحوه قال الإمام الرازي (٣)، والشوكاني (٤).

مَوْضِعُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وَمَعْنَى ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

:

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله -:

"اختلف المتأولون في موضع التشبيه، فقال الشعبي وغيره: المعنى كُتِبَ عليكم رمضان كما كُتِبَ على النصارى، قال: فإنه كتب عليهم رمضان فبدلوه؛ لأنهم احتاطوا له بزيادة يوم في أوله ويوم في آخره قرناً بعد قرن حتى بلغوه خمسين يوماً، فصعب عليهم في الحر

(١) المحرر الوجيز (١/٢٥٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/٦٥٨).

(٣) محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، فخر الدين الرازي، أبو عبد الله القرشي التيمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد ابن خطيب الري الشافعي الأشعري، الإمام، الأصولي، المفيسر، من تصانيفه (مفاتيح الغيب)، وُلِدَ عام (٥٤٤ هـ) وتُوفِيَ (٦٠٦ هـ). انظر: الوافي بالوفيات (٤/١٧٥)، وقال الإمام الرازي: "وفي الشريعة هو الإمساك من طلوع الفجر إلى غروب الشمس عن المفطرات حال العلم بكونه صائماً مع اقتران النية". مفاتيح الغيب، للرازي (٥/٢٣٩).

(٤) قال الشوكاني: "وهو في الشرع: الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس". فتح القدير، للشوكاني (١/٢٠٧).

وقيل: التشبيه واقع على صفة الصوم الذي كان عليهم من منعهم من الأكل والشرب والنكاح، فإذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام. وكذلك كان في النصرى أولاً وكان في أول الإسلام، ثم نسخه الله تعالى... وقال معاذ بن جبل^(١) وعطاء: التشبيه واقع على الصوم لا على الصفة ولا على العدة وإن اختلف الصيامان بالزيادة والنقصان. وفي قول ابن عباس كُتب عليكم الصيام أي في أول الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء، كما كُتب على الذين من قبلكم وهم اليهود ثلاثة أيام ويوم عاشوراء. ثم نُسخ هذا في هذه الأمة بشهر رمضان... الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لعل: ترج في حقهم، كما تقدم. و تتقون: قيل: معناه هنا تضعفون، فإنه كلما قل الأكل ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت الشهوة قلت المعاصي. وهذا وجه مجازي حسن. وقيل: لتتقوا المعاصي. وقيل: هو على العموم...^(٢).

دراسة وتحليل:

تشابهت طريقة المفسرين في تفسير الآية ونقل اختلاف أقوال أهل العلم منسوبة لهم في موضع تشبيهه فرض الصيام علينا بصيام من قبلنا ونقلها فيها أربعة أقوال خلاصتها:

الأول: أن موضع الشبه في صوم شهر رمضان نفسه بعدده ووقته، كما فرض على من قبلنا من أهل الكتاب ولكنهم حرفوا شهر رمضان وزادوا فيه وغيروا وبدلوا. الثاني: أن موضع الشبه (صفة الصوم) وهو الامتناع عن المفطرات فإذا حان الإفطار والصائم قد نام فعليه الوصال ولا يجوز له الفطر في تلك الليلة، وكان هذا موجوداً في أول الإسلام ثم نُسخ.

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي الخزرجي، أبو عبدالرحمن الأنصاري، الصحابي الجليل والإمام المُقَدَّم في علم الحلال والحرام، مات بناحية الأردن في طاعون عمّواس سنة (١٨هـ) وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة. سير أعلام النبلاء، للذهبي (٣٩٢/١)، الإصابة، لابن حجر (١٣٦/٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٦٥٩).

الثالث: أن موضع الشبهه (ما فرضه على من قبلنا من صيام يوم وعشورا وثلاثة أيام من كل شهر). وكان هذا في أول الإسلام ثم نسخ برمضان.

الرابع: موضع الشبهه أصل وجوبه، لا في الوقت و الكيفية، بل من حيث أنها عبادة كانت فيمن قبلنا، ثم لكل شريعة تفصيلها وطريقتها.

وقد نقل المفسران تلك الأقوال منسوبة إلى قائلها وتقاربت عبارتهم في نقلها، ولم يُرجحها. والباحث يرى أن أولى هذه الأقوال: القول الأول وهو أن رمضان بعدده وزمنه كان مفروضاً على من قبلنا، لأن الآيات بعد أن ذكرت فرض الصيام ذكرت شهر رمضان، وهذه قرينه أنه هو المقصود، وكثير من المفسرين ذكروه في أول أقوالهم، كابن عطية والقرطبي، وشيخ المفسرين ابن جرير الطبري^(١).

والقول الثاني: أن وجه الشبهه هو فرض الصيام بغض النظر عن زمانه وعدده وصفته، ولكن من حيث أن الصيام عبادة أصيلة فُرضت على من قبلنا، وقد فسر الزمخشري الآية بهذا القول واكتفى به^(٢)، ورجح هذا القول الرازي^(٣).

وذكر القرطبي فائدة: وهي تعليل النهي عن صوم يوم الشك أو وصل رمضان بالأيام الست، لكي لا نشابه أهل الكتاب فيما حصل منهم من الزيادة والتحريف في صوم رمضان^(٤).

المرض الذي يبيح الفطر

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

(١) جامع البيان، للطبري (٣ / ٤١٠).

(٢) الكشف، للزمخشري (١ / ٢٢٥).

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٥ / ٢٣٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢ / ٦٥٩).

"واختلف العلماء في حد المرض الذي يقع به الفطر: فقال قوم: متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المريض صح الفطر قياسًا على المسافر أنه يفطر لعدة السفر وإن لم تدعه إلى الفطر ضرورة، وقاله ابن سيرين^(١). وقال جمهور من العلماء: إذا كان به مرض يؤذيه ويؤلمه أو يخاف تماديه أو يخاف من الصوم تزيده صح له الفطر، وهذا مذهب حذاق أصحاب مالك رحمه الله، وبه يناظرون، وأما لفظ مالك فهو: المرض الذي يشق على المرء ويتبلغ به. وقال الحسن: إذا لم يقدر من المرض على الصلاة قائمًا أفطر. وقالت فرقة: لا يفطر بالمرض إلا من دعت ضرورة المرض نفسه إلى الفطر، ومتى احتتمل الضرورة معه لم يفطر، وهذا قول الشافعي رحمه الله"^(٢).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

" للمريض حالتان: إحداهما: ألا يطيق الصوم بحال، فعليه الفطر واجبًا. الثانية: أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة، فهذا يستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهل. قال ابن سيرين: متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر، قياسًا على المسافر لعدة السفر، وإن لم تدع إلى الفطر ضرورة... [ثم نقل الأقوال التي ذكرها ابن عطية وتوسع قليلًا، واستشهد بكلام ابن عطية، ثم رجح قول ابن سيرين، قال القرطبي]: قول ابن سيرين أعدل شيء في هذا الباب إن شاء الله تعالى... "^(٣).

دراسة وتحليل:

(١) محمد بن سيرين البصري، أبو بكر الانصاري، كان أبوه من السبي فتملكه أنس بن مالك، وكاتب ابن محمد بن سيرين أنس فأعتقه، كان ابن سيرين إمامًا، فقيها، عالما، ورعا، أدبيا، كثير الحديث، صدوقا، شهد له أهل العلم والفضل بذلك، وهو حجة، مشهور بالورع وتعبير الرؤيا، مات ابن سيرين لتسع مضين من شوال سنة (١٠ هـ). انظر: سير

أعلام النبلاء، للذهبي (٤/ ٦٠٦).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٢٥٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٦٦٠).

اتفق المفسران في نقل كلام أهل العلم وخلافهم في حد المرض الذي يبيح للصائم الفطر، وذكر المذهب المالكي وغيره، مع نسبة معظم الأقوال إلى قائلها، وقد نقل القرطبي مثل كلام ابن عطية إلا أنه أضاف في بداية قوله: أن المريض له حالتان: الأولى أنه لا يقدر على الصيام بحال فهذا عليه الفطر وجوبًا، الثانية أنه يقدر على الصيام مع المشقة والضرر المحتمل فالفطر في حقه أفضل. ثم ذكر الأقوال التي ذكرها ابن عطية، وذكر قول ابن سيرين أن مجرد المرض يُبيح لصاحبه الفطر، ورجح القرطبي هذا القول وذكر أنه أعدل الأقوال، وممن رجع ذلك الظاهرية، قالوا: هو ما ينطلق عليه اسم المرض^(١)، بينما ابن عطية ذكر خلاف أهل العلم في حد المريض ولم يرجح.

السفر المبيح للفطر:

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

" واختلف العلماء في الأفضل من الفطر أو الصوم في السفر، فقال قوم والشافعي ومالك في بعض ما روي عنه: الصوم أفضل لمن قوي، وجل مذهب مالك التخيير. وقال ابن عباس وابن عمر وغيرهما: الفطر أفضل. وقال مجاهد وعمر بن عبد العزيز^(٢) وغيرهما: أيسرهما أفضلهما، وكره ابن حنبل وغيره الصوم في السفر... [ثم ذكر ابن عطية الخلاف عن بعض الصحابة، فرؤى عن بعضهم بأن الفطر في السفر عزيمة، وعن بعضهم أنه من صام في السفر قضاه في الحضر، وعن بعضهم أن الصوم هو

(١) المحلى بالآثار، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، دار الفكر - بيروت، (٣٩٥/٤).

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي، أبو حفص، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، الخليفة، الزاهد، الراشد، العادل، العالم، المجتهد، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين، وكان يدعى (أشج بني أمية) رمحته دابة وهو غلام فشجته، ولد ونشأ بالمدينة، عام (٦١هـ)، وولي الخلافة بعهد من سليمان عام (٩٩هـ)، ومدة خلافته سنتان ونصف، قيل: سمه بنو أمية، ومات بأرض حمص، يوم الجمعة، لخمس بقين من رجب، سنة (١٠١هـ) ودفن هناك. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٥/ ١١٤)، والوفاي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي (٢٢/ ٣١٢).

المطلب الرابع

المقارنة في الحج

الحج في أصل اللغة القصد، قيل القصد إلى الشيء المعظم، وفي الشرع: قصدٌ لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة، في وقت مخصوص، بشرائط مخصوصة^(١)، وهو من شعائر الله العظيمة ومن أركان الإسلام الثابتة، فيه اجتماع للأمة، وتذكير بملة إبراهيم عليه السلام، وتعظيم للخالق، ومنافع كثيرة، وقد اهتم المفسران بتفسير آيات الحج وأحكامه لورود ذلك في نصوص القرآن، وسيأتي بيان ذلك من خلال المقارنة والأمثلة.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في تفسير آيات الحج:

لقد اتفق التفسيران في تفسير آيات الحج من حيث العموم والطريقة فكلاهما ذكر تعريف الحج، وشروطه، وأركانه، وجملة كبيرة من أحكامه.

وسبب توسع ابن عطية في ذكر أحكام الحج بخلاف فعله في تفسير آيات الصلاة والزكاة، أن نصوص القرآن ذكرت معظم أحكام الحج وقد اشترط على نفسه التفسير بحسب رتبة الألفاظ^(٢)، بخلاف الصلاة والزكاة ووردت في كتاب الله مجملة، وبيانها وتفصيلها في السنة، وقد أشار إلى ذلك ابن عطية فقال: " فرض الحج في كتاب الله بإجماع، وقال مالك رحمه الله: الحج كله في كتاب الله، فأما الصلاة والزكاة فهي من جملة الذي فسره النبي عليه السلام"^(٣)، وأما القرطبي فتوسع كعادته لما اشترطه على نفسه من جمع الأحكام الفقهية^(٤)، والمفسران يذكران القراءات الواردة في آيات الحج ومعاني الألفاظ وأسباب النزول ويستشهدان بلغة العرب وشعرها، ويذكران أقوال أهل العلم

(١) التعريفات، للرجزاني (ص: ٨٢).

(٢) انظر: شرط المؤلف في مقدمة كتابه المحرر الوجيز (١/١١).

(٣) المحرر الوجيز (١/٥٢٧).

(٤) انظر: شرط المؤلف في مقدمة كتابه الجامع لأحكام القرآن (١/١٣).

واختلافهم وينسبان الأقوال، ولا يغفلان المذهب المالكي وما فيه من أقوال. والتفسيران متفقان من حيث العموم.

وجوه الافتراق بين التفسيرين في تفسير آيات الحج:

القرطبي أكثر توسعاً في ذكر أحكام الحج والأحاديث المتعلقة بذلك، وقد ذكر بعض المسائل التي لم يذكرها ابن عطية في تفسيره؛ لأن من مقاصد القرطبي جمع الأحكام الفقهية. ولا يوجد افتراق حقيقي بين التفسيرين، وإذا وجد فهو افتراق يسير كما سيأتي في الأمثلة.

الأمثلة التطبيقية:

تعريف الحج والعمرة:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾^(١)

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"حَجَّ" معناه قصد وتكرر... و﴿اعْتَمَرَ﴾ زار وتكرر من عمرت الموضع"^(٢).

وقال كذلك عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾^(٣):

"والحج في اللغة: القصد لكنه في بيت الله مخصص بأعمال وأقوال"^(٤).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ﴾ أي قَصَدَ. وأصلُ الحَجِّ: القَصْدُ... ثم اختص هذا الاسم

بالقصد إلى البيت الحرام لأفعال مخصوصة،... و﴿اعْتَمَرَ﴾ أي زار. والعمرة: الزيارة"^(٥).

(١) البقرة: ١٥٨

(٢) المحرر الوجيز (١/٢٣٢).

(٣) آل عمران: ٩٧

(٤) المحرر الوجيز (١/٥٢٧).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٢/٥٨١).

أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به، ولا أن يطلع على فائدة تكليفه، وإنما يتعين عليه الامتثال، ويلزمه الانقياد من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود...^(١).

وأما العمرة فقد اختلف أهل العلم في حكمها هل هي فرض أو سنة، وقد ذكر المفسران الخلاف دون ترجيح صريح.

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله -:

"واختلف في فرض العمرة فقال مالك رحمه الله: هي سنة واجبة لا ينبغي أن تترك كالوتر [ثم حكى ابن عطية اختلاف أهل العلم وأقوالهم منسوبة إليهم] فذكر أنها غير واجبة عند أصحاب الرأي، وحكى عن أبي حنيفة أنه يوجبها كالحج، وبأنها سنة^(٢)...، وروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن عمر والشافعي وأحمد وغيرهم أنها واجبة كالفرض"^(٣).

وقال رحمه الله أيضاً "ومذهب مالك وأصحابه في العمرة أنها سنة إلا ابن حبيب^(٤) فإنه قال بوجوبها"^(٥).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾^(٦)

"الرابعة: في هذه الآية دليل على وجوب العمرة؛ لأنه تعالى أمر بإتمامها كما أمر بإتمام الحج... [ثم ذكر بعض القائلين بالوجوب وأقوالهم وبعض الآثار] وممن قال بوجوبها علي

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/٥٠٣).

(٢) العمرة سنة عند المالكية والحنفية. انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، لمؤلفه: عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري (ت: ١٣٦٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، (١/٦١٥).

(٣) المحرر الوجيز (١/٢٧٣).

(٤) ابن حبيب: أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة ابن الصحابي عباس بن مرداس، السلمى، الأندلسي، القرطبي، المالكي، أحد الأعلام، فقيه إمام علامة، وكان موصوفا بالحنق في الفقه، كبير الشأن، بعيد الصيت، كثير التصانيف، إلا أنه في باب الرواية ليس بمتقن، ولد في حياة الإمام مالك، بعد عام (١٧٠هـ)، وتوفي نحو سنة (٢٣٨هـ) تقريباً. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٢/١٠٢).

(٥) المحرر الوجيز (١/٢٣٣).

(٦) البقرة: ١٩٦

ابن طالب وابن عمر وابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وطاووس ومسروق والشافعي وأحمد... ، [ثم نقل القرطبي أقوالاً أخرى لأهل العلم منسوبة إليهم بأن العمرة ليست بفرض] فحكى عن مالك قوله: العمرة سنة ولا نعلم أحدا أرخص في تركها. وحكي مثله عن أصحاب الرأي، وعن أبي حنيفة أنه كان يوجبها كالحج، وبأنها سنة ثابتة... وناقش القرطبي القولين، وذكر أن قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ لا حجة فيه للوجوب؛ لأن الله سبحانه إنما قرنهما في وجوب الإتمام لا في الابتداء. وبعد أن بين حجة الأقوال وناقشها لم يرجح^(١).

الدراسة والتحليل:

المفسران اتفقا على أن الحج فرض واجب بالكتاب والسنة والإجماع وهذا مما لا خلاف فيه، إلا أن القرطبي زاد كلاماً من باب الفائدة، فذكر خلاف من لا يعتقد به من باب التنبيه والرد عليه، فذكر أن هناك من قال: بفرضيته كل خمسة أعوام. وأن قولهم هذا مردود بالأدلة من الكتاب والسنة والإجماع، وأن ما استدلوا به في ذلك لا يصح. وذكر قول الملاحدة الذين استشكلوا الحج وفرضيته بمجرد العقل والرأي ولأن بعض أفعاله تنافي الحياء والوقار والعقل - بزعمهم - وردّ عليهم أن العبد لا يشترط أن يعلم الحكمة والعلة في كل ما يؤمر به، وإنما يجب عليه الامتثال، وأن الأحكام تثبت بالأدلة لا بالعقل والهوى، والحج ثابت بالإجماع والأدلة. وفي هذه الزيادة من القرطبي توسع لكنه مفيد، والقرطبي كعادته يتوسع ويرد على المخالفين ويوصل لتقديم الدليل على غيره.

وأما العمرة فقد ذكر المفسران أقوال أهل العلم واختلافهم مع نسبة الأقوال وأدلتها، وخلاصة الأقوال قولين: الأول: أنها فرض كالحج، والثاني: أنها سنة مؤكدة كالوتر، مع تشديدهم بأنه لا ينبغي تركها، ولم يذكر المفسران الراجح من القولين، وإن كان المتأمل في كلامهما يجد أنهما يميلان لقول مالك ومذهبه أنها سنة مؤكدة كالوتر. وهذا ما رجحه

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٧٣٥).

شيخ المفسرين ابن جرير الطبري صراحة بعد أن ذكر الأقوال وناقشها، فقال رحمه الله: "وَأَنَّ أَوْلَى الْقَوْلِينَ فِي (الْعِمْرَةِ) بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: هِيَ تَطَوُّعٌ لَا فَرِيضٌ"^(١). وهذا هو الراجح ان شاء الله، لأن الفروض عادة يثبت وجوبها بالإجماع والأدلة الصريحة. والعمرة ليس في وجوبها دليل صحيح صريح، ومختلف في حكمها اختلاف معتبر، مع وجود أدلة تشهد أنها سنة. والله أعلم.

معنى الاستطاعة الموجبة للحج:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢)

اتفق المفسران كغيرهم من العلماء أن الاستطاعة شرط لوجوب الحج، ووقع الخلاف بينهم في تفسير الاستطاعة على أقوال وأمثلة كثيرة، وقد توسع المفسران في ذكر ذلك، فتكلم ابن عطية على الاستطاعة في ثلاث صفحات يذكر خلاف أهل العلم وأقوالهم منسوبة، ويذكر على ذلك الأدلة والأمثلة التي تبين حال المستطيع، ومثله فعل القرطبي إلا أنه كعادته في التوسع وجمع الأحكام فسر الاستطاعة في ست صفحات، وسنذكر خلاصة كلامهما هنا.

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"واختلف الناس في حال مستطيع السبيل كيف هي؟ فقال عمر بن الخطاب وابن عباس وعطاء وسعيد بن جبير: هي حال الذي يجد زادا وراحلة،... [وسرد بعض القائلين بهذا القول وأدلتهم ومنها]: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال له رجل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة^(٣). قال القاضي [ابن عطية]: والذي أقول: إن

(١) جامع البيان، الطبري (٣ / ٢٠).

(٢) آل عمران: ٩٧.

(٣) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة آل عمران، رقم ٢٩٩٨، (٥ / ٧٥). والحديث له عدة الشواهد، وأغلبها في سندها كلام، ولكن كما قال القرطبي: والعمل عليه عند أهل العلم أن من امتلك زاداً وراحلة وجب عليه الحج. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣ / ٥٠٩)، والتلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لمؤلفه: أبي

يرجح صراحة ولعل السبب في ذلك النصوص النبوية التي حددت الاستطاعة بالزاد والراحلة، ولكن المتأمل في كلام القرطبي في أكثر مسائل الاستطاعة يجد أنه يرجح أن الاستطاعة أمر أوسع من الزاد والراحلة وأنها بحسب الطاقة والحال، وهذا هو الراجح ان شاء الله. والله أعلم.

المبحث الثاني

المقارنة في المعاملات

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المقارنة في الأخلاق

المطلب الثاني: المقارنة في الربا

المطلب الثالث: المقارنة في الرهن والشهادة

المطلب الأول

المقارنة في الأخلاق

إن من ركائز الدين الإسلامي الخُلق والمعاملة الحسنة، ولقد بعث الله تعالى رسله - عليهم الصلاة والسلام- بمكارم الأخلاق.

وحُسْن الخُلق من أسباب تفاضل الناس في الدنيا والآخرة، قال عليه الصلاة والسلام: (ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حسن)^(١)، وقال أيضاً: (إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً)^(٢).

وقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم يهدي به للتي هي أقوم، فأمر بالأخلاق الحسنة ونهى عن الأخلاق السيئة، وسُئلت عائشة -رضي الله عنها- عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت كان خلقه القرآن^(٣).

ولهذا اهتم المفسرون بتفسير آيات الأخلاق من خلال تفسير القرآن الكريم، إلا أن منهم من اختصر ومنهم من توسع، وكان القرطبي وابن عطية ممن توسعا، والقرطبي أكثر توسعاً من ابن عطية كما سيأتي.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين في تفسير آيات الأخلاق:

اتفق المفسران في ذكر الأخلاق والحث على مكارمها كما اتفق في التحذير من سوء الخُلق وخطر ذلك، والمفسران يُعرّفان الأخلاق التي وردت في القرآن الكريم ويستشهدان بكلام العرب والشعر والأحاديث والآثار، ويذكران القراءات وتوجيهها، وينقلان كلام أهل العلم منسوباً إليهم^(٤). ومما اتفق فيه المفسران في تفسير آيات الأخلاق أن أول ثلاث

(١) سنن الترمذي، باب ما جاء في حسن الخلق، وقال عنه حديث حسن صحيح، رقم ٢٠٠٢، (٤/٣٦٣).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٥٥٩، (٤/١٨٩).

(٣) مسند أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها، رقم ٢٤٦٠١، (٤١/١٤٨).

(٤) وهذه طريقة المفسرين وشرطهما، وانظر المحرر الوجيز (١/١٠)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/١).

معاصي عَصِي الله بها كانت بسبب ثلاثة أخلاق رديئة وهي (الكبر والحسد والشح) كما نُقِلَ عن الإمام مالك رحمه الله. وأن الاعتقاد والاخلاق الباطنة تسبق الفعل، والعمل ينتج عنها^(١). واتفقا في نقل القراءات متواترها وشاذها مع توجيه ذلك وذكر كلام أهل اللغة والعلم بهذا الشأن والتفسير بالمأثور عن السلف كما فعلا عند قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾^(٢)، وأنا مأمورون بالقول الحسن للناس^(٣). واتفق المفسران في تعريف جملة كبيرة من الأخلاق التي وردت في الآيات القرآنية، ومن ذلك تعريف الكبر والفظاظة وغلظة القلب، وأن الله تبارك وتعالى برحمته وفضله جعل محمداً -عليه الصلاة والسلام- لئلاً رحيماً رفيقاً بالمؤمنين حتى وإن حصلت منهم المخالفة^(٤). وسيأتي بيان ذلك كله في الأمثلة التطبيقية، والتفسيران من حيث العموم متفقان.

وجوه الافتراق بين التفسيرين في تفسير آيات الأخلاق:

توسّع القرطبي في بيان الأخلاق أكثر من ابن عطية، ومن توسعه أن عقد فصلاً مستقلاً في مقدمة كتابه سماه (ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه علماً وعملاً) وذكر فيه جملة من الأخلاق التي ينبغي أن يتخلق بها صاحب القرآن^(٥). والقرطبي عند ذكره لبعض الأخلاق يسترسل أكثر من ابن عطية فيذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار والفوائد مما لم يذكره ابن عطية كما فعل في معنى الكبر، فذكر الشواهد القرآنية لكبر إبليس، وذكر بعض الأحاديث التي تحذر من الكبر وتبين معنى الكبر^(٦). وكما فعل عند قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾^(٧) فذكر أننا مأمورون

(١) المحرر الوجيز (١ / ١١٦)، و الجامع لأحكام القرآن (١ / ٢٧٧).

(٢) البقرة: ٨٣

(٣) المحرر الوجيز (١ / ١٦٨)، و الجامع لأحكام القرآن (١ / ٢٧٧).

(٤) المحرر الوجيز (١ / ٥٩٤)، و الجامع لأحكام القرآن (٤ / ٥٩٦).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١ / ٣١).

(٦) المصدر السابق (١ / ٢٧٧).

(٧) البقرة: ٨٣

بالقول الحسن لجميع الناس السني والمبتدع والبر والفاجر، من غير مداهنة وإقرار للباطل^(١)، وهذه فائدة عظيمة لم يتطرق لها ابن عطية. وأحياناً يُشير ابن عطية إلى فائدة لا يذكرها القرطبي، وهذا قليل، كما فعل ابن عطية عند خلق الفظاظة والغلظة، ذكر غلظة عمر وأنها كانت لإقامة الحق والدين^(٢). وسيأتي بيان ذلك كله في الأمثلة التطبيقية.

أمثلة تطبيقية:

خطر (الكبر والحسد والشح) وأنها أول المعاصي وأمهات الخطايا.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٣)

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ دخل في الكبرياء، والإبائية^(٤) مقدمة على الاستكبار في ظهورهما عليه [أي على إبليس]، والاستكبار والأنفة مقدمة في معتقده. وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال: بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر والشح^(٥)، حسد إبليس آدم وتكبر، وشح آدم في أكله من شجرة قد نُهي عن قربها"^(٦).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٤٤٠).

(٢) المحرر الوجيز (١/٥٩٥).

(٣) البقرة: ٣٤

(٤) الإبائية من (الإباء): وهي الامتناع. تاج العروس (٣٧/١١).

(٥) الشح: البخل مع حرص. مختار الصحاح (ص: ١٦٢).

(٦) المحرر الوجيز (١/١١٦).

وأنَّ النِّظَافَةَ وَالْجَمَالَ وَالِاهْتِمَامَ بِالْمُظْهِرِ الْحَسَنِ الَّذِي لَا يَخَالِفُ الشَّرِيعَةَ لَيْسَ مِنَ الْكِبَرِ، بل ذلك من الجمال المطلوب المحبوب، وأنَّ الكبر المذموم هو احتقار الآخرين وانتقاصهم ورد الحق والترفع عليه كما فعل إبليس، وذكر القرطبي فائدة وهي أن كل من سفه أمر الله أو أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- فحكمه حكم إبليس الذي سفه أمر الله وورده، وذكر أن هذا مما لا خلاف فيه، فلا يجوز لشخص الاعتراض على أمر الله وحكمه، ومن فعل ذلك فحكمه حكم إبليس اللعين، وفي هذا وجوب تحكيم الشرع وتقديمه على حكم المخلوقين وأهوائهم. وهذا من المتفق عليه^(١).

مثال آخر: الأمر بالقول الحسن والكلام الطيب.

قال تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾^(٢)

قال القاضي ابن عطية -رحمه الله- في تفسيره:

"وقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾، أمر عطف على ما تضمنه ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ وما بعده من معنى الأمر والنهي، أو على أحسنوا المقدر في قوله ﴿ وَيَا بُولَدَيْنِ ﴾ [ثم ذكر القراءات في ﴿ حُسْنًا ﴾] قال ابن عباس معنى الكلام: قولوا لهم لا إله إلا الله

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٢٧٧)، وتفسير ابن كثير (٦/٤٢٣)، وغاية الوصول في شرح لب الأصول، لمؤلفه: زكريا الأنصاري، (ت: ٩٢٦هـ)، الناشر: دار الكتب العربية الكبرى، مصر، (ص: ١١٥)، وأصول الدعوة، لمؤلفه: عبد الكريم زيدان، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: التاسعة، عام ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، (ص: ٢٩٩)، ومنهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، لمؤلفه: د مصطفى محمد حلمي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٢٦هـ، (ص: ٣٢)، والصارم البتار للإجهاز على من خالف الكتاب والسنة والإجماع والآثار، لمؤلفه: حمود بن عبد الله التويجري (ت: ١٤١٣هـ)، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ط: الأولى، عام ١٤٠٩هـ (ص: ١٧٤).

(٢) الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَا بُولَدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ

حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ البقرة: ٨٣

معه. وقال طلحة بن عمرو^(١): قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل في حِدَّة فأقول لهم بعض القول الغليظ، فقال: لا تفعل! يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾. فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي^(٢)... وقيل: أراد بالناس محمدا صلى الله عليه وسلم... فكأنه قال: قولوا للنبي صلى الله عليه وسلم حُسْنًا. وحكى المهدي عن قتادة أن قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ منسوخ بآية السيف... قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الابتداء ثم نسختها آية السيف. قال ابن عطية: وهذا يدل على أن هذه الأمة حُوطبت بمثل هذا اللفظ في صدر الإسلام، وأما الخبر عن بني إسرائيل وما أمروا به فلا نسخ فيه، والله أعلم^(٣).

دراسة وتحليل:

تكلم المفسران عن هذه الآية بتوسع وأن مطلعها الأمر بتوحيد الله ثم الأمر بالإحسان للوالدين ثم ذوي القربى واليتامى والمساكين ثم الأمر بالقول الحسن للناس، وقد وقَّف المفسران عند ألفاظ هذه الآية وذكر تعريف ما فيها من ألفاظ وذكر ما فيها من الإحسان والبر. وقد اقتصر الباحث في هذه الآية على جزء منها وهو القول الحسن، مع أن الآية كلها في الاخلاق والإحسان والبر، لأنَّ المقام لا يتسع لذلك كله. وفي ما ذكره المفسران عند قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ثلاثة مسائل جديرة بالاهتمام والدراسة:

الأولى: اتفق المفسران في نقل أقوال السلف في تفسير القول الحسن وذكروا عدة أقوال، ولم يرجح المفسران لأن تلك الأقوال كلها تدخل تحت القول الحسن، وعلى هذا فاختلاف السلف في تعيين القول الحسن من باب اختلاف التنوع والتمثيل والتقريب، وكثيراً ما أشار

(١) طلحة بن عمرو بن عثمان الحضرمي، المكي، يروي عن التابعين كعطاء وسعيد بن جبير ونافع، وضعف حديثه العلماء، قال أحمد: متروك الحديث، وقال البخاري: ليس بشيء. قال أبو داود والدارقطني: ضعيف، وكانت وفاته سنة (٥٢١هـ). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي (٤/ ٩١).

(٢) الحنيف: المسلم الذي يتحنف عن الأديان أي يميل إلى الحق. لسان العرب (٩/ ٥٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤٤٠).

﴿١﴾ فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة^(٢)، فالأمر بالتوحيد والبر والإحسان وحسن الخلق من الأصول والمبادئ المشتركة التي جاءت بها الرسل عليهم الصلوات والسلام، وفي الحديث: (وخالق الناس بخلق حسن)^(٣).

المسألة الثالثة: أنّ من مكارم الاخلاق طيب الكلام ومحاورة الناس بما يحب الشخص أن يُحاور به، وأضاف القرطبي فائدةً عظيمةً أنّ ذلك لا ينحصر على الصديق الموافق بل ينبغي أن يكون مع البرّ والفاجر والسني والمبتدع، لأنّ ذلك من مكارم الأخلاق الذي أمرنا به، وسار عليه الأنبياء في دعوتهم، من غير إقرارٍ للباطل أو مدهنةٍ في الحق. وهذا الذي ينبغي أن يلتزمه المسلمون لاسيما العلماء وطلبة العلم والدعاة إلى الله فيما بينهم ومع غيرهم، وقد وقعت الأمة الإسلامية في تفرق وتمزق وتفسيق وتبديع وتكفير وتهجير وقتال معظمه بغير حق، بسبب سوء الظن وسوء الخلق من فحش القول وانتهاك الأعراض ثم الدماء، والله المستعان. وقد ذكر المفسران أن بعض أهل العلم يرى أن هذا منسوخ بآية السيف، والصحيح والله أعلم عدم النسخ ولا تعارض مع آية السيف، فحسن الخلق والقول الحسن من الاصول التي لا تُنسخ، والمسلم ليس بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذى، وكتب الله الإحسان على كل شيء، وآية السيف من الإحسان في الأرض لتحجيم الكفر وردع الباطل وإزالة الظلم وكف البغي. ولهذا يدخل في القول الحسن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل ذلك بضوابط الشرع، قال الإمام الرازي في تفسيره: "المسألة الخامسة: قال أهل التحقيق: كلام الناس مع الناس إمّا أن يكون في الأمور الدينية أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية فإمّا أن يكون في الدعوة إلى الإيمان وهو مع الكفار أو في الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق، أما الدعوة إلى الإيمان

(١) النساء: ٣٦

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٧).

(٣) سنن الترمذي، باب ما جاء في معاشرّة الناس، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، رقم ١٩٨٧ (٣/ ٤٢٣).

الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (٦ / ١٧)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (٢ / ٢٩٣)، روح البيان، لإسماعيل حقي (٢ / ١١٥). تفسير المنار، لمؤلفه: محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام: ١٩٩٠م (١٠ / ٤٧٤)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للسعدي (ص: ١٥٤).

ظظظظظظظظظظ

المطلب الثاني

المقارنة في الربا

الربا^(١) من المعاملات الجاهلية التي حَرَّمها الله عز وجل، لِمَا فيه من الظلم والجشع والأناية. وقد حَرَّمَ الله الربا في كتابه بآيات واضحة، وجعله من أقبح الذنوب والمعاملات.

وقد اهتم المفسران بتفسير آيات الربا وتوسعا كثيراً في أحكامه وذكرها كلاماً بديعاً في الزجر عنه وبيان ضرره.

وجوه الاتفاق بين التفسيرين:

اهتم المفسران بموضوع الربا وأحكامه والزجر عنه، فهما يقفان مع ألفاظ آيات الربا ويفسران ذلك، كما أنهما توسعا في ذكر أحكام الربا، ويذكران الأقوال والخلافات، والقراءات، ويستشهدان بالشواهد الشرعية والعربية عند تفسير آيات الربا، والتفسيران متفقان من حيث العموم. ومما اتفقا المفسران في ذكره: تعريف الربا وأنه الزيادة، وسبب تسميته عند العرب من قولهم للغريم أتربي أم تقضي؟، وأن الربا حرام وقد صور القرآن صاحبه بصورة بشعة، وأن سببه الطمع والجشع، وأن صاحب الربا يوم القيامة يقوم من قبره كالمجنون يتخبط ويضطرب ويكون ذلك عقوبة له وعلامة^(٢)، وأن الأصل في البيع الحل إلا ما ورد تحريمه شرعاً كالربا وغيره، وأن كثيراً من البيوع حُرمت لعلّة الربا، وأن الربا قد يُطلق على أكل المال الحرام تجوزاً، وأن الحكمة في تحريم الربا أنه مهلكة للأموال ولكي يتقارض الناس، وذكر المفسران أن الربا وإن كان ظاهره زيادة المال إلا أن باطنه وحقيقته نقص المال ومحقه، كما أن الصدقة وأن كان ظاهرها نقص المال إلا أنها تزيد في الأجر

(١) الربا: هو في اللغة الزيادة، وفي الشرع: هو فضل خالٍ عن عوض شرط لأحد العاقدين. التعريفات، للرجاني (ص: ١٠٩).

(٢) المحرر الوجيز (١/٣٩٩-٤٠٤). الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٩٨-٣١٧).

المدينة والشام، وأضاف مالك إليهما السلْت^(١). وقال الليث: السلْت والدخن والذرة صنف واحد... قلتُ: وإذا ثبتت السنة فلا قول معها. وقال عليه السلام: (فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد). وقوله: (البر بالبر والشعير بالشعير) دليل على أنهما نوعان مختلفان كمخالفة البر للتمر، ولأنَّ صفاتهما مختلفة وأسمائهما مختلفة، ولا اعتبار بالمنبت والمحصد إذا لم يعتبره الشرع، بل فصل وبين، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة والثوري وأصحاب الحديث^(٢) وقال القرطبي في موضع آخر: "وقال تعالى: ﴿يَأْكُلُونَ﴾ والمراد يكسبون الربا ويفعلونه. وإنما خص الأكل بالذكر؛ لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه دال على الجشع وهو أشد الحرص،... فأقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كله، فاللباس والسكنى والادخار والإنفاق على العيال، داخل في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾"^(٣).

دراسة وتحليل:

اتفق المفسران في تعريف الربا بأنه الزيادة، وأنه مأخوذ من كلام العرب للغريم أتقضي أم تُزبي؟ فكان الغريم يزيد في المال ويصبر الطالب عليه. وهذا التعريف هو التعريف اللغوي للربا^(٤)، والتعريف الشرعي لربا النسيئة وهو الزيادة في الدين مقابل تأخير القضاء، وهذا الذي كان معروفاً عند العرب ونزلت الآيات القرآنية بمعالجته وتحريمه، وقد ذكر هذا

(١) السُّلْتُ: ضرب من الشعير أبيض لا قشر له، وقيل هو نوع من الحنطة، والأول أصح. النهاية، لابن الأثير (٢/٣٨٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٩٩).

(٣) المصدر السابق (٣/٣٠٤).

(٤) تاج العروس، للزبيدي (٣٨/١١٧).

التعريف مُعظم المفسرين^(١)، وأمّا ربا الفضل وهو الزيادة في جنس ربوي واحد كبيع صاع تمر بصاعين تمر فلم يُذكر بالقرآن وذكر في السنة، وحُرِّم؛ لأنه ذريعة إلى ربا ولهذا نجد ابن عطية يتحدث عن الآيات ويتكلم عن ربا النسيئة مُدرجاً لربا الفضل تحته؛ لأنّ من منهجه تتبع ألفاظ الآيات وما يتعلق بها، وأمّا القرطبي فقد توسع وبَيَّن أن الربا في عُرْف الشرع قسمان (نسيئة وفضل)، وقد ذكر هذا جماعة من المفسرين^(٣). و لَمَّا كان تفسير القرطبي من التفسيرات الفقهية التي تجمع الأحكام توسع في بيان ربا الفضل وذكر أحاديث وأثار ومسائل عديدة. وعلى هذا فالتفسيران متفقان إلا أن القرطبي توسع في بيان ربا الفضل بخلاف ابن عطية الذي اقتصر على ربا النسيئة، وأشار باختصار شديد إلى أن ربا الفضل يندرج تحت ربا النسيئة وأنه محرم لأن فيه معنى الزيادة.

ومن الملاحظ أيضًا أن الإمام القرطبي لم يكن متعصبًا للمذهب المالكي، وإنما تعصبه للدليل الشرعي وأنّ منهجه في الغالب الأخذ بظاهر النصوص وتقديم ذلك على التأويلات، وهذا جلي عند ذكره خلاف أهل العلم في الشعير والبر هل هما جنسًا واحدًا فلا يجوز فيهما إلى أن يكونا مثلًا بمثل وهذا قول مالك والليث والأوزاعي ومعظم علماء المدينة والشام، ثم يُخالفهم القرطبي -رحمه الله- بقوله: وإذا ثبتت السنة فلا قول معها.

(١) جامع البيان، للطبري (٦ / ٧)، والكشف والبيان، للثعلبي (٢ / ٢٨٠)، التفسير الوسيط، للواحدي (١ / ٣٩٣)، وتفسير السمعاني (١ / ٢٨١)، ومعالم التنزيل، للبغوي (١ / ٣٨٢)، وأحكام القرآن، لابن العربي (١ / ٣٢٠)، وزاد المسير، لابن الجوزي (١ / ٢٤٧)، وتفسير ابن كثير (١ / ٧١٦)، وفتح القدير، للشوكاني (١ / ٣٣٨).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية (٢ / ١٠٤).

(٣) معالم التنزيل، للبغوي (١ / ٣٨٢)، ومفاتيح الغيب، للرازي، (٧ / ٧٢)، فتح القدير، للشوكاني (١ / ٣٣٨)، روح البيان، لإسماعيل حقي (٢ / ٩٣)، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٣ / ٩٦)، وتفسير المراغي (٣ / ٥٥). وتيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، للسعدي (١ / ١١٧)، والتحرير والتوير، لمؤلفه: محمد الطاهر بن بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، عام ١٩٨٤هـ، (٣ / ٨٧).

المال وحفظه وتنميته والتصرف فيه برشد، بدليل النصوص الكثيرة التي تدل على هذا، ثم ردَّ على غلاة المتصوفة وبعض الجهلة ممن يُحَقِّر من شأن المال ويأمر بإتلافه ونبذه ظنًّا أن ذلك هو الأقرب عند الله، ورجح القرطبي أن جمع المال متى صح القصد والعمل أفضل من تركه، واستدل بقول وفعل السلف في ذلك، حتى قال رحمه الله: "وما زال السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء، وإنما تحاماه قوم منهم إيثاراً للتشاغل بالعبادات، وجمع الهم ففنعوا باليسير. فلو قال هذا القائل: إن التقليل منه أولى قرب الأمر ولكنه زاحم به مرتبة الإثم. قلتُ: ومما يدل على حفظ الأموال ومراعاتها إباحة القتال دونها وعليها"^(١). وذكر ابن عطية فائدة لم يذكرها القرطبي: وهي أن كتمان الشهادة لا يجوز، ويراعى في أدائها حال الشاهد والمشهود والقرائن، فرب شهادة ضيقت حقًا أو خدمت باطلاً، لاسيما مع كثرة الأغراض والحيل وفساد الناس والحكام^(٢)، هذه أبرز الفروق بين التفسيرين^(٣).

(١) الجامع لأحكام (٣/ ٣٥٨).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤١٩).

(٣) وانظر المحرر الوجيز (١/ ٤١٦ - ٤١٩). الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٤٦ - ٣٥٨).

أمثلة تطبيقية

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْكُمْ بَعْضٌ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْتِينَ أَمْنَتَهُمْ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُمْ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾^(١).

تعريف الرهن:

قال القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره:

"رهن الشيء في كلام العرب معناه: دام واستمر ... ، ورهنه أي أدامه ... ، والرهن بمعنى الثبوت والدوام ... ، ويقال في معنى الرهن الذي هو التوثقة من الحق: أرهنت إرهاناً فيما حكى بعضهم ... قال القاضي أبو محمد عبد الحق - رحمه الله -: ويُقال بلا خلاف في البيع والقرض: رهنتُ رهناً، ثم سُمي بهذا المصدر الشيء المدفوع"^(٢).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"الخامسة: معنى الرهن: احتباس العين وثيقة بالحق لِيُسْتَوْفَى الحق من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم، وهكذا حده العلماء، وهو في كلام العرب بمعنى الدوام والاستمرار ... ، ورهنه أدامه ..."^(٣).

دراسة وتحليل:

توسع المفسران في التعريف اللغوي للرهن واتفقا أنه من الدوام والثبوت والاستمرار. وعند الرجوع إلى كتب اللغة والتفاسير نجد أنّ تعريف الرهن لغةً بالاستمرار غير موجود، ولعل ابن عطية هو أول من سبق إليه وتابعه عليه القرطبي، والثعالبي^(٤). والمشهور في تعريف

(١) البقرة: ٢٨٣

(٢) المحرر الوجيز (٤١٧/١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣٤٨/٣).

(٤) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (١/ ٥٥١).

يوضع الرهن على يديه، فقال مالك وجميع أصحابه وجمهور العلماء قبض العدل قبض، وقال الحكم بن عتيبة وأبو الخطاب قتادة بن دعامة وغيرهما: ليس قبض العدل بقبض، وقول الجمهور أصح من جهة المعنى في الرهن"^(١).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره:

"الثامنة: قوله تعالى: ﴿ مَقْبُوضَةٌ ﴾ يقتضي بينونة المرتهن بالرهن. وأجمع الناس على صحة قبض المرتهن، وكذلك على قبض وكيله. واختلفوا في قبض عدل يوضع الرهن على يديه، فقال مالك وجميع أصحابه وجمهور العلماء: قبض العدل قبض. وقال ابن أبي ليلى وقاتدة والحكم وعطاء: ليس بقبض، ولا يكون مقبوضًا إلا إذا كان عند المرتهن، ورأوا ذلك تعبدًا. وقول الجمهور أصح من جهة المعنى؛ لأنه إذا صار عند العدل صار مقبوضًا لغةً وحقيقةً؛ لأن العدل نائب عن صاحب الحق وبمنزلة الوكيل، وهذا ظاهر"^(٢).

دراسة وتحليل:

اتفق المفسران على أهمية قبض الرهن وأنه إذا بان من الراهن إلى المرتهن صار رهنًا شرعيًا، وذكروا الإجماع على صحة قبض المرتهن وقبض وكيله، وذكروا الخلاف في قبض العدل ورجح المفسران قول الجمهور بجوازه، وهذا هو الصحيح، لعدم وجود دليل يمنعه، والآية ﴿ فَهِنَّ مَقْبُوضَةٌ ﴾ عامة وذكرت القبض ولم تحدد القابض، ولأن المقصود من الرهن ضمان حق سداد الدين وهذا يحصل بقبض العدل، لاسيما مع اقتضاء الحاجة لقبض العدل كما في بعض الملابس والنزاعات. وقد نقل القرطبي كلام ابن عطية وأضاف عليه مزيد من التعليل على جواز قبض العدل، وأنه أمين لا يضمن إلا أن يفرض

(١) المحرر الوجيز (١/٤١٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/٣٤٩).

ولا تقل أخبر بها عند الأمير، بل أخبره بها لعله يرجع ويرعوي. الموفية عشرين: إذا كان على الحق شهود تعين عليهم أدائها على الكفاية، فإن أداها اثنان واجتزا الحاكم بهما سقط الفرض عن الباقيين، وإن لم يجتزا بها تعين المشي إليه حتى يقع الإثبات. وهذا يُعلم بدعاء صاحبها، فإذا قال له: أحيى حقي بأداء ما عندك لي من الشهادة تعين ذلك عليه. الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ خص القلب بالذكر إذ الكتم من أفعاله، وإذ هو المضغة التي بصلاحها يصلح الجسد كله كما قال عليه السلام، فعبر بالبعض عن الجملة... فقوله: ﴿ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ مجاز، وهو أكد من الحقيقة في الدلالة على الوعيد، وهو من بديع البيان ولطيف الإعراب عن المعاني. يُقال: إثم القلب سبب مسخه، والله تعالى إذا مسخ قلباً جعله مُناقفاً وطبع عليه، نعوذ بالله..^(١).

دراسة وتحليل:

اتفق المفسران على حرمة كتم الشهادة وعلى وجوب أدائها حيث تُطلب من الشاهد وتلزمه، وأضاف ابن عطية فائدة وهي مراعاة الحال وتأدية الشهادة في محلها، وأضاف القرطبي أن الشهادة على جماعة الشهود فرض كفاية، ولا تتعين على شخص إلا أن يلزم ذلك ولا يثبت الحق إلا بقوله، كما اتفق المفسران أن كاتم الشهادة آثم، وخص (القلب) بالذكر؛ لأنه ملك الأعضاء وصلاحه صلاحها وفساده فسادها، واتفق المفسران أن في الآية تهديد ووعيد لمن كتم الشهادة. والملاحظ أن القرطبي ينقل معظم كلام ابن عطية ويزيد عليه بعض الفوائد. فهذه جملة اتفاقهم، وهناك مسائل كثيرة ذكرها القرطبي ولم يتطرق لها ابن عطية، فقد جمع القرطبي كثيراً من أحكام الرهن وذكر مسائل عديدة لم تذكر في تفسير ابن عطية منها: لو وضع الرهن على يدي عدل فضاع لم يضمن المُرتهن ولا الموضوع على يده [العدل]؛ لأن المُرتهن لم يكن في يده شيء يضمنه. والموضوع على يده أمين والأمين غير ضامن. ومنها: جواز رهن المُشاع، خلافاً لأبي

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/٣٥٣).

عياله فهو إمّا أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظلمتهم، وهذا الفعل مذموم منهى عنه^(١).

رحم الله القرطبي وابن عطية رحمة واسعة، وأجزل لهما المثوبة، ونفعنا بعلومهما في الدارين، وجمعنا وإياهم في مستقر رحمته في أعلى الدرجات مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا. آمين.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٤٩-٣٥٨).

٢- أوصي الباحثين في مجال الفقه، النظر في تفسير القرطبي، فهو موسوعة تفسيرية فقهية.

٣- أوصي الباحثين في دراسة التفسير المقارن الرجوع إلى التفسير الأخرى لأن ذلك يعزز من قوة البحث ويزيد الباحث ملكة وتخصص.

٤- أوصي بتكثيف دراسة التراث العلمي الأندلسي، وكذلك علماء المشرق، لما في ذلك من حفظ العلم والتاريخ.

٥- أوصي بمشروع يُختصر فيه تفسير القرطبي وفق قواعد رصينة، لتيسير الاستفادة منه.

٦- أوصي نفسي وأهل العلم والمسلمين بتقوى الله وجمع الكلمة وإصلاح ذات البين، وترك النزاع والاختلاف والفرقة، وأن يكون الولاء في الأصول الإسلامية العامة، وإنزال المسائل الخلافية منزلها، والرد بالدليل والبرهان وبالأسلوب الراقي الحسن، والحرص على المودة والألفة ما أمكن.

هذا والله أعلم، وهو الهادي إلى سواء الصراط. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين. آمين.

فهرس الآيات القرآنية

رقم الصفحة	اسم السورة ورقم الآية	الآية	
٨١	الفاتحة: ١	﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	١
٧٢، ١٥٧	الفاتحة: ٢	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٢
١٣٧	الفاتحة: ٦ - ٧	﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.....﴾	٣
١٦٨	البقرة: ١٠٢	﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلْنَا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ...﴾	٤
١٣٥	البقرة: ١٣٣	﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ.....﴾	٥
٢٤٢	البقرة: ١٥٨	﴿فَمَنْ حَاجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾	٦
٢٣١	البقرة: ١٨٣ - ١٨٤	﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ.....﴾	٧
٢٤٥	البقرة: ١٩٦	﴿وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾	٨
٧٣	البقرة: ٢١	﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ.....﴾	٩
١١٠	البقرة: ٢٥	﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	١٠
١٨٧	البقرة: ٢٥٦	﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ.....﴾	١١
١٣١	البقرة: ٢٧٢	﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا يَحْكُنَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ.....﴾	١٢
٢٧٣	البقرة: ٢٧٥	﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا.....﴾	١٣
١٧٦	البقرة: ٢٨١	﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ.....﴾	١٤
٢٨٤	البقرة: ٢٨٣	﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهِنَّ مَقْبُوضَةً﴾	١٥
٩٢	البقرة: ٢٩	﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ﴾	١٦

		إِلَى السَّمَاءِ.... ﴿	
٢١٩، ٢٠٥	البقرة: ٣	﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿	١٧
٩٩	البقرة: ٣٠	﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴿	١٨
٢٥٧	البقرة: ٣٤	﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ... ﴿	١٩
١٦٢، ١٤٦	البقرة: ٣٥	﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴿	٢٠
٢١٠	البقرة: ٤٣	﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿	٢١
١٦٧	البقرة: ٦٣	﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ... ﴿	٢٢
١١١	البقرة: ٨	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْأَخْيَرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿	٢٣
٢٦١	البقرة: ٨٣	﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴿	٢٤
١٠٩	آل عمران: ١٧٣	﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا... ﴿	٢٥
١٧٦	آل عمران: ٥٩	﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴿	٢٦
٢٤٥، ٢٤٨	آل عمران: ٩٧	﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿	٢٧
١٢٦	آل عمران: ١٠٣	﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿	٢٨
٢٦٦	آل عمران: ١٥٩	﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴿	٢٩
٨٤	آل عمران: ٢	﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي... ﴿	٣٠

فهرس الأحاديث النبوية

رقم الصفحة	الحديث أو طرفه	
١٥٠	أتاني جبريل فعلمني الصلاة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم يجهر بها	١
١٢٨	اختلاف أمي رحمة	٢
٢٠٩	إذا أُقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة	٣
٢٠٧	إذا تُوب بالصلاة فلا يَسَعُ إليها أحدكم ولكن ليمشي	٤
١٣٤	إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم	٥
١٢٩	ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين	٦
١٢١	أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها	٧
١٨٧	أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُقاتِلَ العرب أهل الأوثان	٨
١٦٤	إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم	٩
١٥١	أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى قراءة جابر وحكايته أمر الصلاة	١٠
١٦٤	أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه	١١
٢٧٤	أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الذهب بالذهب تَبْرُها	١٢
٢٤٩	أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال له رجل: يا رسول الله ما السبيل	١٣
١٩٢	أن علياً رضي الله عنه قال: (لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي	١٤
١٧٦	أن وفد نصارى نجران جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم	١٥
١١٦	الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى	١٦

١١١	الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان	١٧
١٢٨	تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين	١٨
١٢٧	خلاف أمتي رحمة	١٩
٢٢١	دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رغبة	٢٠
٢٧٤	الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر	٢١
١٥٣	سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين؟ قال: رب افعل....	٢٢
١٥٠	قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، يقول العبد الحمد لله رب العالمين	٢٣
١٤٩	كيف تفتتح الصلاة يا جابر؟ قلت: بالحمد لله رب العالمين	٢٤
١٦٦	لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم	٢٥
١٤٩	لا تقل ذلك، فإنه يتعاضم عنده، ولكن قل: بسم الله الرحمن الرحيم،	٢٦
١١٦	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	٢٧
٣٨	اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار	٢٨
٢٢٣	ليس في حَب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أُوسُق	٢٩
١٥٣	ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة	٣٠
١٢٩	من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له	٣١
١٩٦	نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة	٣٢
١٩٤	نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة، قال: وإنما كانت لمن لم يجد،	٣٣
١٥٠	هل لك ألا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة	٣٤

فهرس الفرق

رقم الصفحة	الاسم	
٢٩	الأشاعرة	١
١٣٧	الإمامية	٢
١٣٠	الجبرية	٣
١٣٠	الجهمية	٤
١٣٠	الحرورية	٥
١٢٢	الخوارج	٦
١٣٠	الرافضة	٧
١٣٠	القدرية	٨
١١٩	المرجئة	٩
٩	مرسية	١٠
٨٢	المعتزلة	١١

فهرس المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- إثبات صفة العلو، لمؤلفه: أبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي (ت: ٦٢٠هـ)، المحقق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، ط: الأولى، عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- ٣- الإحاطة في أخبار غرناطة، لمؤلفه: (لسان الدين ابن الخطيب) أبوعبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي الأندلسي، (ت: ٧٧٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٤- أحكام القرآن، للقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشيلي المالكي (ت: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الثالثة، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م
- ٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لمؤلفه: أبي السعود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٦- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ) إشراف: زهير الشاويش الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة: الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- ٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لمؤلفه: أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٨- الإسرائيليات في التفسير والحديث، لمؤلفه: محمد حسين الذهبي، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الرابعة، عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- ٤٥- تفسير ابن المنذر، حققه وعلق عليه الدكتور: سعد بن محمد السعد، الناشر: دار المآثر، المدينة النبوية، ط: الأولى، عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٤٦- تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب - جامعة طنطا، ط: الأولى، عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٤٧- تفسير عبد الرزاق، الناشر: دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، سنة ١٤١٩هـ.
- ٤٨- تفسير القرآن العظيم، لمؤلفه: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طبية للنشر والتوزيع، ط: الثانية، عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٤٩- تفسير القرآن الكريم (ويُسمى التفسير القيم، وهو استخراج وجمع محمد أويس الندوي من مؤلفات ابن القيم)، لمؤلفه: (ابن القيم) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٠هـ.
- ٥٠- تفسير القرآن، لمؤلفه: (العز بن عبد السلام) أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت: ٦٦٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- ٥١- تفسير القرآن، لمؤلفه: السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، ط: الأولى، عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٥٢- تفسير المراغي، لمؤلفه: أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط: الأولى، عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
- ٥٣- تفسير مجاهد، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط: الأولى، عام ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٨١- ديوان الإسلام، لمؤلفه: شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (ت: ١١٦٧هـ)، تحقيق: سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الأولى، عام ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٨٢- ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، لمؤلفه: (الفاسي) محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (ت: ٨٣٢هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٨٣- ذيل طبقات الحنابلة، لمؤلفه: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، ط: الأولى، عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٨٤- رجال صحيح مسلم لمؤلفه: (ابن مَنجُويَه) أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم، أبو بكر ابن مَنجُويَه (ت: ٤٢٨هـ)، تحقيق: عبد الله الليثي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٠٧هـ، (٢/ ٢٢٠).

٨٥- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، لمؤلفه: (ابن بطوطة) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله (ت: ٧٧٩هـ)، الناشر: أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، عام ١٤١٧هـ.

٨٦- رسالة في القرآن وكلام الله، لمؤلفها: ابن قدامة المقدسي، المحقق: يوسف بن محمد السعيد، الناشر: دار أطلس الخضراء، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٨٧- روح البيان، لمؤلفه: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (ت: ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٨٨- الروض المعطار في خبر الأقطار، لمؤلفه: أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري (ت: ٩٠٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط: الثانية، عام ١٩٨٠م.

١٢٤- طلبية الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، لمؤلفه: عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، أبو حفص، نجم الدين النسفي (ت: ٥٣٧هـ)، الناشر: المطبعة العامرة، مكتبة المثني ببغداد، تاريخ النشر: ١٣١١هـ.

١٢٥- العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر (تاريخ ابن خلدون)، تحقيق خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط: الثانية، عام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٢٦- العرش لمؤلفه: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قَائِمَاز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ط: الثانية، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٢٧- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، لمؤلفه: أبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، المعروف بالسمن الحلبي (ت: ٧٥٦هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٢٨- العمرة سنة عند المالكية والحنفية. انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، لمؤلفه: عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري (ت: ١٣٦٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الثانية، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٢٩- غاية النهاية في طبقات القراء، لمؤلفه: شمس الدين أبو الخير محمد ابن الجزري (ت: ٨٣٣هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية، ط: الأولى، عام ١٣٥١هـ.

١٣٠- غاية الوصول في شرح لب الأصول، لمؤلفه: زكريا الأنصاري، (ت: ٩٢٦هـ)، الناشر: دار الكتب العربية الكبرى، مصر.

١٣١- غرائب القرآن و رغائب الفرقان، لمؤلفه: نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، عام: ١٤١٦هـ.

١٣٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لمؤلفه: ابن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، عام ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي،

١٧١- مُعتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، لمؤلفه: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، عام ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١٧٢- مُعجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، لمؤلفه: (ابن الأبار) محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت: ٦٥٨هـ)، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط: الأولى، عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٧٣- مُعجم الأدباء، لمؤلفه: أبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٧٤- مُعجم البلدان، لمؤلفه: (ياقوت الحموي) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، (١/٢٦٣)، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

١٧٥- المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، لمؤلفه: أعضاء ملتقى أهل الحديث، <http://www.ahlalhdeth.com>

١٧٦- معجم اللغة العربية المعاصرة، لمؤلفه: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٩هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٧٧- المعجم المفهرس، لمؤلفه: أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد شكور المياديني، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، عام ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٧٨- معجم المؤلفين، لمؤلفه: (عمر كحالة) عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (ت: ١٤٠٨هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧٩- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، لمؤلفه: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة (ت: ١٤٠٨هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: السابعة، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

- ١٨٠- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، لمؤلفه: شمس الدين أبي عبد الله محمد الذهبي، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، عام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- ١٨١- المغول [التتار] بين الانتشار والانكسار، لمؤلفه: علي محمد محمد الصلابي، الناشر: الأندلس الجديدة، مصر، ط: الأولى عام ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
- ١٨٢- مفهوم الأسماء والصفات، المؤلف: سعد بن عبد الرحمن ندا، الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (٤٥).
- ١٨٣- مفهوم الأسماء والصفات، المؤلف: سعد بن عبد الرحمن ندا، الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- ١٨٤- موطأ الإمام مالك (ت: ١٧٩ هـ)، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد آل نهيان للأعمال الخيرية، أبو ظبي، الإمارات، ط: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- ١٨٥- الملل والنحل، لمؤلفه: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، (ت: ٥٤٨ هـ)، الناشر: مؤسسة الحلبي.
- ١٨٦- منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، لمؤلفه: أبي زكريا يحيى بن إبراهيم بن أحمد بن محمد الأزدي السلماسي (ت: ٥٥٠ هـ)، تحقيق: محمود بن عبد الرحمن قدح، الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط: الأولى، عام ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ١٨٧- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمؤلفه: محمد عبد العظيم الزرقاني (ت: ١٣٦٧ هـ)، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط: الثالثة.
- ١٨٨- منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لمؤلفه: ابن الجزري، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، عام ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ١٨٩- منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، لمؤلفه: د مصطفى محمد حلمي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الأولى، عام ١٤٢٦ هـ.

